

غرفة العناية المركَّزة

رواية

دار الشروق

عز الدين شكري فشير

غرفة العناية المركزة

روايــة

دارالشروق

الطبعة الأولى ١١٠٢

رقـم الإيداع ٢٤٩١٨/٢٠١١

ISBN 978-977-09-2960-9

٨ شارع سيبويه المصري

مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +

email:dar@shorouk.com

www.shorouk.com

تقع أحداث هذه الرواية عام ١٩٩٥، وهي تقوم على خيال محض، وأي تشابه بين مضمونها وبين أحداث أو أشخاص أو هيئات قائمة في الواقع هو من قبيل المصادفة.

(١)
موت سريري

صمت مفاجئ يغلف المكان. كأن الحياة توقفت، أو كأن أحدًا داس على زر عزل الصوت. أحاول أن أفتح عيني لأرى ما حدث. جفناي ملتصقان. أحاول تحريك يدي لأفرك عينيَ فلا تتحرك. لا بد وأن ذراعي محشورة في هذا الأسمنت. أركز جهدي كله في جفنيّ أحاول تحريكهما يمينا ويسارًا. بدآ يتحركان ثم انفتحا شيئا فشيئا وهما يتركان لسعة، كأني أنزع شريطًا لاصقا من على شعر يدي. أدير مقلتي لأرى أين أنا: لا شيء. الظلام يخيم على المكان. شيء يدعو للقلق يا سيادة العميد. ليس في التدريب شيء عما يجب أن تفعله بعد الانفجار. كل تدريبك كان عن منع الانفجارات لا عن العيش بعدها. أترى سيدخلون برنامجا تدريبيا جديدا بعد عودتي؟ إن عدت؟

ما هذه الأفكار؟ هل هذا وقته؟

كم من الوقت مر؟ وماذا كان هذا الانفجار بالضبط؟ هل انهار المبني كله؟ هل هذا الظلام هو تراكم الأنقاض فوقي أم تراني فقدت البصر؟ كيف أخرج من هنا؟ نوبة الصداع النصفي تهاجمني مرة أخرى: أشعر بدبيبها في نصف رأسي الأيمن. ما الذي حدث؟ أين الباقون؟ ولماذا ذهبت كل الأصوات هكذا؟ منذ دقيقة واحدة كانت القنصلية تعج بالأصوات والضجيج الذي يعيد إليك ذكرى مجمع التحرير: زعيق في المدخل، بالإضافة للضوضاء المعتادة من حديث السكرتيرات ونداءات الموظفين بعضهم على بعض وعلى الفراشين ورزع الباب المتواصل واحتجاج أحد المواطنين على عدم قضاء مصلحته وعلى الفوضى وعلى المواعيد وعلى الحكومة وعدم احترام المصريين في الخارج. كانت هناك ضوضاء زائدة خلتها خناقة فقمت وفتحت الباب لأرى ما يحدث، ومع فتحي للباب انفجر المكان كله أمام عيني. ثم ظلام، وصمت، وهذا الصداع.

كأنه فيلم لجيمس بوند، لماذا أتذكر ذلك الآن؟ كانوا يعرضون علينا أفلامًا لجيمس بوند أثناء التدريب. لماذا كانوا يعرضون علينا هذه الأفلام؟ هل ليحفزونا على أن نسعى لنكون جهاز أمن لا يمكن قهره؟ «أقوى جهاز مخابرات في المنطقة» مثلما يقول جميل راتب لمديحة كامل في «الصعود إلى الهاوية»؟ أنا الآن في الهاوية، تحت الأنقاض في هذه المدينة الغريبة، بلا سبب. أنا هنا الآن لأن أحد الذين أطاردهم بلا سبب فجر هذه القنصلية بلا سبب. أحاول أن أحرك ساقي أو جسمي، أن أقوم أو أنقلب على جنبى، لكن شيئا من ذلك لم يحدث. أطرافي لا تستجيب...لا أشعر بجسدي نفسه، اللهم إلا هذا الصداع

المتزايد.

كم من الوقت مر منذ الانفجار؟ هل كانت قنبلة في حقيبة، أم مخبأة في الأثاث، أم هي سيارة محملة بالمتفجرات؟ سيارة مفخخة مثلما تسميها الصحف اللبنانية؟ كانت الساعة العاشرة بالضبط عندما وقع الانفجار، لأني حين سمعت الضجة عند الباب وخرجت لأرى ما يحدث نظرت في ساعتي. كم الساعة الآن. لا أستطيع حتى النظر في ساعتي، هذا إذا كان ذراعي في مكانه أساسًا. هل يمكن أن يكون ذراعي... هل يمكن أن أنزف دون أن أشعر بذلك؟ أنا صحيح لا أشعر بذراعيّ ولا بساقيّ ولكني أعرف أنهم موجودون. لا بد وأن من يفقد جزءًا من جسمه يشعر بهذا الفقدان. لا بد وأنهم في مكانهم وإلا لكنت شعرت بذلك. كيف يعيش الناس دون سيقان وأذرع؟ وهل هذا وقت هذه الأفكار الممضة؟

كيف سأخرج من هنا؟ وكيف لا أرى شيئا على الإطلاق هكذا؟ كنت أتوقع أن تعتاد عيناي الظلام مع الوقت وأن أبدأ في تمييز الأشياء ولكني لا أرى شيئًا حتى الآن. كيف يمكن ألا أرى لهذه الدرجة؟ غريبة. لا فارق البتة بين أن أغلق عيني أو أفتحهما. نفس درجة الظلام. ولا حتى شبح رؤية أو ضوء، كأني لا أفتح عينيَّ أساسًا. من الذي كان يصرخ «عيناي» في أحد الأفلام القديمة؟ هل هو حسين رياض؟ ولماذا تلح الأفلام على ذاكرتي الآن؟

كان عندي موعد مع أشرف فهمي عند الظهيرة. لحظة واحدة... الآن أتذكر أني رأيت أشرف فهمي في القنصلية عند وقوع الانفجار. عندما فتحت الباب لأرى ما يحدث رأيته واقفا عند الباب والتقت عينانا في اللحظة التي طار فيها كل شيء! ماذا كان يفعل في القنصلية وقتها والمفروض أنه موجود بقاعة المؤتمرات في الناحية الأخرى من المدينة؟ هل له علاقة بالحادث؟ هل علم بأمر القنبلة وجاء ليحذرني أم أتى هو نفسه بالقنبلة؟ ولكن ما أهمية ذلك الآن؟ ألا يمكن لرأسي أن تكف عن العمل قليلا؟ ألا أستطيع أن أنام حتى يأتوا ويأخذوني من هنا؟

* * *

قال لي نشأت إن «المصدر» سيقابلني في الهيلتون بعد صلاة العصر، لطيف أن هذا المحامي القبطي يستخدم مواقيت الصلاة بدل الساعة! مقهى الهيلتون الخاوي. في الخارج شارع مقفر يؤدي إلى جسر أم درمان الخاوي أيضًا. هنا يلتقي النيل الأبيض بالنيل الأزرق، ويمكنك أن

ترى النيل الأزرق بمائه البني الهادر وهو يلتقي بالمياه الهادئة الشفافة للنيل الأبيض ويختلطان ببطء. هذا هو الشيء الوحيد الذي أحبه في الخرطوم: النيل القوي المنساب في جلال غير آبه بخرائب المدينة الممتدة على ضفافه. لا شيء في الشارع أو على الجسر سوى بعض السيارات والحافلات المفككة، وأناس لا تعرف أن كانوا جالسين أم يتسكعون أم نسوا لِمَ أتوا. الزجاج السميك للمقهى يحجب الحرارة القائظة في الشارع، ويعزل الصوت وهبات الغبار التي لا تنقطع. لا يبقى بالمكان سوى صوت الأحاديث الخافتة للرواد الأوربيين وبعض السودانيين الجالسين معهم. أزيز عجلات عربات الحقائب في مدخل الفندق. صوت إشارة توقف المصاعد. وصوت ماكينة الإسبرسو الوحيدة في الخرطوم. رنت إشارة المصعد مرة أخرى وخرج منه رجل في أواخر الثلاثينيات يحث الخطى نحوي كأنه يعرفني من قبل. ملامحه غير مصرية: لحيته كستنائية ناعمة، شديدة التهذيب والأناقة، وعيناه خضراوان، شعره وشاربه متسقان مع طول لحيته. تجاهلته ظنًا مني أنه أحد الأوربيين الذين يملئون المكان في هذه الساعة لتناول الغداء، فاقترب مني ومد يده مصافحًا:

ـ أحمد بيه كمال؟

جلس وطلب لنفسه قهوة إسبرسو بينما طلبت أنا قهوة سادة. كان يتحدث ببطء وببعض من التردد وتتخلل الكلمات الإنجليزية حديثه. كنت مستغربًا هذا المصري الخواجة، وعندما سألته إن كان مقيما في الخرطوم ابتسم وصمت لحظة ثم أخبرني أنه يعمل مع شركة بترول أمريكية وأنه أتى إلى الخرطوم للتفاوض حول بدء الشركة لنشاط هنا وسيسافر بعد يومين.

ـ ماكنتش أعرف إن شركات البترول الأمريكية بتشتغل في السودان!

ـ يعني، من الباطن، وفيه مفاوضات للبدء لو العقوبات خفت. حضرتك من الأمن؟

ـ أنا القنصل.

ـ عارف، أنا قصدي إنت من الأمن ولا من الخارجية؟

ـ هو حضرتك عاوز إيه بالضبط؟

ـ الحقيقة إني أعرف الدكتور نشأت من زمان، من أيام الجامعة. أنا كنت

طالب في كلية الحقوق وهو درس لي أول ما رجع من فرنسا. الكلام ده كان سنة ١٩٧٧ وكنت أنا لسه خارج من المعتقل بعد مظاهرات يناير.

ثم أردف ضاحكا:

ـ يعني تقدر تلاقي ملفي عندكم. د. نشأت كان كله آمال وأحلام وأنا كان كلي إحباط. كنت خارج من المعتقل في حالة يرثى لها: كل آمالي اتحطمت. مش بس ثقتي في النظام، ولكن أيضا ثقتي في نفسي وفي المجتمع اللي عايش فيه وفي فايدة الحياة نفسها. إيه الفايدة إنك تعيش إذا كانت حياتك وكرامتك مهددة طول الوقت؟ ده مش كلام مظاهرات، أنا باتكلم بجد. إزاي تعيش وإنت عارف إن في أي لحظة ممكن الباب ينفتح عليك وييجي ناس يمرمطوا بكرامتك الأرض؟ طبعا حضرتك مش ممكن تحس الإحساس ده باعتبارك من اللي بيمرمطوا مش اللي بيتمرمطوا.

ـ أنا ماباشتغلش في مباحث أمن الدولة، إذا كان ده الهدف من تلقيح الكلام.

ـ أنا ما بالقّحش كلام، الظاهر حضرتك مش فاهم! إحنا هنا مش في مصر، ومافيش حاجة تجبرني أكلمك، ولو عايز أقوم أضربك دلوقت مافيش عساكر حتنده عليهم يحطوني في الحجز ويوضبوني!

قلت في برود:

ـ أنا عارف.

بدا الأخ مندهشًا قليلًا من رد فعلي. تردد لحظة ثم أردف:

ـ المهم، وقتها كان فاضللي سنة وأخلص الكلية وكنت مرتب أموري على الهجرة لأمريكا. الدكتور نشأت حاول يقنعني أقعد في مصر واشتغل في المكتب اللي كان ناوي يفتحه ـ مكتب للدفاع عن القضايا السياسية، زي ما انت عارف أكيد، قضايا الحريات وسجناء الرأي وخلافه. اعتذرت وسافرت واشتغلت في الشركة اللي أنا فيها دلوقت. دارت الأيام واتقابلنا صدفه امبارح في مؤتمر حقوق الإنسان اللي منظماه الأمم المتحدة هنا. صدفة بحتة، أنا كنت رايح أقابل واحد صديقي من أيام زمان. واحد صحفي.

ـ أشرف فهمي؟

ـ الله، ده حضرتك فعلا مش أمن دولة، ده انت مخابرات!

ابتسمت ولم أجب. كانت التعليمات أن ننفي دائما، حتى لو كنت على ثقة أن من يكلمني يعرف، وأنه يعرف أني أعرف أنه يعرف. ولكن مزاجي لم يكن أمنيا، فصمتُّ.

ـ على العموم ده أفضل. أيوه أشرف فهمي، أنا كنت أعرفه من أيام مظاهرات ١٩٧٧، كان قابل مجموعة من المعتقلين ونشر عنا سلسلة تحقيقات عملت ضجة وقتها، وفضلنا على اتصال بعد كده لفترة. المهم، أكمل الحكاية لأن الوقت بيعدي وانا لازم أمشى. أنا أحوالي استقرت في أمريكا، حتى جواز السفر المصري لما انتهى ما حاولتش تجديده. اتجوزت أمريكية مسلمة من أصل تونسي وجبنا طفلين وعشت حياتي في هدوء بعيد عن مصر. مابقيناش أمريكان ١٠٠٪، إحنا طبعًا لينا تقاليد مختلفة، لكن الحياة في أمريكا رغم اختلافها عن تقاليدنا كانت أنسب لنا عن الحياة في مصر اللي المفروض ان تقاليدنا نابعة منها. لكن بعد ما جبنا أول طفل بدأ احتكاكنا يزيد ببقية العرب، أقصد الأمريكيين من أصل عربي يعني.

ـ إشمعنى؟

ـ لأن نمط الحياة في أمريكا بيغلب على كل الناس بغض النظر عن أصلهم، زي ما تكون مكنة ضخمة بتبلع الداخل فيها وتفرمه وتخرجه في قالب معين. جوه القالب ده ممكن تكون مسلم أو يهودي أو هندوسي أو أي حاجة، لكن القالب غالب زي ما بيقولوا. علشان كده حسينا ـ بعد الخلفة ـ باحتياجنا للتعرف على عرب ومسلمين تانيين، علشان الأولاد. كأننا بنستمد القوة من بعض علشان نفضل متشبثين بأخلاقنا وبديننا.

صمت الأخ ونظر عبر الطاولة لمجموعة من الشباب دخلوا لتوهم:

ـ غريبة البلد دى!

ـ بقي لك كتير هنا؟

ـ شهر. المهم، الموضوع بدأ بزيارات عائلية، دعوات على العشاء أو للشاي حسب الظروف. وبعدين عددنا بدأ يزيد بحيث بقت البيوت

تضيق علينا، وده بدأ يعمل مشاكل لأنك بتضطر تعزم ناس وتتجاهل ناس. وفي مرة، كان أول رمضان، اكتشف أحد الأصدقاء «مركز الحي»، وهو مكان ممكن أي حد من سكان المنطقة يستخدمه في المناسبات اللي تهم عدد من السكان، وبما إن عدد كبير منا كان ساكن في نفس المنطقة، طلب الصديق ده من إدارة المركز يسمحوا لنا نعمل إفطار هناك، وطبعا إخواننا الأمريكان بحسن نيتهم وافقوا. ومع الوقت تحول المركز إلى مكان للقائنا، وبدأ المزيد من العرب والمسلمين يعزلوا وييجوا في المنطقة، في نفس الوقت اللي بدأ فيه الأمريكان غير المسلمين يعزلوا خارج الحي. وفي خلال عشر سنوات تحولت المنطقة إلى حي إسلامي، منطقة محررة على رأي أحد الجيران.

ـ ماكانش فيه مصريين مسيحيين؟

ـ كان فيه في الأول، كانوا حتى بييجوا يفطروا معانا في رمضان، وبعدين مع الوقت بدأت الحساسيات تظهر، وبعد الحساسيات جت الخناقات، وبدأوا يقللوا من الزيارات، وبعدين عزلوا من المنطقة واحد ورا التاني.

جاء السفرجي أخيرًا بالقهوة. تناولت الفنجان ورشفت منه. نظر محدثي بعيدًا، عبر الزجاج. كان الأسى باديا على وجهه، أكثر قليلا من الأسى، كان خجلا مما يحكي. ولكن لماذا يحكي لي كل هذه القصة؟

ـ الأمور اتغيرت مع الوقت، الناس بقت مش طايقة بعضها، وبدأ الكلام يحتد، وبدأ البعض يقول على الأمريكان كفرة، وبعدين الحكاية شدّت أكتر والجو بقى مش ولابد. أنا طول عمري متدين، لأ، أكثر من متدين شوية، تقدر تقول ان طول عمري شايف ان الإسلام هو الحل، ولما دخلت المعتقل كان ده السبب. لكن تجربة المعتقل خلتني حساس قوي من ناحية احترام حرية الناس. كل واحد حر، اللي عايز يآمن واللي عايز ما يآمنش. وجودي في أمريكا كان مريحني من الناحية دي: هنا كل واحد حر. المهم، بدأت الأمور تشد وبقيت مش عاجب الباقيين لأنهم شايفيني متأمرك زيادة. أخذت جنب وفضلت أشارك من بعيد: رمضان والعيد وكده، لغاية ما حصل اللي حصل.

رشف الأخ لأول مرة من قهوته ونظر للشارع مرة أخرى وكأنه يراجع نفسه. هل يتكلم أم يتراجع؟ هذه هي اللحظة الحاسمة في اللقاء مع أي مصدر: إما كسبته وإما خسرته. ولكني ظللت صامتا، لم تكن لي رغبة في العمل هذا الصباح. ليتحدث إذا شاء وليصمت إذا شاء. حرية.

ـ الموضوع بدأ السنة اللي فاتت. إبني الكبير ـ عنده ١٧ سنة ـ دخل في اللون معاهم. نفس الأعراض المعروفة: بدل ما يصلي في البيت بدأ يروح يصلي في المركز الإسلامي، قاطع البنات اللي معاه في المدرسة، إلخ. يعني بعد ما كان بيناقشني ليه مايناميش مع صاحبته زي بقية الولاد بقي بيناقشني ليه باشتغل في شركة أمريكية كافرة!

صمت ثانية وأخذ نفسا عميقا، كأنما ليستجمع شجاعته كلها:

ـ المهم، علشان أختصر، أنا وصلت الخرطوم من شهر والمشروع اللي انا باتابعه حايستمر ست شهور، وكان المفروض العائلة تحصلني على أساس يقضوا فترة الأجازة الدراسية معايا. هم وصلوا من ثلاثة أيام، وبالصدفة، مراتي لقت في شنطة الولد حاجة غريبة. باختصار كده، قوالب من مادة غريبة زي الشمع ملفوفة بعناية وأوراق يبدو أنها دليل لصنع وتشغيل عبوات ناسفة. قالتلى. أنا طبعا اتجننت. المهم مسكت الواد وماسبتوش غير لما طلّع اللي في بطنه. هم فاكرني إيه؟ حاسيبهم يضيعوه؟ على آخر الليل، وبعد العياط وخلافه، قاللي كل حاجه. دي يا سيدي «أمانة» لازم يسلمها لبعض الإخوه في الخرطوم. هم اللي بيتصلوا بيه، وهو مايعرفش لا كنه الأمانة ولا الغاية من نقلها. قوللي انت أعمل إيه؟

كان ينظر إليَّ وينتظر الرد، وكانت تعبيرات وجهه شديدة الإخلاص. الآن أدركت أني وقعت في الخطأ الذي أقع فيه عادة: أتعاطف مع مصدري. كم مرة تعاطفت مع المصدر وحاولت مساعدته؟ برغم التدريب وبرغم التعليمات. ولكن لماذا أؤنب نفسي؟ أنا لست جيمس بوند، وليس هناك جيمس بوند. كلنا بشر، بعيوبنا وببعض ميزاتنا. الناس تعتقد أننا بلا أخطاء، وأن كل شيء معمول حسابه، ويبدو أن هذا تأثير الأفلام والمسلسلات: محمود ياسين يميل فجأة على فتاة عابرة في بار ويقبلها ليختبئ من ضابط المخابرات الإسرائيلي، ثم يتضح أن البنت تعمل معنا! سلوى خطاب تقابل رأفت الهجان في حفلة وفي نفس الليلة تقابله امرأة أخرى في المنزل لتحذره من ليلى فريدمان ويتضح أن الجميع يعمل لحسابنا! الأخ ما زال ينظر إليّ. هززت كتفي ولم أجب.

بلع الأخ ريقه ورشف رشفة أخرى من قهوته ثم استطرد في شرود:

ـ أنا راجل عملي. المدام قعدت تعيط وتؤنب في الولد. وده كان له أثره على نفسيته وخلّاه مستعد يعمل أي حاجة علشان يهدّيها ويخرج من الورطة دى. أنا حطيت الحاجات المشئومة دي قدامي وقعدت أفكر أعمل إيه. أرمي الحاجات دي في النيل وأقفل على الموضوع؟ طيب

والناس اللي حايتصلوا بيه هنا، نقول لهم إيه؟ الولد قال مش ممكن يرمي الحاجات لأنه أقسم لهم على المصحف بأنه «سيسلم الأمانة إلى أهلها» وده بعد ما ماعرفش مين فيهم قال له إن خيانة الأمانة عقوبتها الموت. طيب أبلغ القنصلية الأمريكية؟ العقل والمنطق والواجب يقول إني أبلغ. دي مش بس حياة ناس أبرياء المهددة، ده ابني نفسه. بس شيء داخلي كان بيمنعني من الإبلاغ، حتى لو أعطوا ابني حصانة مقابل تعاونه. معقولة أبلغ البوليس الأمريكي على أهلي وأبناء ديني؟ أنا أقف مع الأمريكان ضد أهلى؟ طيب وهم مين أهلي: اللي عايش وسطهم في أمان وفي حرية ولا اللي بيهددوا حياتي أنا وابني؟ لو كانوا تجار مخدرات كنت بلغت، لكن دول معتقدين إنهم بيدافعوا عن الإسلام، يعني شبه الموقف اللي عشت فيه طول عمري. طيب أبلغ البوليس السوداني؟ بس دول معندهمش لا حقوق إنسان ولا يامّه ارحميني وممكن يموتونا كلنا فيها. طيب أعمل إيه؟ لقيت إن الحل الوحيد هو إني أسلم الأمانة بنفسي وأبلغهم إن الولد بره الموضوع وإن ده شيء مش ممكن يتكرر. كوني نقلت الأمانة علامة على حسن نيتي وبالتالي رد فعلهم حيكون هادي. في نفس الوقت قررت أبلغ القنصلية المصرية. أنا عارف إن السفارات والقنصليات في العالم كله فيها ناس من الأمن، فاتصلت بالدكتور نشأت وسألته إن كان يعرف حد وقال لي عليك. كل اللي أتمناه إنك ما تتطلعش من مباحث أمن الدولة، مش عايز أبقى بأتعاون مع أمن الدولة على آخر الزمن.

ـ اطمئن.

ـ معضلة مش كده؟ بدأت حياتي ـ لأ، غيرت مجرى حياتي بسبب الأمن لأني كنت إسلامي، والنهارده ألاقي نفسي مضطر أبلغ الأمن عن جماعة إسلامية!

ـ طيب وليه مضطر، ما حنا ممكن لسه نلاقي حل؟

ـ لأن الأمانة وصلت بالفعل للجماعة، من ساعة.

هل هي ضجة الشارع تلك التي تعلو في رأسي أم هو ضغط الدم؟

ـ حضرتك بتقول إنك وصلت الحاجات؟

ـ ده كان الحل الوحيد أمامي علشان أحافظ على نفسي وعلى بيتى. إنت ماتتصورش الحالة الهستيرية اللي هم فيها. دول مش مصريين

زينا كده واخدين الأمور على الهادي، ده فيه باكستانيين وهنود وأفغان من اللي القتل عندهم أسهل من صباح الخير. ناس متربية على الدم وجايين من الحرب مع الروس إحساسهم ميت، وياويله اللي يبان عليه شبه تسامح، يبقي باع الدين بالدنيا وغرته الحضارة المادية المنحلة.

ـ أيوه أيوه، والبلاوي دي مين اللي استلمها؟

ـ ده بقى شغلكم انتم، أمال انت هنا بتعمل إيه؟ ولا فالحين بس تتشطروا على الغلابة في مصر؟ على رأي عادل إمام، مش انتوا الحكومة وعارفين كل حاجة؟

ـ عادل إمام؟ حضرتك بتهزر؟ نقلت متفجرات لإرهابيين وجاي تهزر؟

ـ اسمع ياحضرة الضابط، أنا كان ممكن ما اوركش وشي من أصله وأقول لك ده بالتليفون، وكان ممكن ماقولش حاجة خالص وأروح من حيث أتيت، فياريت تهدا كده وتخلينا في المفيد.

ـ أيوه... وإيه بقى المفيد سيادتك؟

ـ أنا قررت أوصل الأمانة وفي المقابل أبلغك بالجهة اللي سلمت لها الحاجة ـ بدون ذكر أشخاص بالاسم، وفي المقابل تكتب لي تعهد إنه لو حصل حاجة ابني هيكون شاهد في القضية.

ـ أكتبلك.

ـ بيني وبينك أنا ماعنديش ثقه في كلام الأمن بتاعنا، ماتآخذنيش أنا ماقصدش حضرتك أنا باتكلم عموما، لكن الورقة ممكن تفيد قدام المحاكم الأمريكية لو المسألة وصلت لكده.

ـ قلت لك حاكتبلك الورقة فمافيش داعي للكلام الزيادة والغلط.

أمسكت ورقة وكتبت له المضمون بالإنجليزية بسرعة وأعطيتها له. قرأها بتمعن ودسها في جيبه وهم واقفًا وهو يقول بصوت خفيض:

ـ التسليم كان لشيخ الجامع الكبير في أم درمان، الباقي بقه شغلك انت.

عندما كان شبحه يبتعد سمعت ضجيجًا آت من الشارع. كانت الضجة غير عادية، كأن هناك خناقة في الخارج. ذهبت ناحية الباب وفتحته

لأرى ما يحدث. في نفس اللحظة التي انفجر فيها كل شيء.

* * *

اتصلت أمي من أسيوط هذا الصباح وتبادلنا الحديث لمدة نصف ساعة. تبادلنا الحديث ليس وصفًا دقيقًا لما حدث، فباستثناء بعض الهمهمات وكلمات التعجب والموافقة ـ حسب الحالة ـ من جانبي، قامت أمي ببقية المجهود. اشتكت قليلا من صحتها وتقلب الضغط وفشل الأطباء في علاجها وحاجتها للمشي يوميا لمدة ساعة وأصرت على أن تدهور صحتها لا يمنعها من القيام بأعمال المنزل بنفسها وأنها لن تقبل بأن تدخل خادمة للمنزل على آخر الزمن، ثم اشتكت من أخي سليمان ومن زوجته التي هي سبب كل المشاكل في أسيوط ـ بما في ذلك موجة الحر الحالية ـ وسألتني عن عملي، وقالت لي قبل أن تتيح لي فرصة الرد أن سليمان يعمل كثيرا منذ نقله إلى مكتب سكرتير عام المحافظة ويتعرض لمضايقات من أعضاء الحزب لأنه لا يريد مشاركتهم في الفساد، وسألتني إن كنت أستطيع مساعدته والتوسط له، وعندما قلت إني لا أعرف أحدًا في المحافظة سألتني لماذا لا أحصل على شقة في أسيوط مثل بقية البشر، مبدية تعجبها من عدم استطاعتي الحصول على أي فائدة من عملي المرموق، ثم اشتكت من أن زوجة أخي تبدد أمواله وتأكل الفاكهة من الثلاجة قبل أن يتمكن أطفالها من تذوقها، وأنها تخشى من أن يؤدي إسرافها لعدم تمكن سليمان من استكمال بناء المنزل الذي ألقى أساساته في قطعة الأرض التي اشتراها في مدخل أسيوط من مجلس المدينة. كما أوصتني أمي أن أذهب أكثر من ذلك لزيارة أختي وزوجها في المهندسين وأن أهتم بها وبأولادها أكثر من ذلك. وختمت المكالمة بسؤالي عما إذا كان هناك شيئا جديدا في الأفق (تعني مشروع زواج). وصمتت لحظة كانت فرصتي الوحيدة للحديث فقلت إني لا أريد الزواج مرة أخرى، وإني تعديت الخمسين وهذا الموضوع قد انتهى بالنسبة لي، صمتت أمي لحظة ثم قالت إني ما زلت أبدو شابًا، وإنها تريد أن ترى ذريتي قبل أن تموت، وإن سنة الحياة وشرع الله أن يتزاوج الناس، وإنها لا تريد أن أنهي أيامي وحيدًا، غمغمت بشيء لا أتذكره تحديدًا، ووضعت السماعة.

* * *

الظلام يسيطر على المكان كله. وما زلت لا أشعر بأي جزء من جسمي غير رأسي التي يشطرها الصداع إلى نصفين.

كيف تكون الأحلام مبصرة والواقع أعمى؟ كيف أرى في الحلم وأشعر، بينما أفقد الرؤية والشعور عندما أستيقظ؟ كم من الوقت مر منذ الانفجار؟ هل بدأ عمال الإنقاذ في البحث تحت الأنقاض؟ لا بد وأنهم بدأوا، فقد مر وقت طويل منذ الانفجار. أتذكر الرجل الصعيدي الذي قضي ثلاثة أيام تحت أنقاض عمارة مصر الجديدة التي انهارت في الزلزال، والشاب المتزوج من إيطالية، كم قضي من الوقت؟ لا أذكر. أحدهما قال إنه كان يشرب من بوله ليبقى حيا، كان ذلك هو الإيطالي فيما أذكر. ليس الإيطالي، المتزوج من إيطالية. يجب أن أحاول التركيز. ماذا كانا يفعلان؟ لكنني لا أشعر بالعطش، ولا بالجوع. لقد تناولت إفطاري قبل انفجار القنصلية بساعة واحدة، ربما لم يمر وقت كاف، ولكنني أشعر أن دهرا قد مر. لا أشعر بجسمي على الإطلاق. هل أنا في غيبوبة؟ وهل يكون المرء واعيًا هكذا في الغيبوبة؟ ربما، من يدري؟ النائم يعتقد أنه واع حتى يستيقظ، قد يكون ذلك نوع آخر من الأحلام. هاهي الأفكار الممضة تعود من جديد. لا بد وأنني فاقد الوعي، أو على الأقل مصاب لدرجة فقدت معها الإحساس. ربما يترجم كل الجوع والعطش والألم إلى هذا الصداع الرهيب في رأسي. عمري ما شعرت بصداع مماثل. ربما هناك سحابة أيضا تغيم على بصري، رأيت ذلك في فيلم قديم. الله يلعن أبو الأفلام دلوقت. ماذا بوسعي أن أفعل؟ أصرخ مثلا أو أحاول تحريك جسمي.

لا فائدة.

* * *

الجو حار هذا الصباح وينذر بقيظ آت لاريب فيه. فتحت باب الشرفة وخرجت أرقب النيل. ورد النيل يواصل انتشاره على سطح الماء. بعض النسمات تأتي من وقت لآخر من جهة المنيب وتمر أمامي. كل شيء ساكن هذا الصباح. علم السفارة الإسرائيلية يبدو واضحًا من الشرفة، وأزواج من العشاق المبكرين احتلوا المصاطب الحجرية على الشاطئ أمام مطعم سويس إير. كنت أعمل في هذه الشقة في الأصل حين كنت أتولى متابعة أنشطة السفارة الإسرائيلية، فلما نقلت لمتابعة النشاط الإسلامي استطعت الاحتفاظ بالشقة خاصة وأنهم خفضوا العدد المخصص للنشاط الإسرائيلي ومن ثم أصبحت الشقتان الأخريان المطلتان على كوبري الجامعة كافيتين. طول عمري أحب النيل، وكان نفسي أسكن في شقة تطل عليه لكن تبدد هذا الحلم مع تغير أحوال الدنيا، فاكتفيت بالعمل في شقة تطل على النيل. زمان، قبل الحرب، حين كنت أعمل في الاستطلاع، كانت الكتيبة قرب

البحيرات المرة وكنت سعيدًا بهذا لأنها كانت تذكرني بالنيل. لكن المنظر هنا لم يعد مثلما كان: ورد النيل هذا يفسد عليَّ متعتي، ربما لأنه يميت الحركة على سطح النهر. ولا أفهم لماذا لا يقضون عليه ويريحوننا. كلما أزالوه من بقعة عاد وظهر في أخرى. دهشت عندما أخبرني أحد الإخوة السودانيين أن هذا النبات تتحول جذوره إلى خشب ويعوق الملاحة في أعالي النيل، وأن درجة صلابته تجعل عبور النهر سيرا على الأقدام ممكنًا.

في كل صباح، من التاسعة للتاسعة والنصف، وأنا أتناول القهوة والساندوتش في الشرفة، أراقب عمال المسطحات المائية وهم يزيلون الورد. عندما تراهم منهمكين مع هذا النبات الشيطاني الأخضر، تظن أنهم يعملون بهمة ونشاط. ولكني من متابعتي اليومية لعملهم بدأت أشك فيهم. ماذا يفعلون بالضبط؟ في البداية يلقون بكابلات وبراميل حول مساحة من ورد النيل بدعوى حصاره، على أساس أن يزيلوه من المنطقة المحصورة. الذي يحدث أن البراميل والكابلات لا تعوق انتشار الورد، وبعد أن يفرغوا من جمعه من المنطقة المحصورة، وهي عملية بطيئة جدا، يكون قد انتشر خارجها ومن ثم يبدأون من جديد. يفعلون ذلك كل يوم، وفي كل مرة يصلون لنفس النتيجة دون أن يبدو أن الفشل يؤثر عليهم. كأنهم آلات. في يوم بلغ بي الاستغراب حدًا جعلني أتصل بأحد أصدقائي في شرطة المسطحات المائية أسأله عن هذه الظاهرة الغريبة. صديقي دهش من السؤال:

ـ انت ما تعرفش ولا إيه ياسيادة العميد؟

ـ لا والله ياسيادة المقدم، نورني!

ـ دي كلها مناظر، ورد إيه اللي حانشيله؟ هو إحنا قد ورد النيل؟

ـ اشمعنى؟ أنا ماعرفش إن ورد النيل ده مسألة معقدة!

ـ لا يافندم، ده مسألة معقدة جدا. ورد النيل ده بيظهر نتيجة عوامل كثيرة بتأثر على مياه النهر، والسيطرة على الورد تتطلب تنسيق بين كمية وهمية من الهيئات، مش احنا بس، ده هيئة البحث العلمي، وبتوع الري والصرف، واللي ماسكين الخزانات والقناطر، والملاحة النهرية، والنفايات اللي بتترمى، وغيره وغيره. ولازم، ده يعني لو عايزين بجد، تتحط خطة يلتزم بها كل اللي بيتعاملوا مع مية النيل من السودان لغاية المصب، وطبعا دماغك يا باشا: لا فيه خطة ولا حد يقدر على التنسيق ده.

ـ وبعدين؟

ـ ولا قبلين يا باشا، إحنا بنطلع شوية عساكر، ووزارة الري بتبعت شوية عمال، يقعدوا يعملوا المناظر اللي بتشوفها سيادتك، ونثبت في الدفاتر إننا صرفنا كذا واشتغلنا قد كده، وأهو ناس بتسترزق، ونعمل لنا منظر، وأدينا برضه بنلم شوية ورد، وسلامتك.

ـ ما شاء الله!

ـ أمال يا باشا؟ سعادتك فاكرنا زيكم؟ إحنا على قد حالنا. بس تؤمر سعادتك، لو فيه شوية ورد قدام العمارة مضايقين سيادتك نبعت حد يشيلهم.

ـ لا، ماتاخدش في بالك، متشكر قوي.

ـ تحت أمرك يا باشا.

في اليوم التالي لاحظت أن العمال تركوا المساحة التي كانوا يعملون فيها عند كازينو صلاح الدين وجاءوا أمام عمارتنا يلموا الورد. كان يسألني «سعادتك فاكرنا زيكم»! ومن قال لك إننا لسنا مثلكم؟ من قال لك إننا لا نلم ورد النيل لتغطية المناظر نحن أيضا؟ وإننا على استعداد أن نأتي أمام بيتك ونلم الورد إذا شئت؟

لا أدري كيف حدث هذا بالضبط، ولا من المسئول عنه. هناك أشياء تحدث لك فجأة ولكنك مع ذلك لا تفاجأ بها بل وتشعر أنك كنت تعرف منذ زمن أنها ستحدث. منذ تلك المحادثة التليفونية وأنا متوقف عن العمل، لا أستطيع أن أعمل. أصل في الصباح إلى الشقة، وأخرج إلى الشرفة لأشرب القهوة وأتناول الإفطار ثم أظل أرقب ورد النيل حتى الثانية ظهرا دون أن أفعل شيئا. في الحقيقة أني توقفت عن فعل أي شيء ذي معنى منذ فترة طويلة، طويلة جدا، ولكن الأمور تطورت هذه المرة وصرت لا أعبأ حتى بالتظاهر بالعمل، أو بالعمل من أجل تغطية المناظر وسد الخانات. توقفت. كأن كلمة صديقي المقدم جاءت على الجرح، كأنه نكأ في نفسي جرحا كنت أظنه قد اندمل منذ زمن بعيد، ويبدو أنه لم يندمل. عند أول تذكِرة، انداح الدم من جديد وارتفع ضغط دمي وعاد الصداع يشطر رأسي.

* * *

كنا في الفراش، في ليلة رأس السنة. وأنا معكر المزاج كعادتي منذ عودتي من الجبهة الشهر الماضي. أشعر بما تشعر به سلمى وأخشى اللحظة التي ستحادثني فيها عن ذلك. كنا في الفراش وكنت أرى تلك اللحظة قادمة. التصقت بي سلمى فتململت وابتعدت عنها بوصة أو أقل قليلًا، فقط ما يكفي لإنهاء التلامس بين جسدينا. اقتربت هي ووضعت رأسها فوق صدري فداعبت شعرها بيدي وربَت على ظهرها، اقتربت أكثر ووضعت ساقها اليسرى فوق ساقي الممددة فتشنجت ساقي وتخشبت في مكانها. لم أحرك ساقي تحرجًا منها ولكنها شعرت بالموت الذي حل بالمشاعر فيها، تريثَتْ هنيهة ثم سحبَت ساقها في مزيج من اليأس والحرج. احتفظت برأسها فوق صدري ولكن يدي كانت قد كفت عن مداعبة شعرها وسرحت هي بعيدًا للحظات طالت كثيرًا، كثيرًا. حل جمود علينا وكانت الحركة المنطقية الباقية هي أن تسحب سلمى رأسها من فوق صدري وتبتعد قليلا ثم تنقلب على جانبها الآخر وتستسلم إلى نوم قلق. لكنها ظلت هناك، على صدري، وبعيدة، وأنا متحجر في انتظار أن تبتعد وهي لا تبتعد.

ـ هو في إيه يا احمد؟

ـ مافيش.

ـ من يوم ما رجعت من الجيش وانت بعيد كده ليه؟

ـ....

ـ هو حصل حاجة انت مخبيها عليه؟

ـ أبدا.

ـ انت خلاص مش عايزني؟

ـ....

ـ فيه إيه يا حبيبي؟

ـ......

ـ انت حتى مابتتكلمش معايا، ولا مع حد من أصحابك، ولا حتى مع أهلك، كل ده من ايه؟

ـ....

ـ انت زعلان مني في حاجة؟

ـ أبدا.

ـ انت حصللك حاجة في الحرب؟ انت قلتلي إنك كنت في مركز العمليات. الجرح بتاع ركبتك مضايقك؟

ـ لا مش مضايقني ولا حاجة.

ـ تحب تشوف دكتور؟

ـ الدكتور قال إني سليم.

ـ أمال مالك مش طايقني ليه؟ ده انت ما قربتليش من يوم ما رجعت؟

صمتُّ، وظلت سلمى ملقية برأسها على صدري وهي صامته وساهمة، تمسح بيدها على رأسي في رتابة:

ـ فاكر قبل الحرب؟ فاكر كلامك عن الأطفال وضحكك ومشروعات تغيير السكن ومامتك؟ ده حتى بعد المرحوم والدك ماكنتش كده.

ـ الله يرحمه.

ـ احكي لي يا احمد، أنا مراتك، فيه إيه مضايقك؟

ـ أنا راجع الجيش يوم السبت.

رفعت سلمى رأسها ونظرت إليَّ في لوم:

ـ بسرعة كده؟

ـ أنا حارجع الوحدة تاني.

ـ الوحدة؟

ـ أيوه.

ـ إنت مش كنت في مركز القيادة في مصر؟

لم أرد، أبعدت يدها عن رأسي وقمت من جانبها. ران صمت ثم انسحبت سلمي بجسمها وتقلبت على الجانب الآخر وسمعت صوتها المخنوق يتمنى لي نومًا هانئًا. أغلقت عيني وظللت جالسًا في الفراش يقظا أنظر داخل مقلتي في الظلام.

* * *

هذا الصداع اللعين! أحقا ما أرى؟ وميض من النور يلوح من بعيد، أو كأن الظلمة تخفت فأظنها نورًا. لا، بل نور يدخل، ليس فتحة من الضوء بل نور كأنه ينسكب بعيدا ويتسلل في بطء بين أشياء مصمتة فيقلل الظلمة ثم تبدأ الأشياء تتخذ شكلا. هل يزيحون الأنقاض من فوقى؟ لا بد وأنهم يزيحون الأنقاض. النور يزيد وتبدأ أذني في سماع أصوات آتية من بعيد، لا أستطيع تمييز أي منها لكنها همهمة مبهمة وبعيدة. أحاول أن أصرخ، لا فائدة، أحاول أن أحرك جسمي، لا شيء يتحرك سوى الألم في رأسي، أحاول مرة ثانية، وثالثة، وعاشرة، لا، لا أريد الموت هنا.

* * *

فتحت عيني وأنا انتفض من الفزع فوجدت وجه سارة لصق وجهي، مستسلمة لنوم عميق، وجمالها يملأ الغرفة. أحبها وهي نائمة، بعد أن تكون نوازع الشر فيها قد همدت. بريئة هي حين تنام، حين تتوقف المناقشات والمناورات وحين أستطيع أن أغفر لها علاقاتها المريبة وأنانيتها المفرطة وطموحها الذي لا يعرف الحدود، وحين أستطيع أن أغفر لنفسي حبي لها مع إدراكي لكل شرها. عندما أقول لها هذا تبتسم في مكر وتقول ببساطة: ما انت عارف من الأول إني شريرة! معها حقا، بل إن شرها هو سبب تعرفنا! فسارة خطأ آخر من أخطائي المهنية العديدة. فالمفروض أننا لا ندخل في علاقات حميمة مع الأفراد الذين نتابعهم، ولكن سارة كانت أقوى من ضميري الوظيفي، كما أني والحق يقال لم أبذل أي مقاومة إزاءها. كان ذلك في الصيف، حيث كنت قد تسلمت لتوي مهام نائب مدير الإدارة وحدد لي رئيسي مهمة محددة وهي متابعة النشاط الإسلامي الأصولي في الأوساط الثقافية. ومن ضمن الشخصيات التي بدأت أتابعها الصحفي المشهور أشرف فهمي. كان أشرف في نفس عمري تقريبا، وكانت مكانته كصحفي مناهض للجماعات الإسلامية قد توطدت، والبعض يرشحه لوزارة الإعلام والبعض الآخر لرئاسة تحرير الأهرام. وأعرف من موقعي

أن هذا مجرد كلام وأنه ليس مرشحًا لأي منصب. ولكن كان هناك كلام آخر عن صلات أشرف بالخارج، وهذا هو مبعث اهتمام الإدارة بنشاطه. دار الكلام عن علاقات بأجهزة حكومية أمريكية وفرنسية وإيرانية، بالإضافة لأحاديث عن تبادل معلومات مع جماعات للدفاع عن حقوق الإنسان تعمل في السودان وباكستان وتمده بمعلومات عن النشاط الإسلامي هناك وعن الجماعات الإسلامية في مصر. وكان التوجيه الذي تلقيته محددا: ١) التحقق من صحة وجود هذه الاتصالات. ٢) معرفة كيف تمت. ٣) التعرف على مضمون هذه الاتصالات والاتجاه الذي تسير فيه.

لم أشعر بأي مودة تجاه أشرف، ربما بسب نفوري من الصحفيين عامة، وربما حذري من الشخصيات المشهورة بنبلها، والتي يتضح عادة أنها تستغل شهرتها لتحقيق أهداف شخصية بعيدة كل البعد عن هذا النبل المصطنع. أشرف فهمي من عمري بالضبط. وقد بدأت المتابعة بتقصي ما كان يفعله هو في اللحظات الهامة من حياتي. عند وقوع النكسة كان أشرف طالبا في السنة الثانية بكلية الإعلام، وذلك حين كنت أنا في السنة الأولى بالفنية العسكرية. في فترة ما بين الحربين، حين كنت أنا أعرض حياتي للموت يوميا على خطوط التماس مع العدو، كان هو يتلكأ في الدراسة لكي يتفادى التخرج والتجنيد. وكان قد بدأ يكتب في إحدى المجلات الأسبوعية، وتقدم بسرعة واحتل مكانة مرموقة فيها وفي نفس الوقت كان يرسب مرة أو مرتين كل عام دراسي حتى يؤجل تخرجه لحين «إزالة آثار العدوان». في الوقت الذي كنت أقوم فيه أنا بدوريات استطلاع خلف خطوط العدو بشكل شبه يومي، وكنت أرى الموت فيه حتى اعتدت على وقوعه وأصبح جزءًا من حياتي، كان هو يتمشى مع حبيبته على الكورنيش ويكتب في المجلة الأسبوعية، ثم تخرج في مايو ١٩٧٢، ويبدو أنهم قرروا إنجاحه بالعافية وتم تجنيده في أكتوبر من نفس العام، في إدارة الشئون المعنوية، أي في القاهرة حيث استمر يواصل حياته العادية. في الوقت الذي كان قد تم نقلي ـ بعد إصابتي برصاصة في ركبتي ـ لهيئة العمليات للمشاركة في وضع الخطة التي طلبت من الهيئة آنذاك. وفي حين كنت ملازمًا صغيرًا عليه الالتزام بالأقدمية واحترام الرتب العالية مهما كان كلامها غريبًا، كان أشرف يفتح فاهُ على وسعه في المجلة. في الحرب كنا في مكان واحد: في القاهرة، أنا في مركز العمليات ١٠ وهو في إدارة الشئون المعنوية. الطريف أن دخوله القوات المسلحة، حتى وإن كان رغم إرادته، حتى وإن تم متأخرًا جدًا عن دفعته، حتى وإن كان في إدارة الشئون المعنوية، قد فتح له آفاقا جديدة، وصارت أيام الحرب وذكرياتها إحدى أحاديثه الأثيرة بعد ذلك.

ثم انطلق. كان صغيرًا في السن، ولكنه كان من المهارة بحيث انتزع منصب مدير التحرير في مجلته الأسبوعية. التقينا مرة عام ١٩٧٧، بعد نقلي للمخابرات العامة بعامين تقريبا. كنت أعمل بإدارة إسرائيل حين أعلن الرئيس السادات استعداده للذهاب للقدس. عندئذ أقيل أشرف فهمي من منصبه بالمجلة بعد نشره مقالًا يندد فيه بمبادرة السادات، أذكر ذلك جيدًا لأنني وقتها أعددت تقريرًا عن ردود الفعل الشعبية للمبادرة ـ كان الرئيس قد طلبه ـ ووضعت فيه هذه المقالة ولكن رئيسي حذفها على أساس أنه «ما شتمك إلا من بلغك». ولكن بعدها علم الرئيس بالمقال وغضب لنشرها وتمت إقالة أشرف فهمي، ولكن أشاع أشرف أنه استقال احتجاجًا على زيارة الرئيس للقدس. ثم عاد أشرف فهمي رئيسًا لتحرير نفس المجلة بعد خمسة أعوام قضى معظمها يعمل في صحيفة عربية في لندن. وحين نقلت أنا من إدارة إسرائيل لمتابعة النشاط الإسلامي، عدنا سويا أنا وهو لنعمل في نفس الموضوع: أنا أعمل في صمت وتحت القيود الإدارية والوظيفية والرئاسية، وهو يملأ الدنيا كلامًا ويفرق الابتسامات ويعلق الأوسمة على صدره. له علاقات بمعظم الصحف ووسائل الإعلام العالمية، يعتقد أنه قد بدأها أثناء عمله في لندن. ظل نفوذه يتسع بعد عودته، ومع نجاح المجلة المتزايد أصبح ينظر إليه على أنه من أهم الكتاب ورجال الإعلام في مصر، ورشحته الشائعات لكل المناصب المرموقة. كان على وشك ترشيح نفسه نقيبا للصحفيين ثم تراجع، لكنه صديق مقرب للنقيب الحالي، ويعتقد أن له نفوذًا واسعًا في مجلس النقابة.

كانت نتيجة المتابعة المبدئية سالبة، أي أنه لا توجد مؤشرات على صحة ما يشاع عن اتصالات مشبوهة بالخارج. ومن ثم كان أمامي اختيار: إما أن أنهي المتابعة باعتبار أن الأمر لا يستحق، وإما أن أكثفها بحثا وراء اتصالات ممعنة في السرية. وقد اخترت الحل الثاني، لا لشيء إلا لأني كنت أريد أن أتأكد من إحساسي تجاهه، أن أصنفه: إما أنه مدعي أو مخلص فعلًا. رفعت إذًا درجة المتابعة، وتم اختراق منزله ومكتبه وكل تليفوناته وبريده وفاكساته إلى آخره. وهنا دخلت سارة في الصورة، وكان ذلك حدثًا سارًا لي أنا. اختلجت عضلات وجهها برهة، فتحت عينيها ونظرت إليّ. ابتسمت وأغلقت عينيها مرة أخرى واستدارت فلم أعد أرى وجهها.

سارة في أول الأربعينيات وتعمل صحفية في المجلة، وكان السيد أشرف فهمي رئيس التحرير قد تولاها بالرعاية بعد أن تلقى توصية عليها من شخص مهم. ولم يقصر الأستاذ أشرف في حق الصحفية، بل ربما توصى بها زيادة. ظهرت سارة لأول مرة في الصورة على

التليفون في حديث خاص مع أشرف، ثم رصدها رجالي وأجهزة التصنت في شقته بالمنيل عدة مرات خلال شهر أكتوبر من العام الماضي. ومع دخول الشتاء صارت زياراتها له منتظمة. تحريت قليلا عن سارة وبدأت أتابعها بنفسي. لم تكن مجرد امرأة طموحة، وإنما كانت مجنونة، جنونًا فعليًا. فهي تبدو قادرة على فعل أي شيء في أي وقت وفي أي مكان، ولا تخلو من روح شريرة تكاد تدفعها دفعًا إلى إحراج الناس أو صدمهم. فهي قادرة على البذاءة لدرجة مخجلة، ولكنها لم تكن بذيئة، بل تلجأ إلى ذلك عندما تشعر بأن الذي يحدثها يبالغ في اصطناع الأدب فتعاقبه بإغراقه في أسفل الألفاظ. قادرة على حياكة أشر المؤامرات دون أن تكون بالضرورة شريرة، بل كرد فعل، أو لأن شخصًا لا يعجبها، أو لأنها ملت من الرتابة دون أن تجني فائدة محددة. أليس ذلك هو الشر بعينه؟ وكانت سارة تعيش مع أهلها في الكويت حيث استقروا هناك منذ زمن، وفي يوم من الأيام أخذت جواز سفرها وعادت إلى مصر، هكذا.

لفتت سارة نظري منذ ظهرت في تقارير المتابعة اليومية. كانت تجسد كل ما ليس فيّ، كل الممنوع والمستحيل والمجنون، وكانت لمعة عينيها ومشيتها يصيبانني بالتوتر. وبدأت أركز على متابعتها هي أكثر من تركيزي على أشرف. وبالرغم من إدراكي منذ البداية أني أتخطى حدود مهامي الوظيفية فإني لم أتوقف. لم يكن في نيتي أي شيء من قبيل الاتهامات الموجهة لصلاح نصر، فقد فقدت اهتمامي بالنساء منذ الحرب، ولا كانت طبيعة سلطاتي أو نظام العمل في الجهاز تسمح لي بذلك حتى إن أردت. كل ما كنت أفعله كان في إطار النظام والقانون والعرف، بل ويبدو منطقيا لأي شخص قد يخطر له مراجعة عملي. فقد اتخذت من متابعة سارة حجر الأساس في متابعة أشرف فهمي واتصالاته المزعومة بالخارج، لكن نيتي لم تكن متابعة هذه الاتصالات، بل متابعة سارة نفسها.

كانت سارة تقطن في شقة في الحي السابع بمدينة نصر. تأتي بسيارتها الـ١٢٨ البيضاء للمجلة كل صباح وتظل تعمل في المجلة وتجري بعض المكالمات التليفونية حتى الظهيرة ثم تبدأ في الحركة بعد ذلك. تخرج في مقابلات ومواعيد، أكثرها غامض، ولا تنتهي من ذلك قبل السادسة مساء. بعد ذلك إما تعود لمنزلها ـ وهذا نادر الحدوث ـ أو تذهب للنقابة أو لمنزل أشرف. لم يكن يبدو عليه أنه يحبها، هذا إذا اعتبرنا الإخلاص معيارًا للحب. الأستاذ أشرف كانت له علاقات نسائية أخرى عديدة. كانت هناك امرأتان على الأقل تظهران طوال الوقت: أستاذة بالجامعة الأمريكية وطبيبة أطفال ـ متزوجة. وكانت هناك

سيدات أخريات تظهرن من وقت لآخر. في نفس الوقت، كانت سارة صديقة مقربة لإحدى قيادات العمل الإسلامي، داليا الشناوي، وبدت لي هذه الصداقة غريبة جدًا، فلا شيء يجمع هاتين المرأتين اللتين تجسدان نقيضين كاملين، ولا مصلحة مشتركة بينهما أو فائدة ترجوها أي منهما من وراء هذه الصداقة. ولكني لم أتمكن من وضع يدي على أي بعد سياسي لها، فتركت الأمور عند هذا الحد.

لم تكن كتابات سارة ذات اتجاه سياسي محدد، ولم تكن تتعرض لموضوع الجماعات الأصولية أو ما شابه ذلك. بل تكتب في موضوعات اجتماعية عامة: قضايا الفساد، التقصير الإداري من جانب أجهزة الدولة، المشاكل القانونية الخاصة بالمرأة والزواج والطلاق...إلخ. ولكن الذي يميزها عن بقية الصحفيات هو شخصيتها: ذلك المزيج من الثورة والشر، من الإخلاص الطيب التلقائي والانتهازية المطلقة. كانت سارة تثير المتاعب في النقابة وفي المجلة وفي الأماكن التي ترتادها، بما فيها الأماكن العامة والفنادق. وكانت شبكة علاقاتها تتسع، ويومًا بعد يوم وجدت أن تقارير المتابعة تضم أسماء جديدة وكبيرة: كانت تلتقي مع رجال أعمال وأساتذة جامعة كبار ورؤساء مجالس إدارات وقضاة ومسئولين بالأمن ومحافظين ووزراء وسفراء أجانب... إلخ. ومع هذا الاتساع بدأت سارة تدخل في دائرة لا أستطيع متابعتها فيها دون تصريح رسمي مباشر من قبل رؤسائي، ولم يكن ذلك مبررًا، فالمتابعة تخص أشرف بالأساس ومتابعة سارة لا تشكل سوى أحد جوانبها. وكنت أعلم ذلك جيدًا فلم أحاول طلب مثل هذا التصريح. وهكذا، في صباح يوم من الأيام قررت أن أشرف فهمي بريء من التهم المنسوبة إليه وأنه لا علاقة له لا بالسودان ولا بباكستان، وأن اتصالاته مع بعض مواطني ومنظمات البلدان الأجنبية هي اتصالات عادية لصحفي كبير، ومن ثم أنهيت المتابعة وأغلقت الموضوع على ذلك.

بعد أسبوع من وقف المتابعة جاءت سارة. كنت جالسًا أتناول طعام الغذاء في فندق شبرد حين انفتح الباب ودخلت منه سارة. جالت بعينيها في المطعم حتى التقت بعيني ثم توجهت ناحيتي وهي تنظر إليّ، سحبت مقعدًا وجلست دون كلمة واحدة. نظرت إليها واستمررت في تناول طعامي دون أن أتكلم أنا أيضا. قالت في هدوء:

ـ وبعدين؟

نظرت إليها في استفهام ولم أرد، واصلت تناول طعامي.

ـ بقالك أسبوع مختفي يعني؟

ـ أفندم؟

نظرت إليّ طويلا ثم ابتسمت. أشارت للجرسون فجاء. قالت ببساطة:

ـ هات الغدا بتاعي هنا.

وكان هذا أول لقاء بيننا.

خرجت من الفندق ورأسي تغلي. لم يكن «الأخ الأمريكي» قد ترك لي أي خيط مفيد للعثور على المجموعة التي تخطط للتفجير أو التفجيرات، ولم أكن أعلم كم من الوقت سيمر قبل أن يقع مثل هذا التفجير. وهل سيقع في الخرطوم أم في مكان آخر؟ وما هي نوعية هذه المتفجرات؟ وكيف ستستخدم: في عبوة، سيارة، أم ماذا؟ ذهبت إلى ما أسماه «المصدر» الجامع الكبير فى أم درمان، فوجدت أن هناك مسجدين بهذا الاسم، وليس هناك شيخ واحد لأي من المسجدين بل يتناوب عليه مجموعة من المشايخ. وحاولت من خلال الاتصال ببعض «المصادر» أن أتقصى ما إذا كان هناك نشاط غير عادي فى أي من جوامع أم درمان فلم أصل إلى شيء. في الأفلام الأمريكية، تحدث صدفة ما وتعطي البطل مفتاحًا للعثور على المتفجرات في الوقت المناسب: رقم تليفون في ورقة مكرمشة، رقم سيارة مدون على كارت يعثر عليه في جيب القتيل، أي شيء. لكنني لست في فيلم أمريكي، ولا أتوقع أن يحدث أي شيء من هذا القبيل لي. عدت إلى القنصلية وأغلقت على نفسي باب المكتب وجلست أفكر في خطة للعمل. أرسلت برقية عاجلة للقاهرة أطلب معلومات وتعليمات، ولكني لم أتلق ردًا في هذا اليوم، وفي اليوم التالي تلقيت ردًا بأنهم يتحرون دقة هذه المعلومة. أين يتحرون بالضبط؟

بدأت في تنشيط شبكة مصادري وأعلنت حالة الطوارئ. ينبغي العثور على هذه المتفجرات. لم أخطر جهات الأمن السودانية المختصة لأني لا أثق في ولائها، هل أنقل المعلومة إذًا لضابط المخابرات بالسفارة الأمريكية لينقلها لواشنطن ويتحرى الأمر؟ ولكني أعلم علم اليقين أنه لن يعير كلامي اهتمامًا وإذا فعل فإن واشنطن لن تفعل. لو جاءتهم المعلومة من المسئول عن المخابرات الإسرائيلية لتحركوا على الفور. كنت أعرف أن هناك مندوبًا للجهاز الإسرائيلي بالخرطوم يعمل من خلال قنصلية أوروبية، وقد حاول التعرف إلي من قبل ولم أعره اهتمامًا. هل أنقل له المعلومة لينقلها بدوره للأمريكان؟ صدمت عندما مر ذلك الخاطر برأسي. هل جننت يا أحمد يا كمال؟ هل ينتهي بي الأمر إلى التعاون مع المخابرات الإسرائيلية؟ أنا؟ الذي ما زلت أحمل

رصاصة إسرائيلية داخل ركبتي؟ هل تغيرت الأمور للدرجة التي تجعل مصالحنا تلتقي لهذا الحد؟ تذكرت الأخ الذي قابلته هذا الصباح والذي كان حزينًا لتعامله مع جهاز أمني بعد هذه السنوات من معاداة أجهزة الأمن. زمن غريب ولا ريب. لكنني لن أتعاون مع المخابرات الإسرائيلية حتى لو انفجرت الخرطوم بأسرها.

السباق مع الزمن، مع المجهول برمته، والخطر غير محدد ومن ثم أكبر. ولكن ماذا لو كان هذا الرجل كاذبًا أو مجنونًا؟ اتصلت بالدكتور نشأت فأكد لي أنه شخص مخلص وعاقل ويعتمد عليه ـ وأنه غادر الخرطوم. اتصلت بعدد من الشخصيات المصرية المشاركة في مؤتمر حقوق الإنسان والمعروفين بصلاتهم بأوساط الإسلاميين وذكرت لهم أن هناك معلومات تفيد احتمال وقوع «شيء ما» في الأيام القليلة القادمة وأن ذلك سيضر بمكانة مصر وبسمعتها...إلخ، ولكنهم كانوا واسعي الابتسامات طويلي اللحى ولا شيء أكثر من ذلك.

ولا كلمة واحدة.

أخطرت السفير، وقام هو من جانبه برفع حالة الطوارئ في مباني السفارة كلها، ولكني كنت أعلم أكثر من أي شخص عدم جدوى ذلك. كانت مباني السفارة ـ بما فيها القنصلية ـ واقعة في أكبر شوارع الخرطوم، وبرغم حواجز الأمن السودانية فإنها كانت معرضة من كل جانب، ولو شاءت قطة أن تفجرها لفعلت دون عناء يذكر. ولكن ليس هناك دليل على أن المتفجرات موجهة لنا بالتحديد: قد يكون الهدف هو السفارة الأمريكية، أو مبنى للحكومة السودانية، أو تهريبها عبر الحدود. أبلغت السلطات السودانية بشكل عام أن لدينا ما يشير لقيام مجموعة مجهولة بتهريب متفجرات إلى داخل الخرطوم، وطلبت تشديد الحراسة على مباني السفارة وعلى الحدود مع مصر، وقد ابتسم ضابط الاتصال بالمخابرات السودانية وأنا أتحدث معه، وقال ساخرًا: الحدود؟ كلها؟

طوال المساء، والليل، واليوم التالي، لم تجئ أي معلومة أو إشارة ذات قيمة، ولم تجئ أي معلومة من أي من مصادري المزعومة. وفي اليوم الثالث كنت جالسا في مكتبي منذ الصباح الباكر في انتظار ورود أي معلومة من القاهرة عندما سمعت ضجة غير عادية في الخارج، فتحت الباب فانفجرت الأشياء في وجهي.

وجهي ينشطر ببطء. يغرق أحدهما في الألم كأن مطارق تدق في كل خلية منه. لا أعرف بالتحديد أن كان رأسي ما زال هناك أم أنه ذهب

وترك هذا الألم الفادح مكانه. أين أقراص الأميجران؟ وأين النوم ينقذني من هذا الصداع اللعين!

وميض من النور يلوح من بعيد، أو كأن الظلمة تخفت فأظنها نورًا. لا، بل نور يدخل، ليس فتحة من الضوء بل نور كأنه ينسكب بعيدا ويتسلل في بطء بين أشياء مصمتة فيقلل الظلمة ثم تبدأ الأشياء تتخذ شكلا. هل يزيحون الأنقاض من فوقى؟ لا بد وأنهم يزيحون الأنقاض. النور يزيد وتبدأ أذني في سماع أصوات آتية من بعيد، لا أستطيع تمييز أي منها لكنها همهمة مبهمة وبعيدة. أحاول أن أصرخ، لا فائدة، أحاول أن أحرك جسمي، لا شيء يتحرك سوى الألم في رأسي، أحاول مرة ثانية، وثالثة، وعاشرة، لا، لا أريد الموت هنا.

* * *

منذ حادثت صديقي المقدم في شرطة المسطحات المائية وأنا متوقف عن العمل. أتوجه لمكتبي كل صباح، أخرج للشرفة لتناول إفطاري والقهوة ثم أبدأ في قراءة الصحف. أدخل أحيانا لغرفة المكتب لكني لا أعمل. أواصل قراءة الصحف والمجلات ثم أتحدث في التليفون، ثم أنام، ثم أصحو، ثم أعود للمنزل وأنتظر سارة. أنظف الشقة، أعد الطعام، وأحيانا أنزل لشراء بعض مستلزمات المنزل. أتفرج على التليفزيون أو أقرأ في الروايات التي كدست سارة مكتبتي بها، وأنتظر عودتها، وهي دائما تعود. مبكرًا أو متأخرا لا يهم، كانت دائما تعود. أحيانا تجدني نائما وتوقظني وأحيانا تنام هي الأخرى. كانت تقول إنها تحبني لأني أذكرها بنبيل الحلفاوي في مسلسل رأفت الهجان، بسمرتي ونظرة عيني وحدّة صوتى، وكنت أبتسم ولا أعلم أن كان ذلك مديحًا أم ذمًا. «ولم لا تذهبين لرؤية الأصل؟»، أسأل متهكمًا، «ومين قال لك إني ماعملتش كده؟»، ترد في شر. لم تكن علاقتنا جنسية: تبادلنا بعض القبل، وغالبا ما نحتضن بعضنا بعضًا حتى نغفو، ولا شيء أكثر من ذلك. أحيانا كنا نتكلم وأحيانا لا نتكلم. لم يكن ذلك مهما. لم أكن أسألها من أين تأتي ولا متى تأتي ولا متى أو أين تذهب، ولم تكن تسألني عن أي شيء. لا أدري كيف تطورت علاقتنا بهذا الشكل، ولكن هذا ما حدث. كل شيء حدث بيننا من تلقاء نفسه، دون اتفاق. كان ما يحدث يحدث وهذا كل ما في الأمر. علاقتي بسارة هي الشيء الوحيد الذي لا يسبب لي إزعاجا، لا يتطلب مني التظاهر، كنت نفسي، دون إضافات، ولم تكن تطلب مني شيئًا. من وقت لآخر كانت تجتاحني نوبات غيرة، نوبات امتلاك، ونوبات حب. كنت أحيانا أفكر في الزواج منها وفي الاستقرار، ولكن تلك النوبات كانت تمر بسلام، وكانت

هي تساعدني على تمريرها.

امتد توقفي عن العمل ليشمل الأمور الشكلية من قبيل الرد على البريد والمذكرات وإرسال التقارير الدورية وخلافه، ومن ثم صار الأمر حديثا عاما في الجهاز. وبعد مرور شهر على هذا الوضع استدعاني أحد رؤساء رؤسائي وكان موضوع المقابلة هو توقفي عن العمل. أعطاني جزءًا من تقرير كتبه أحد رؤسائي عن أدائي في العمل، ورد فيه أني غير منضبط، لا أؤدي المهام الموكلة إليَّ، وليس لدي حافز للعمل، وسلوكي الاجتماعي معيب، ويوصي بإنهاء خدمتي بالجهاز. قرأته وأعدته لمحدثي ولم أعلق. سألني عن سبب توقفي عن العمل فكانت ردودي غامضة ومقتضبة. لم أقل له ـ وكم كنت أتوق لذلك ـ إن عملي لا فائدة منه، وإني مثل عمال المسطحات المائية الذين يتظاهرون بجمع ورد النيل، وإني مللت من التظاهر بالعمل ولا أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك. لم أقل شيئا من ذلك كله لأني تربيت على روح الانضباط واحترام الرتب الأقدم، أو على الأقل التظاهر بذلك. ومن ثم لم أقل شيئا مما كان يدور برأسي ـ ويعلم الله ماذا كانت النتيجة لو كنت قد قلته ـ وبدلا من ذلك كنت صموتًا ومقتضبًا. وفي نهاية اللقاء ربت السيد رئيس رئيسي على كتفي وقال إنه يعرف تاريخي جيدًا ويقدره، وأني تعبت وبحاجة لتغيير جو كامل ليخرجني من الحالة التي وصلت إليها. انصرفت، وبعدها بعشرة أيام صدر قرار بنقلي للعمل في الخرطوم.

ـ يا عيني على الأجازات مدفوعة الأجر!

كان هذا هو تعليقها الوحيد على خبر نقلي عندما قلته لها في التليفون، لكنها في ذات المساء عادت مبكرة للبيت وكانت حنونة أكثر من أي مرة رأيتها فيها، احتضنتني ووضعت رأسي في حجرها وظلت تربت على شعري. كنت أبكي في داخلي، كانت الدموع تنهمر داخلي لكن وجهي كان جافا إلا من دموع تسربت من عيني سارة ووجهها ملتصق بوجهي. قضيت الليلة كلها ورأسي في حضنها، وعندما فتحت عيني في الصباح كان وجهها لصق وجهي وكانت نائمة ومغمضة العينين في هدوء يقيني. كانت نائمة وقد غابت نوازع الشر منها منذ الأمس. نظرت إليها ولأول مرة اشتهيتها، لأول مرة منذ اثنين وعشرين عاما أشتهي امرأة. لحظة واحدة من الشهوة، ثم خمدت.

نظرت في وجهها الصافي وتساءلت عما إذا كانت تريد أن تأتي معي، وكنت أعرف الإجابة مقدمًا، وكنت أعرف أنها تسأل نفسها خلسة، وأنها تعرف الإجابة هي أيضا، وأننا كلينا نعرف أننا نعرف. عندما أغمضت

عيني مرة أخرى كانت ملامح سارة لاتزال عالقة في أعلى جفني وعرفت أن ملامحها باقية معي.

عندما فتحت عيني كان الظلام قد عاد مرة أخرى واحتل كل شيء. هل كنت نائمًا أم إني أنام الآن؟ وأين ذهب عمال الإنقاذ؟ هل من المعقول أن يمر كل هذا الوقت دون أن يرفعوا ركام هذه القنصلية اللعينة ويجدونني؟ هل يحتاج الأمر كل هذا الوقت؟ أم إن السلطات السودانية ما زالت غير واثقة من انفجارنا؟ ولماذا لا أسمع أي صوت، ولا حتى صوت سيارات الشرطة والإسعاف؟ أين ذهب الجميع؟ أو أين ذهبت أنا؟ أحاول تحريك أطرافي مرة أخرى ولكن لا فائدة. كأن جسمي غير موجود، كأني روح بلا بدن. لا شيء غير الظلام وهذا الصداع القاتل.

* * *

اتصل بي صديقي عمر فارس هذا الصباح لتأكيد موعدنا الأسبوعي لتناول العشاء. مررت عليه في مكتبه في الثامنة مساء للذهاب إلى كبابجي أبو رامي بالمدبح. لكنه لم يكن موجودًا. قالوا لي إنه ذهب لمقابلة النائب العام في اجتماع مهم. غريبة، لم يذكر لي عمر شيئا عن ذلك هذا الصباح وليس من عادته التخلف عن المواعيد دون سابق إنذار. ثم أي اجتماع ذلك الذي يعقده النائب العام معه في المساء وهو يعمل في مكتبه طول اليوم؟ انتظرت حوالي نصف ساعة ثم ذهبت وحدي لأبي رامي. لم يحضر عمر ذلك المساء، ولم يظهر طيلة الأيام الثلاثة التالية، وقالوا لي إنه ذهب في مهمة خارج القاهرة، وانشغلت في بعض المسائل الروتينية بالمكتب فلم أبحث عنه في انتظار موعدنا الأسبوعي التالي. لكنه لم يأت في الأسبوع الذي تلاه، اتصلت به في المنزل فلم يرد، وفي المكتب قالوا لي إنه في مهمة. أين ذهب عمر فارس هكذا دون سابق إنذار؟

* * *

الصداع يكاد يفتك بي، أشعر أن رأسي تغلي وأن نصفها الأيمن سينشطر. الجو في مركز القيادة مشحون. الخرائط معلقة على جدران متحركة، وأجهزة التليفون لا ينقطع رنينها. كبار الضباط وقادة الأسلحة خلعوا طواقيهم وحلوا الأزرار العليا من السترات الميري، وبقينا نحن الضباط الصغار نحمل عبء النظام والالتزام والطواقي. لا أحد منا يعلم بالضبط ما الذي يحدث، لا على الجبهة ولا في مركز القيادة بالقاهرة، لكننا موقنون من أن هناك خطأ ما. خطأ ما في مكان ما يحدث ويكاد أن

يودي بالحرب وبمصر كلها من خلفنا. أين ذلك الخطأ بالضبط؟ هنا في الغرفة أم هناك على الجبهة أم في مكان آخر؟ أم في كل هذه الأماكن معا؟

أنظر لوجوه القادة المجتمعين حول الخرائط وإلى إشاراتهم العصبية واحتداد ملامح وجوههم. أحد القادة ينقر بأصابعه على المنضدة، قام وأشاح بيده وصاح وجمع أوراقه ومضى غاضبًا إلى مكتبه مغادرًا الاجتماع. ظل مساعده ـ النقيب رأفت ـ جالسًا لا يعرف ماذا يفعل: هل يمضي خلف قائده أم يواصل الاجتماع. لحظات ثم جاءه نداء القائد يستدعيه فجمع أوراقه ومضى وهو ينظر إليّ فيما يشبه الاعتذار. توتر الجو أكثر برحيل النقيب رأفت واشتدت حدة المناقشات بين القادة. بعد نصف ساعة كان اثنان آخران قد غادرا الاجتماع يلحقهما مساعدوهما من صغار الضباط، وبعد ساعة أخرى كنت أجمع أوراقي أنا أيضا وأمضي خلف قائدي إلى مكتبنا. الصداع النصفي يهاجمني يوميًا منذ بدأ القتال. خمسة أيام متتالية من الصداع النصفي، ولا الميجرانيل ولا الأميجران ولا أكوام الأسبرين أفلحت في إزالته. ويعلم الله أن هذا الصداع يقعدني عن العمل في الأيام العادية، لكن لم تكن تلك أيامًا عادية، وكنت أعمل طوال اليوم وطوال الليل. في أول يومين كان كل شيء يسير على ما يرام، وكان تنفيذ العمليات يفوق المعدلات الموضوعة في الخطة، ولكن التوتر بين القادة بدأ في اليوم الثالث، وبلغ أشده بالأمس، ثم توقف القادة اليوم عن تبادل السلام وبدا وكأن كلا منهم يقود الحرب بمفرده. كان ما يحدث كارثة بكل المقاييس، وكان لي كل الحق في أن أصاب بصداع نصفي، بل بشلل نصفي.

كنا نحن ـ صغار الضباط ـ ما زلنا نتبادل الكلام، وأحيانا كان القادة يطلبون منا تبادل المعلومات بيننا ليتفادوا الحديث المباشر، وكنا مستعدين لذلك، كنا مستعدين لأي شيء. فليس الأمر مجرد خطة عمليات أنفقنا في وضعها كل جهدنا ودمنا وحياة البعض منا طوال سنوات الاستنزاف، وليس الأمر مجرد الانتقام لكرامة ضربت في حرب ١٩٦٧ ونحن ما زلنا طلبة بالفنية العسكرية، وليس الأمر مجرد استعادة لأرضنا وشرفنا ومكانتنا، ليس الأمر مجرد حرب تتعرض فيها أرواحنا وأرواح زملائنا وأهلنا للهلاك، ليس الأمر ذلك كله ـ وذلك كثيرـ بل إن الحرب، هذه الحرب، هي تحدي لوجودنا كأمة، لقدرتنا أن نفعل شيئا. هذه الحرب هي الاختبار الأخير لقدرتنا على أن نحلم بغد أفضل وأن نأمل وأن نواصل الحياة ونحن مقتنعون بقدرتنا على تحويل الحلم إلى حقيقة. الحرب ـ هذه الحرب، هذه الأيام، هذه الساعات، هذه الدقائق ـ ستحدد ما إذا كنا نستطيع أن نفعل شيئًا ذا قيمة، ما إذا كنا نستطيع

أن نبني لنفسنا عالمًا أفضل، ووطنًا يكون لنا وليس علينا. إن كسبنا الحرب كسبنا حياتنا معها وعرفنا أن كل شيء ممكن مع العمل والتنظيم والأمل والصبر، وإن خسرناها علمنا ألا فائدة: أن هذا الوطن ليس وطننا، ليس وطنًا. لم يكن ذلك كلاما نقوله، فهو كلام أكبر من أن يقال، بل كان يعتمل في نفوسنا في صمت ونحن واقفون نرقب قادتنا يتشاجرون على خطوات تنفيذ الخطة التي وضعناها بدمنا. ولم نكن قادرين على الكلام، لم نكن قادرين على أن نفعل شيئا ولا أن نغير شيئا. كنا ضباطا ملتزمين ومنضبطين ولدينا روح النظام واحترام الرؤساء. ومع ذلك فقد كانت تلك الحرب حربنا، حرب مستقبلنا نحن، وليست حرب الماضي.

اليوم ١٠ أكتوبر، والأمور على الجبهة بدأت في التعقد نتيجة الإشارات المتضاربة من القيادة. لم يكن هناك وقت نضيعه: كل دقيقة تمر تعرض المعركة كلها للخطر وهذه حرب حقيقية يموت فيها ناس وتطلق فيها المدافع وتداس فيها أجساد بالمدرعات وتنسف المواقع كل ثانية. كان يجب أن نفعل شيئا أكثر من احتمال الصداع النصفي، فمصير البلد في أيدينا. ١٠ أكتوبر وقواتنا على الجبهة جاهزة وتحتل مواقعها طبقا للخطة، ومعدلات تدمير قوات العدو تفوق أهداف الخطة بمراحل، والطريق مفتوح إلى قلب سيناء، وقواتنا تنتظر، ولا شيء يحدث. لا أوامر تخرج من مركز العمليات رقم ١٠، وأنا لا أفهم، والصداع يمزقني، والقوات الواقفة على الجبهة وحدها بلا عدو لا تفهم لماذا لا تصدر لها أوامر بالتحرك، وقائدي أنا لا يفهم. قيل لنا قرار سياسي، ثم قيل لنا قرار عسكري، ثم قيل لنا ما ينفعش، ثم قيل لنا مخاطرة. وكنا نحن الصغار الذين قضينا زهرة عمرنا نتمرمغ في رمال الصحراء خلف خطوط العدو وتحت النار ومع الموت، نحن الذين حملنا روحنا فوق أيدينا، كنا نرى الخطأ بأعيننا. الخطأ ليس في القرار بأن نحرك القوات أو أن نبقيها، فقد كانت هناك اعتبارات لا بد من أخذها في الحسبان في الحالتين. لكن الخطأ الحقيقي يكمن في التضارب والعشوائية وعدم وجود طريقة عقلانية ومنظمة نقرر وفقًا لها. هناك شخص ما يقرر، ونحن لا نعرف بالتحديد كيف يتخذ قراره ولا بناء على أية معلومات ولا وفقًا لأي هدف. تحولت حياتنا فجأة إلى أداة تستخدم لغير ما أخبرونا أنها تستخدم له. وكنا حانقين وخائفين وثائرين، لكننا لم نفعل شيئًا. كان الصداع يفتت رأسي وخطأ ما يحوم من حولي ويهدد حياتي كلها لكنني لم أفعل شيئا لأنني كنت منضبطا ولدي روح النظام.

* * *

مالت عليَّ سارة وهمست:

ـ مسافر بكرة؟

نظرت إليها ولم أرد. هذه هي المرة الأولى التي نتحدث فيها عن رحيلي منذ أخبرتها بقرار نقلي. نظرت إليها واجتاحتني رغبة عارمة في البكاء. لكنني أعلم أني لن أبكي، لأني لا أبكي، لأن قنوات الدمع في عيني ضمرت منذ أيام القناة والرمل اليومي، هذا ما قاله الطبيب على أية حال. شعرت بنفسي تختنق داخلي ولم أنبس. أمسكت بوجهها وضممتها إليّ وقبلتها. ظللنا متعانقين لفترة. انسحبت من بين ذراعي وبقيت أنا واقفًا أنظر إلى باب الشرفة الزجاجي والستارة المسدلة عليه ولا أفكر في أي شيء. ذهبت للمطبخ وبدأت تعد الشاي. صوت الماء المنساب من الصنبور يأتي إلي، البراد يوضع على النار، وقرقعة الأكواب الزجاجية وهي ترتطم بالأطباق وسارة تأخذها لتعد صينية الشاي. أستمع لهذه الأصوات وعيناي مثبتتان على نقوش الستارة التي تغطي باب الشرفة: الضوء يأتي خافتا من خلفها وأنا لا أفكر في شيء.

غدا سأرحل، سأذهب إلى الخرطوم وأغادر هذه البلاد التي عشت فيها وبها. غدًا سأرحل إلى هذه البلاد الغريبة متظاهرًا بالعمل من أجل الوطن. سأكتب تقارير وأرسلها، سأقابل أناسًا وأتابع مصادر وأبحث عن مصادر جديدة، سأجمع معلومات وأعد تقديرات للمواقف وأرسلها، وفي كل هذا لن أعبأ بالمعلومات ولا بالمصادر ولا بتقدير الموقف، كل ما سيعنيني هو استكمال الإجراءات، تسديد الخانات، تمامًا مثل عمال المسطحات المائية: سألقي بالبراميل وأتظاهر بجمع ورد النيل، ولينمو الورد مثلما شاءت له جذوره، وليتكاثر مثلما شاء له سرطانه، سأذهب غدا إلى السودان.

أتت سارة بالشاي وجلست أمامي، صامتة. لم أتخيل وداعا في مثل هذا الصمت. لم يكن لدينا شيء نقوله. ماذا نقول: أنقول لماذا الرحيل، لماذا أرحل أنا ولماذا ترحل هي ولماذا العالم بهذه القسوة ولماذا الأشياء بهذا السوء؟ لا، لا داعي لأسئلة نعرف إجاباتها، ونعرف ألا فائدة منها، وألا فائدة من المحاولة مرة أخرى، وألا فائدة من نوبات العاطفة والإخلاص والأمل.

ـ آدي حال الدنيا يا سارة.

ألم أجد شيئًا أفضل من ذلك لأقوله؟ قلتها وصمتُّ. رفعت رأسها إليَّ

مستفسرة ثم صمتت وهبطت عيناها إلى صينية الشاي. ليتني أستطيع أن أبكي. ليتني أستطيع أن أشهق بالبكاء كطفل: أخرج ما في قلبي من حزن ومن حنق، ولكني لا أبكي. الضوء يخفت أكثر في الحجرة والصمت يثقل أكثر ويكاد يخنقنا. قامت، وسحبت حقيبة يدها الصغيرة التي تحوي بقية متعلقاتها. قبلتني على خدي وربتٌّ على كتفها ويدها. سحبت نفسها مسرعة من الشقة. خرجت وهي تبكي في صمت.

***

كنت جالسًا على مكتبي أنظر للصحيفة عندما جاءني تقرير متابعة نشاط الدكتورة داليا الشناوي عضو مجلس نقابة المحامين. وداليا الشناوي هذه من أنشط أقطاب الجماعات الأصولية في الأوساط القضائية، وقضايا الاحتساب التي ترفعها يوميًا على خلق الله هي حديث الصحافة ومثار حنق المناوئين لهذه الجماعات. آخر هذه القضايا تلك التي رفعتها على أشرف فهمي بعد أن كتب مقالا يقول فيه إن الإسلام دين وليس دولة. وداليا الشناوي في أول الخمسينيات، جذابة، قصيرة، ليست ممتلئة ولكنها ليست نحيفة، سوداء الشعر، محجبة ـ طبعا ـ وقوية الصوت والشخصية. من أصول اجتماعية عريقة، والدها طبيب شهير متوفى، ووالدتها تعيش وحدها في منزلها بجوار حديقة الأسماك بالزمالك. داليا متزوجة من جراح شهير، هادئ الطباع، من أصول ريفية ميسورة الحال، ليس له نشاط سياسي أو اجتماعي ملحوظ لكن عائلته كانت لها علاقات بالإخوان وغادرت مصر إلى السعودية في الستينيات، ليس له أصدقاء غير بعض الزملاء من الجراحين، حسن السلوك ودمث الأخلاق لكنه منطوٍ، يقضي معظم وقته في عيادته أو متنقلًا بين غرف العمليات في المستشفيات الكبرى، لديهما ولد وبنت ويعيشان في شقة كبيرة على النيل في العجوزة.

تقارير المتابعة الدورية توضح أنها تعيش في نظام صارم: تتوجه إلى مكتبها في تمام التاسعة صباحًا بعد أن تكون قد أوصلت الطفلين إلى المدرسة بنفسها، تظل تعمل في المكتب حتى الرابعة بعد الظهر بما قد يتخلله ذلك من ذهاب للمحكمة، تغادر المكتب في تمام الرابعة إلى المدرسة حيث تأخذ الطفلين إلى البيت وتظل هناك حتى السادسة. تترك الطفلين مع المربية وتتوجه لنقابة المحامين ـ حيث تشغل منصبًا هامًا في مجلس النقابة ـ وتظل هناك حتى الثامنة والنصف ثم تعود للمنزل في التاسعة ولا تبرحه بعد ذلك أبدًا. هذا النظام يتكرر يوميًا

فيما عدا الجمع والإجازات الرسمية حيث تذهب مع زوجها والطفلين لزيارة أمها ثم يذهبون لنادي الجزيرة. أتعجب من هذه الدقة وأتذكر أيام الجيش. حتى في الجيش كنا نأخذ إجازات نكسر فيها الروتين: كنا نذهب للسينما أحيانًا، كنا نبرطع مع أصدقائنا أحيانًا، كنا نخرج مع عائلاتنا في نزه غير محددة المواعيد أحيانًا، نجلس على المقاهي أو نذهب للنوادي بلا هدف، حياة يعني، لكن داليا الشناوي كانت كالساعة السويسرية، لا تحيد قيد أنملة عن مسارها.

وأهمية داليا الشناوي تكمن في نشاطها القضائي المكثف والمنظم. هذا الدور لا يقتصر على قضايا الاحتساب التي قلبت بها الدنيا، وإنما يمتد ليشمل شبكة واسعة من الحماية القانونية والإعلامية توفرها داليا لكوادر الجماعات الأصولية. كانت تنسق مع مجموعة مترابطة من المحامين الشباب في القاهرة والأقاليم لتقديم المساندة القانونية للمقبوض عليهم من الجماعات منذ لحظة القبض وحتى نهاية المحاكمة. كما كانت تشرف على متابعة الإجراءات القانونية للقبض والتحقيق للتأكد من التزام الشرطة بالقواعد الخاصة بمدة الحبس الاحتياطي والتقديم للمحاكمة والتحقيق والمعاملة إلى آخره. من ناحية أخرى أنشأت شبكة ثانية من المحامين ترفع تقاريرها حول المخالفات التي ترصدها مجموعات المساندة القانونية إلى السلطات الحكومية وجمعيات الدفاع عن حقوق الإنسان المصرية والأجنبية.

وداليا الشناوي تتقن بحكم تعليمها ليس فقط اللغتين الفرنسية والإنجليزية وإنما لغة الحديث مع الغرب ومؤسساته الإعلامية، وقد كونت لنفسها شبكة قوية من العلاقات بمراسلي الصحف ووكالات الأنباء وشبكات التليفزيون الأجنبية بما شكل حماية شخصية لها من أي أذى. ومن أين يأتي المال اللازم لكل ذلك؟ من «أهل الخير». في الحالات الأخرى كان «أهل الخير» هؤلاء أغنياء من دول الخليج ومن مصادر أخرى مريبة. ولكن داليا الشناوي كانت أذكى من أن توقع نفسها في هذه الشراك، فلم تكن تقبل مليمًا إلا من «أهل الخير» المصريين من المشايخ ورجال الأعمال وخلافه ممن يقدمون تبرعات رسمية وموثقة للمساعدة القانونية للفقراء، وبالطبع يقوم مكتبها بإعداد ميزانية دقيقة بأوجه صرف هذه الأموال. لقد وجدت نفسي في مواجهة مؤسسة وليست امرأة.

كانت مهمتي أن أضعها تحت السيطرة، لا أن أقضي عليها. وهناك فارق رئيسي بين الأمرين. السيطرة تعني القدرة على ضبط نشاطها ووضع حدود له، ومن ثم يمكن كبحه عند اللزوم والاستفادة منه عند

اللزوم. إيقاف نشاطها تمامًا لا يفيد، لأنه لا بد من وجود حلقة وصل نستطيع من خلالها التعامل مع عناصر الجماعات المتطرفة، ووجود أناس مثل داليا الشناوي يمكننا من ذلك بدلًا من أن ينفرط عقدهم تمامًا ونجد أنفسنا في مواجهة عنف طائش وعشوائي ومبعثر لا نعلم من أين يأتي ولا متى ولا الحدود التي يمكن الوقوف عندها. وجود أشخاص مثل الدكتورة يجعل لهذه الجماعات «أصحاب» يمكننا التفاهم معهم أو حتى ضربهم إذا تجاوزوا الحدود. أخطر شيء أن نجد أنفسنا في مواجهة ناس ليس لهم أصحاب. من مصلحتنا إذا أن نترك مثل هذه الشخصيات تعمل وتنمو وتتوسع وتسيطر على العناصر التي نرصدها. ولكن في نفس الوقت يجب وضعهم تحت السيطرة وإلا أفلتت الأمور. وهذا هو معنى التعليمات الواردة لي: وضع داليا الشناوي تحت السيطرة. كيف أفعل ذلك؟

يجب العثور لها على ضعف ما، خطأ، شيء تخفيه ولا تستطيع مواجهة الناس به، فضيحة شخصية في الماضي أو الحاضر، شيء تريده ولا تستطيع تحقيقه دون معونة، إجراء أو معاملة خارج إطار القانون أساومها بها، أي شيء يوقعها تحت التهديد. لكن يجب أولا الاقتراب منها بود وبحذر، وإنشاء علاقة عادية وبريئة في البداية. يمكن مثلًا تقديم بعض المساعدات العابرة والعادية لها، ابتداء من تسهيل الوصول لعملائها المقبوض عليهم والمرحلين من سجن لآخر وانتهاء بالخدمات الشخصية البسيطة كتجديد رخصة السيارة، المساعدة في نقل ابنتها للمدرسة الفرنسية، تعطيل التليفون وإصلاحه، ألف باء علاقات التعاون والخدمات. كل ذلك يهدف لخلق اتصال شخصي بريء ومحو صورة البعبع اللصيقة بضابط المخابرات.

حاولت الاتصال بها إلا أن رد فعلها كان سلبيًا. أنا بالقطع لم أتصل بها لأقول شيئا من قبيل: ما رأيك في أن تعملي كمخبرة في الأمن القومي. كل ما فعلته هو إظهار حسن النية في بعض المواقف، بعض المجاملات البسيطة والتي تخبرها بأن هناك من يهتم بها وبحسن العلاقات معها. ومعظم الناس تستجيب لهذه الإشارات البسيطة خاصة وأنها بعيدة عن السياسة. جددت لها رخصة السيارة قبل موعدها وأرسلتها لها مع بطاقة تحية تحمل اسم العميد أحمد كمال، لا شيء أكثر من ذلك، ولكنها أعادت لي الرخصة في اليوم التالي ممزقة نصفين! محاولاتي التالية والهادفة لكسر الجمود وخلق تفاهم شخصي أو حتى اتصال إنساني كان نصيبها الفشل. صعّدت المستوى وبدأت أحاول أن أسدي لها خدمات في المحاكم وفي مصلحة السجون لتسهيل عمل محاميها دون الإخلال بقواعد الأمن، لكن رد

فعلها كان أعنف. كانت صلبة لا تلين.

جئت بتاريخ حياتها محاولًا العثور على ثغرة أنفذ منها: أي شيء في حياتها السابقة، في حياة والديها أو أي من أقربائها، أي شيء، لا فائدة. داليا الشناوي كانت دائمًا كالساعة. وحيدة أبويها، ولدت عام ١٩٤ والتحقت بمدرسة فرنسية للبنات بالقاهرة وظلت بها حتى حصلت على الثانوية العامة والتحقت بكلية الحقوق وتخرجت من الكلية عام ١٩٧ بتفوق باهر. رفضت التعيين كمعيدة وسافرت إلى باريس للحصول على درجة الدكتوراه في القانون المدني وحصلت عليها في زمن قياسي وعادت لمصر عام ١٩٧٧ بعد أن تزوجت بطبيب مصري كان يعد الدكتوراه في باريس في نفس الفترة. تقارير الأمن تشير إلى سلوك اجتماعي محافظ منذ أيام الجامعة وبعض النشاط السياسي في اتحاد الطلاب وقتها، ولكنها لم تتحجب إلا في باريس، أمها غير محجبة. زوجها متدين لكنه غير منخرط في العمل السياسي، على الرغم من أن بعض أفراد عائلته من الإخوان الذين تركوا مصر في الستينيات. بدأت العمل في مكتب أحد كبار المحامين الذي قدمها للأوساط السياسية الإسلامية. أثبتت قدراتها كمحامية سريعًا في قضايا صعبة، وبعد ثلاث سنوات فقط فتحت مكتبها الخاص لكن علاقتها بأستاذها استمرت. زاد انخراطها في العمل السياسي باضطراد بعد ذلك. أنجبت بنتًا ثم ولد بعد عدة سنوات من عودتها. حياتها مع زوجها وأمها وأطفالها تبدو رتيبة ومحترمة وطبيعية. كنت أبحث عن ثغرة، ثغرة واحدة فقط، ولكن لا شيء.

كان الحل المتبقي هو أن أخلق الثغرة خلقًا أو أن أستسلم وأعلن فشلي. ولسبب أجهله ليومنا هذا قررت أن أعمل بجد وأن أخلق هذه الثغرة. لا أدري لماذا تحمست فجأة للعمل، أنا الذي كنت قد قررت منذ زمن أنه لا فائدة ترجى من العمل وأن العمل الجاد غير ممكن أساسًا وألا أمل هناك. لماذا عاودني الأمل مرة أخرى والإيمان بأني أؤدي مهمة وطنية وأني أخدم بلدي وأحميها؟ من أين أتى هذا الأمل أو هذا الوهم؟ هل هي طبيعتي الحالمة سرا والتي لا تريد أن تستسلم لليأس؟ أم هو غيظي من هذه السيدة التي تسيطر على نفسها وحياتها هذه السيطرة الكاملة والتي تكاد تفوق قدرة البشر؟ أم هي حمية ضابط الأمن وضميري المهني استيقظا فجأة ورفضا الإهانة والفشل؟ أيا كانت الأسباب فقد وجدتني مدفوعا بحمية لم أعهدها منذ زمن بعيد. قضيت أسبوعًا كاملًا أفكر في الخطة، وشهرًا أجمع المعلومات المبدئية - منها تكليف مكتبنا في باريس بجمع معلومات تفصيلية عن حياة مجموعة الطلبة المصريين المبعوثين لباريس عام

١٩٧٠، وبعد قرابة الشهرين من ذلك اليوم صارت الخطة جاهزة للتنفيذ.

لقد وجدت الثغرة، واسمها د. نشأت غالب. وأصبحت جاهزًا للانقضاض على داليا ووضعها تحت السيطرة. النجاح مضمون مائة في المائة. ضابط مخابرات حقيقي وليس ضابط من ورق. لكن لم تواتني الشجاعة أو القسوة اللازمة للانقضاض.

* * *

ذهبت أمس لزيارة أختي بعد المكالمة الثالثة من أمي التي حثتني على ذلك كيلا يظن زوج أختي أنها بلا أهل. جلست قليلًا أتضاحك مع أبنائها الأربعة الذين خرجوا بعد عشر دقائق للحاق بتدريب التنس والجودو والجمباز والسباحة بالنادي، ثم تناولنا الغداء وأنا صامت وحديث زوج أختي لا ينقطع عن الأحوال والبنك الذي يعمل فيه والقرارات الاقتصادية الأخيرة والحاجة لقانون بنوك جديد ثم التلميح لأن السياسة الحكومية تحكمها اعتبارات الأمن بدلا من الاعتبارات الاقتصادية والتأكيد على «احترام الأمن والقيادات الأمنية» «ولكن هناك ضرورة لترك القرارات الاقتصادية والاستثمارية في يد الاقتصاديين»، وتدخلات أختي التي تحثنا على تناول الطعام بدلا من تضييع الوقت في المناقشات. لم أكن أتناقش، كنت صامتًا. سردت أختي بعض أخبار العائلة وأسيوط وماما وصحتها وأخونا الكبير سليمان ومشاكله مع المحافظة ونواب الحزب والفساد الذي يقاومه، ثم تدخل زوج أختي مرة أخرى متحدثًا عن المشروع الذي يقيمه في أسيوط بالاشتراك مع سليمان لتربية الأسماك بقرض من فرع البنك في أسيوط: «يا ريتك كنت تقدر تدخل شريك معانا يا أستاذ أحمد»، هززت رأسي وأكملت الغداء في صمت.

* * *

كان الصيف يشتد حره وورد النيل ينتشر بكل قواه بطول المجرى، وأصبحت جهود عمال المسطحات المائية بينة العبث. ويبدو أن شخصًا ما رأى أن الأمر تجاوز حده فأرسل قوة من شرطة المسطحات المائية للقيام بعملية تمشيط واسعة النطاق للنهر. وأنا جالس في الشرفة أرقب هذه العملية الكبيرة: قوارب ولنشات ومعدات تحدث ضجيجًا هائلًا وتتحرك بعرض النهر كله، تلقي بأشياء وتجمع أشياء أخرى. استمرت هذه العملية طوال الأسبوع، واستطاعت القوة المغيرة أن تقضي على الورد الطافي على سطح النيل، لكن الورد عاد للظهور مرة أخرى غداة رحيل القوة، وبعد عشرة أيام كان ورد النيل يملأ المجرى مرة

أخرى. وعاد عمال المسطحات المائية ببراميلهم للعمل اليومي المعتاد.

أمامي شهر ونصف على موعد السفر إلى الخرطوم، وبدأت أقرأ عن السودان بتمعن وعن هذه المدينة التي سأذهب لأقضي أربع سنوات من عمري فيها، وجعلت من هذه القراءة ومن كمية الإجراءات التي ينبغي على اتخاذها استعدادًا للسفر ذريعة للتوقف النهائي عن التظاهر بالعمل. كان قرار نقلي مصحوبا بقرار تعيين زميل آخر للحلول محلى، منقولًا من إدارة مكافحة النشاط الشيوعي التي تقلص حجمها كثيرا في السنوات الأخيرة. ظهر زميلي في الشقة ولكنه اتخذ المكتب المجاور مقرًا له انتظارا لرحيلي. وبدأت أسلمه العمل شيئًا فشيئا: الملفات، المصادر، التقارير، تقديرات المواقف، البنود المعلقة، المتابعات، كل شيء عدا داليا الشناوي. وكنت أعلم أنه ستأتي لحظة وأعطيه الملف، وسيأتي ليسألني لماذا لم نكمل تنفيذ الخطة عند مرحلتها الأخيرة، كانت هذه اللحظة آتية لا ريب فيها، وكنت أخشاها وتتقلص معدتي من التفكير فيها، ولكن ما باليد حيلة. سيقوم هو بما كنت أؤجل القيام به لأسابيع طويلة.

* * *

أتى صديقي القديم «النقيب» رأفت لرؤيتي في القاهرة، وكانت لفحة شمس سيناء بادية على وجهه. جلسنا في مطعم صغير بأحد المراكب التي تم تثبيتها على شاطئ النيل. ابتسم رأفت وهو يحكي لي عن القرية السياحية التي أنشاها على الساحل الشرقي لسيناء بالقرب من دهب، ومركز الغطس الذي أضافه هذا العام، وتقلبات السياحة.

ـ والمصريين؟

ـ قليلين، يعني في الأعياد وأجازة نص السنة، وبيني وبينك أحسن لو ما يجوش. بييجوا في الإجمال شهر في السنة، لكن السايح المصري معاه في المتوسط تلات أطفال، وبيستهلك ضعف السايح الأجنبي وبيدمر القرية بعد رحيله، كل حاجة بتتدمر: الغرف، المطعم، حتى الكراسي ياراجل، معرفش ازاي!

ـ والألمان؟

ـ الألمان دول هايلين. بييجوا أساسًا للغطس، لكن للأسف السياحة الألمانية متقلبة، يعني سنين آه وسنين لأ، بس بييجوا كأنهم

مبرمجين: الوصول، الأكل، الغطس، العودة للقرية، العشاء، سهرة ودرنك، صحيان بدري، الغطس، وهكذا لغاية ما يمشوا، ولا عساكر الجيش.

ـ وأولاد العم؟

ـ أولاد العم دول قشطة، من غيرهم كنا قفلنا القرية من سنين.

ـ أنا مش عارف إزاي يا رأفت بتتعامل معاهم بالعادية دى!

ـ ليه لأ؟ هو فيه إيه يا أحمد؟ حاربنا بعض كام مرة، كسبوا شوية وكسبنا شوية وخلص الموضوع، هو احنا حانحطهم قدامنا ونقعد نعيط عليهم؟ ما هم بشر زينا.

ـ ما انا عارف إنهم بشر، بس ازاي قادر تنسى وتتجاوز التار اللي بينا وتتعامل معاهم على إنهم سياح؟ لأ وفين، فوق الأرض اللي كنا بنموت بعض عليها!

ـ أولًا مسألة التار دي ماليش فيها، إنت راجل صعيدي وممكن تكمل في التار طول عمرك وعمر أولادك وأحفادك. أنا راجل بحراوي، خالتي وخالتك واتفرقوا الخالات. حانفضل نموت بعض عشان شوية رمل وصحرا لغاية ما نخلص احنا وهم؟ طيب ما طلعوا من عندنا. يصطفلوا بقى هم والفلسطينيين، يقسموها ولا يولعوها هم أحرار. إيه يا أخي؟ إحنا مش عندنا عيال نربيها وعيشة نعيشها؟

ـ...

ـ وبعدين دول بشر برضه. إنت أصل احتكاكك بيهم كان في الحرب وبعد كده في المخابرات، يعني بتتعامل مع نوعيه معينه وفي سياق عدائي. أنا باتعامل مع الكل: العربي واليهودي، البنات والولاد، الشباب والعواجيز، اللي من أصل مصري وبيتكلم وبياكل وبيتصرف زيّي وزيك، واللي من أصل عراقي ولقى نفسه مترحل لإسرائيل غصب عنه، واللي من أصل لبناني وبيترحم على أيام بيروت، واللي عنصري ومش طايقك، واللي فاكر نفسه أوربي، واللي مولود في القدس وأجداده مولودين في القدس، واللي جاي امبارح من أمريكا ومتعصب أكتر من المولود في البلد، وهكذا. ده مولد ياعم وناس عندها مشاكل لا تقل عن المشاكل اللي عندنا، شعب كامل ومجتمع كامل.

ـ ما شاء اللّه يارأفت، ماكنتش أعرف انك فاتح مركز دراسات اجتماعيه في دهب!

ـ أهو انت لما تتزنق في الكلام تتريق.

ـ يعني عايزني أقولك إيه، هو حد قالك إني فاكرهم مخلوقات فضائية؟ هو انا قلتلك إنهم كلهم أعضاء في الكتيبة اللي ضربتني بالنار؟ ما انا عارف إنهم مجتمع وفيهم كل شكل وكل نوع وفيهم أطفال ورضع ونسوان! أنا مالي ومالهم؟ أنا باتكلم علينا إحنا مش عليهم هم. هو احنا كنا بنحاربهم علشان فاكرين إن ماعندهمش أطفال؟ هو احنا اللي رحنا لهم ولا هم اللي جم لنا؟ ما كنا قاعدين في حالنا! ده احنا عشنا حياتنا كلها نعاني بسبب الناس دي وبسبب اللي عملوه! وبعدين بغض النظر عن السياسة والتاريخ، إنت شخصيًا حياتك اتشكلت بالحرب، كل شيء حصل فيها كان بسبب الحرب مع إسرائيل، أنا بصراحة مش عارف ازاي انت قادر تتجاوز المسألة بالبساطة دى!

ـ طب اسمع، تعال اقعد لك عشرة أيام في القرية وقوللي رأيك إيه.

ـ والنبي بلاش تسخف موقفي للدرجة دى، أصل أنا عمري ماشفتهم ولما حقابلهم حافهم، مش كده؟

ـ ماقلناش كده يا سيدى. بقولك إيه، مفيش داعي نعكنن على بعض، خلاص، أنا قادر أتجاوز الماضي وانت مش قادر، Fine، خليها على كده.

ـ طيب اشرب الشاي يا خويا خلينا نقوم نشوف أشغالنا.

* * *

بدأت الجلسة الافتتاحية لمؤتمر «الأمم المتحدة وحقوق الإنسان في العالم العربي» بكلمة ممثل برنامج الأمم المتحدة للتنمية المنظم للمؤتمر، أعقبتها كلمة مندوب الحكومة السودانية المضيفة، ثم الموافقة على جدول الأعمال، انتخاب سكرتارية المؤتمر ومكتبه التنفيذي، تكوين لجنة الصياغة إلى آخر ذلك من الإجراءات التي لا تعنيني في شيء. غادرت مقعدي في قاعة المؤتمر وذهبت لمواصلة الاتصال بأعضاء الوفود وبخاصة ممثلو النقابات والهيئات والجمعيات العاملة في مجال حقوق الإنسان، وكانت فرصة للقاء وجوه وأسماء قديمة. لكن سارة لم تأت. لم تقل إنها ستأتي ولكني كنت أنتظرها. كان أشرف فهمي هناك، والدكتور نشأت غالب، والدكتورة داليا

الشناوي (التي تجنبت النظر إليَّ) وعدد آخر من الصحفيين والكتاب والمحامين والنقابيين من كافة الاتجاهات. كان المفروض أن أتابع تحركاتهم وأرصد اتصالاتهم بأعضاء بقية الوفود خصوصا وفود السودان والسعودية والجزائر وتونس وإيران ووفود الدول الآسيوية. ولكن ذلك كان مستحيلاً عمليا: كان يلزمني لتحقيقه جيش من المعاونين ومن المعدات الفنية والمال، ولم يكن الجهاز قد أرسل أحدا ولم يكن لدي هنا الإمكانيات اللازمة. وليس من حل أمامي سوى التسكع في ردهات المؤتمر والعمل بالقطعة، زهرات. أرصد هذا بعض الوقت، أتحدث مع هذه بعض الوقت، أتحدث مع أقراني من ضباط الأجهزة الصديقة، ثم أكتب كل ذلك في ورقة وأرسله للقاهرة وكل عام وأنتم بخير، سدد الخانات يا سيادة العميد سدد.

أشرف أهم مصادري داخل المؤتمر، وكانت علاقتنا قد توطدت منذ الفترة التي كنت أتابع فيها نشاطه بالقاهرة. فبرغم نفوري منه إلا أنني تعاونت معه بشكل مكثف خلال العام الأخير من إقامتي بالقاهرة. أشرف حر الحركة واللسان، يملك من القوة ما يسمح له بقول ما يريد، ويستطيع بكل تأكيد أن يقول في الجرائد ما لا أستطيع أنا البوح به لصديق على القهوة. ولكن كان عندنا أرضية مشتركة للتعاون، أسرب له بعض المعلومات التي تهمه، ويستغل بعضها في شن حملاته الصحفية وفي حماية نفسه، وفي المقابل كان يوافيني بالمعلومات المفيدة التي تصله. كنا نلتقي في أماكن عامة. ووفقا للتعليمات، لم أكن أسلمه أبدا أوراقا مكتوبة اللهم إلا صورًا لوثائق تخص أحد الأهداف، ولم يكن يسلمني أبدا أوراقا مكتوبة. بالإضافة لذلك كنت أوفر له الحماية الأمنية، وبالفعل أحبطت محاولة لاغتياله ذات يوم، محاولة حقيقية لاغتياله اكتشفناها بالصدفة بعد القبض على مجموعة إرهابية في الصعيد تبين بالبحث في أوراقها أنها كانت تخطط لاغتيال عدد من الشخصيات من بينهم أشرف فهمى، ثُم حاولت مجموعة أخرى اغتياله وقمنا بالتدخل للقبض على المجموعة (ولكن تم قتلهم في تبادل إطلاق للنار وقع عند محاولة القبض عليهم من قبل الشرطة). تلك كانت علاقتنا: تعاون مهني دون مودة شخصية من أي من الجانبين. بل كنت أشعر أحيانا بنفوره مني ومن التعامل معي، وكأنه ينأى بنفسه عن التعاون مع الجهاز، وكأنه يأتي إليّ مكرها.

التقيت بأشرف على الغداء في قصر المؤتمرات، وتندرنا في البداية على قبح قصر المؤتمرات وتصميمه ومفروشاته، وعلى الناموس والذباب الذي يطير داخل القاعات، ثم انتقلنا للحديث عن المؤتمر والمشاركين فيه، ثم عن الحياة في الخرطوم: التراب والحر والمطر

والرطوبة والصحف والحريات والمخابرات والسفارات والأمن، ثم كلينتون ونتنياهو وعرفات وغزة وحماس. ثم من حماس انتقلنا للتيار الإسلامي عامة، ثم شرح لي بالضبط خريطة التحالفات والصراعات بين المشاركين في المؤتمر من مصر وبين الوفود الهامة الأخرى. كان تحليله مقنعا ونافذا وعزمت على مقارنة معلوماته بمعلومات زملائي من السفارات الأخرى، ثم سألته:

ـ إنت ناوي تكتب الكلام ده؟

ـ طبعا لأ.

ثم أردف مبتسما:

ـ تقدر تكتبه انت يا سيادة العميد.

نظرت إليه دون ابتسام ولم أعقِب. وفي نهاية الغداء أصر على دفع الحساب.

ـ أصل فلوس المخابرات ولا مؤاخذه بتعمل لي حموضة.

قالها بنصف ابتسامة ثم ذهب. نظرت إليه وهو خارج من القاعة. بتعملّك حموضة! لعنة الله عليك يا حضرة الصحفي الشريف! كان الدم يصعد إلي رأسي وبدأت نوبة الصداع النصفي في الهجوم. كانت هناك ضوضاء تأتي من الخارج. قمت وفتحت الباب لأرى ما يحدث، فانفجر كل شيء في وجهي.

* * *

سلمى تريد الإنجاب، وأنا لا أستطيع بعد الآن. قلت لها إنني لا أريد أطفالًا. ولم ترد. نظرت إليّ وكأنها كانت تنتظر هذا الرد.

ـ أنا ماقدرش أخلف.

ـ ما انا لاحظت الحكايه دي.

ـ أفندم؟

ـ أنا آسفة.

ـ مافيش داعي للأسف، انتي معاكي حق.

ـ أحمد أرجوك، كفايه، اصحى بقى، فوق، ارجع أحمد جوزي وحبيبي وصاحبي.

ـ عايزاني أعمل إيه؟

ـ أحمد، من فضلك، بص لي في عينيا وانت بتكلمني. أنا عايزاك، مش مهم أي حاجة تانية، لو فيه مشكلة نحاول نحلها، نشوف دكتور، فيه أدوية كتير واحنا مش أول زوجين نواجه مشاكل من النوع ده.

ـ قلتلك الدكتور قاللي إن ماعنديش مشكلة عضوية.

ـ خلاص، مش مشكلة، أنا مش مهتمة بالموضوع ده، مش لازم. خليها كده لغاية ما تتحل لوحدها، أو إنشالله ما اتحلت. أنا عايزاك إنت ترجع لي، إنت قافل على نفسك وباعدني عنك ليه؟ أنا عملت إيه؟ ليه راميني كده؟

ـ....

ـ رد عليّ، لو مش عايزني قوللي.

ـ.....

ـ طيب حاول تقرب مني، فضفض شويه، افتح لي قلبك.

ـ مامنوش فايدة.

ـ ليه؟

ـ....

ـ أحمد!

ـ سيبيني دلوقتي من فضلك.

* * *

١ أكتوبر. اليوم هو الرابع من أيام الانتظار الطويل ومن الأوامر المتضاربة

والتكهنات والتساؤلات والتوترات والضغوط. صدرت الأوامر إلينا بتحريك القوات على الجبهة في اتجاه المضايق. كانت هذه الأوامر كارثة محققة، فات الوقت. ونحن نعلم ذلك، والتقارير الواردة من الجبهة تقول ذلك: العدو أعاد تنظيم قواته واتخذ قرارًا إستراتيجيًا بالدفاع عن المضايق وبنى قواته وتشكيلاته على هذا الأساس. أكدت التقارير الواردة من الجبهة أن عملية إعادة تنظيم قوات العدو تمت بالفعل ـ أثناء انتظارنا الطويل على مدى الأيام الأربعة الماضية ـ وتقارير قادة الأسلحة تؤكد نفس المعنى، كما كان معظم القادة الموجودين في مركز العمليات مقتنعون بأن الوقت قد فات لمثل هذا التحرك. ولكن الخطأ، ذلك الخطأ المجهول الهوية الذي يسبح في مكان ما، ذلك الفيروس الغامض الذي ينخر في عظامنا، لا يزال نشطا. وصدر الأمر بالفعل بالرغم من كل المعلومات التي لدينا، وصمتنا مرة أخرى، وابتلعنا غصة الحلق واحـتملنا ضغط الدم الذي يرتفع في رؤوسنا ونفذنا الأوامر.

١ أكتوبر، أصدرنا الأوامر والتعليمات الخاصة بتحرك القوات شرقا، وظللنا طول اليوم واجمين في غرفة العمليات نتلقى الأنباء الكارثية الآتية من الجبهة. ظللنا نحصي قتلانا وجرحانا وأسرانا وخسائرنا في المعدات. كنا نقطع في لحمنا بأيدينا ونزن اللحم المقطوع ودمنا ينزف على الميزان. الطائرات الإسرائيلية تحصد دباباتنا الملتحمة في قتال مباشر مع الدبابات الإسرائيلية مدفع بمدفع ووجها لوجه دون غطاء جوي كافٍ. استمرت هذه المأساة حتى بعد الظهر عندما صدر الأمر الجديد بوقف التحرك وإنهاء العملية.

ما الذي يحدث بالضبط؟ من الذي يأخذ القرارات وبناء على ماذا؟ وماذا نفعل نحن هنا إذا كانت القرارات لا تحتاجنا ولا تحتاج إلى معلوماتنا ولا تقديراتنا؟ لم يسألني أحد مجرد سؤال عن المعلومات التي لدي، أنا مناوب الاستطلاع الذي تصب لديه المعلومات الآتية من الجبهة ومن خلف خطوط العدو، تلك المعلومات التي يموت زملائي للحصول عليها، كيف لا يسأل عليها أحد؟ كيف يمكنني أن أبتلع هذا وأظل حيًا؟ وأظل ضابطًا حقيقيًا؟ وأظل مستعدًا لتعريض حياتي للخطر على الجبهة من أجل معلومة أعلم مسبقًا أن أحدًا لا يكترث بها؟ كيف يمكنني بعد ذلك أن أعطي نفسي لهذا العمل؟

كانت نظراتنا كلنا تحمل هذه التساؤلات، وكان التوتر يزداد ويعلو في مركز العمليات وأصبحت العلاقات بين القادة أسوأ وكأن كلًا منهم يريد أن يلقي بالتبعة على الآخر. جميعنا ضحايا ومذنبون، ولا نعرف ماذا

نفعل. كان النقيب رأفت هو أول من اقترح أن نذهب ونقابل الرئيس ونخبره بما يحدث. أليس هو القائد الأعلى للقوات المسلحة؟ ومن أكثر منه تأهلًا لكي نخبره بهذه التفاصيل وليتحمل المسئولية في هذه الأيام العصيبة؟ فكرة جذابة، لكن مخاطرها رهيبة. كان ذلك في الحقيقة ضربًا من الجنون، خروجًا على القانون العسكري ونحن في قلب المعركة. كيف سنخرج من مركز العمليات بدون تصريح؟ وأين نجد الرئيس؟ ثم ماذا لو افتضح أمرنا ولم نستطع مقابلته؟ ماذا لو أوقفتنا الشرطة العسكرية في الطريق وليس معنا أوامر تحرك؟ سيتم القبض علينا فورا ومحاكمتنا. لا، ليس بوسعنا المخاطرة بذلك.

في اليوم التالي كانت أنباء ثغرة الدفرسوار قد بدأت في الوصول للمركز، ومع بداية قصة الثغرة بدأت نهايتي كضابط، وربما نهايتي بشكل عام. كانت المعلومات ترد إليّ عن الثغرة وحدودها ونوعية وأعداد المعدات والأفراد الذين ينتقلون للضفة الغربية للقناة وطبيعة العمليات التي تدور وتوقيتاتها، وكنا ننقل هذه المعلومات لبقية الأسلحة والقادة، ومرة أخرى بدا أن الحرب تدور وحدها، دون أن يتحكم أحد في مسارها. برغم الثغرة واتساعها المتزايد، وبرغم الخطر المحدق بالجيش الثالث كله وبالحرب نفسها، بدت حركتنا بعيدة عن التخطيط العقلاني المدروس، وبدت القرارات متضاربة، وكأننا لا نتبع إستراتيجية موحدة. واستمعت إلى مناقشات أفجعتني: الآن؟ الآن نتناقش حول إستراتيجية الحرب؟ أليس الوقت متأخرًا قليلًا على هذه المناقشات؟ ألم يتفق كبار القادة حول إستراتيجية الحرب قبل أن تبدأ؟ ثم ظهر الخلاف حول كيفية مواجهة الثغرة، وكان هذا الخلاف في الرأي متأخرا أيضا، بعد أن تحولت الثغرة إلى جرح ينزف.

١٧ أكتوبر، والتوتر يبلغ أقصاه في مركز العمليات وعلى الجبهة. على الإفطار همس في أذني أحد زملائي من صغار الضباط بأننا سنتقابل بعد الإفطار لنتفاهم سويا. وبالفعل اجتمعنا كلنا وبدأ كل منا يطرح أفكاره حول سبل مواجهة الموقف المتدهور داخل المركز، وعادت فكرة الذهاب لمقابلة الرئيس مرة أخرى، كما طرحت أفكار أخرى أشد جنونًا، وفي النهاية اتفقنا على أن نفعل المستحيل: سوف نتخطى قادتنا والقوانين العسكرية ونذهب لمقابلة الرئيس شخصيا، وليكن ما يكون.

تحركنا ليلًا بعد هدوء المركز. خلد القادة للنوم وتولى صغار الضباط المناوبة. بقي من بقي لتسيير أمر المركز وخرجنا أربعة عشر ضابطا في ثلاث سيارات جيب وتوجهنا لقصر الطاهرة حيث علم أحدنا من

قريب له بالرئاسة أن الرئيس متواجد هناك. كنا معرضين للخطر طوال الطريق، فليس لدينا تعليمات تسمح بهذا التحرك وقد يتطور الأمر لو أوقفتنا إحدى دوريات الشرطة العسكرية. لكننا وصلنا. وبعد التفاهم مع الحرس الجمهوري والبوابة قابلنا سكرتير الرئيس لكننا أصررنا على إيقاظ الرئيس والحديث إليه. بعد حوالي نصف الساعة من الانتظار المتوتر دخل علينا الرئيس. كان بشوشًا واستقبلنا بملابس النوم. ظللنا نتحدث إليه ونقلنا له الصورة كاملة، كل التفاصيل، الوضع على الجبهة، التوترات في مركز القيادة، المخاطر التي تحيق بمصير الحرب، التخبط في القرارات، كل شيء. استمع الرئيس إلينا في هدوء وتركيز وهو يدخن غليونه ويستفسر عن بعض النقاط من وقت لآخر، وبعد حوالي الساعة شكرنا وطمأننا وربت على أكتافنا وقال لنا ألا نكرر مثل هذه التصرفات الجنونية، وودعنا وعدنا لمركز العمليات. نجحت العملية. ومكثنا في المركز نترقب تدخل الرئيس.

لم أستطع النوم من شدة الإثارة، وفي الصباح ظللت أرقب وجوه القادة وأجهزة التليفون والأبواب بحثا عن أثر لما تم، لكنني لم أرصد شيئًا غير عادي. مر النهار والمساء ولم ألحظ شيئًا. ثم مر اليوم التالي والذي بعده ولم يحدث شيء، بل استمرت الأحوال في التدهور. ثم أتى الرئيس بنفسه.

أتى الرئيس لمركز العمليات، والتقى بالقادة مطولًا وعلى انفراد، وحسم الخلاف بينهم. لكن لم يتغير شيء. صحيح أن النزاع حول كيفية مواجهة الثغرة قد تم حسمه، لكن طريقة العمل التي أدت لحدوث الثغرة واستفحالها استمرت كما هي. ما زلنا في التوتر وغياب التنسيق والقرارات الارتجالية التي تعتمد على أشياء لم ولن أفهمها. كأن القرارات تأتي من القمر وليس من الخرائط والإشارات والمعلومات الواردة من الجبهة. كأن شخصًا ما يغمض عينيه ثم يأخذ القرار وهو يدعو أن يكون القرار موفقًا وأن يمر بسلام. أحيانا يمر بسلام، وأحيانا تنكسر السماء على رؤوسنا، وهذه المرة، انكسرت السماء على رؤوسنا.

أنا الذي مت في الدفرسوار.

بعدها لم يعد أي شيء مثلما كان. كل شيء فقد طعمه. مات الحلم وماتت القدرة وانتهت المعركة بالنسبة لي. يكتبون ما يكتبون، يقولون انتصرنا ويقولون انهزمتم، يفرحون ويستاؤون وينتقدون ويعلقون ويحللون، كل ذلك أصبح غير ذي معنى، لم يعد يهمني. فقدت القدرة على الانفعال، على الحزن وعلى الفرح سواء. انفجر قلبي داخلي، ثم

سكن الغبار، وانتهى الأمر.

* * *

مات عمر فارس في حادث سيارة. هذا ما نشرته الصحف وما ذكره لي زملاؤه في مكتب النائب العام. كان قد عاد للمكتب بعد إجازة بدون مرتب لمدة عام كامل. وكان مسافرًا للمنصورة لسبب أجهله. سألني زميله بالمكتب إن كان قد أعطاني أي أوراق قبل وفاته ووجدت السؤال غريبًا. لماذا يعطيني أوراقًا؟ وأي أوراق؟ قال الزميل إن هناك ملفًا كان يعمل عليه وإنه لم يجد الملف في المكتب أو في مكان الحادث. وجدت كلامه سخيفًا فحدجته بنظرة أسكتته.

مات عمر فارس، الباقي من البقية القليلة. وحل عليّ صمت غريب منذ علمت الخبر وفي الجنازة وعند الدفن وفي العزاء. شددت على يد والده وأخيه وربتّ على كتف أخته ولم أنطق بكلمة. كان عمر أحد القليلين الذين كنت ما زلت قادرا على الحديث معهم، وبموته العبثي تقلص عدد الكلمات التي أنطقها أكثر.

* * *

جلسة المؤتمر على وشك الانتهاء. كنت جالسًا في القاعة أدون بعض الملاحظات في الورقة المفرودة أمامي كي أمنع نفسي من النوم. وعندما انتهي المتحدث الأخير من خطبته الطويلة جمعت أوراقي وانطلقت خارجًا من القاعة. قابلت الدكتور نشأت وأشرف فهمي منهمكين في مناقشة حامية عند الباب قطعاها عند ظهوري وأومأ إلي بتحية مجاملة فرددت التحية مسرعًا وأنا أمرق باتجاه جراج السيارات. السيارة واقفة بجوار باب الجراج. وضعت المفتاح في الباب وأدرته مرتين لمنع جرس الإنذار من الانطلاق ثم فتحت الباب ودلفت. انطلقت بها خارجًا من مبنى الفندق. مررت عبر الإشارة وانحرفت بالسيارة يسارًا بلا هدف. ظللت أقود السيارة في ليل الخرطوم الصيفي الحار، بقايا قمامة متناثرة بجوار الأرصفة تعبث فيها قطط ضائعة. مجموعات صغيرة من الرجال واقفة على جانب الطريق تحملق في المارة دون سبب واضح. لا امرأة واحدة في الشارع. متسولون يتسكعون في الشوارع أمام البنوك والمحلات الكبرى. الخرطوم ليلًا ولا شيء يوقفني سوى إشارات المرور. الصمت قابع على المباني الحكومية وكأنها أغلقت أبوابها للمرة الأخيرة. مقر الرئاسة المتهالك قابعا أمام النيل في صمت، يطل على الشوارع القفر المظلمة بنوافذه البريطانية التصميم وجندي الحرس الجمهوري الوحيد عند المدخل. اتجهت

بالسيارة لشارع القنصلية وأنا أتذكر شارع الجامعة بالجيزة. فتح لي البوابة حارس الأمن وهو شبه نائم. أوقفت السيارة أمام سلم القنصلية ودخلت بسرعة من الباب. حارس الأمن الآخر نائم ولا ريب. دخلت مكتبي، لا شيء. ذهبت إلى غرفة الشفرة: لا شيء على الماكينة. القاهرة لم ترد على استفساراتي. لا معلومات لدي ولا شيء أستطيع فعله لإيقاف هذه المتفجرات التي تتجول في مكان ما في هذه المدينة.

في الصباح جاءني رد من السلطات السودانية: «سنقوم بتشديد إجراءات الأمن في المدينة، ونرجو من أعضاء البعثة الدبلوماسية المصرية اتباع أقصى درجات الحذر». ثم أرسلوا سيارة نصف نقل بها أربعة جنود وقفت أمام مبنى القنصلية (أين هم الآن؟ ماذا جرى لهم؟ هل أصيبوا أيضًا في الانفجار؟). هذا هو؟ هذا هو تشديد إجراءات الأمن؟ وما المقصود بالضبط باتباع أقصى درجات الحذر؟ ماذا يعنى ذلك عمليًا؟ هل أطلب مثلًا من حارس الأمن أن يفتش الداخلين؟ وهل سيوقف هذا اقتحام القنصلية مثلًا بسيارة محملة بالمتفجرات؟ هل سيوقف الجنود الأربعة هجومًا على مقر الرئاسة في آخر الشارع؟ أو على المطار أو على تفتيش الري المصري أو على سد الخرطوم الذي نسيت اسمه؟

أقراني في السفارات الأخرى والذين قد تتوفر لديهم معلومات أعلنوا ألا معلومات لديهم. لا خيط، لا شيء. الأمن السوداني قال ألا معلومات لديه عن خطر، وابتسم المسئول الأمني ابتسامة واسعة وربت على كتفي وقال «اطمئن يا أخي نحن نسيطر على الموقف تمامًا». مصادري لا علم لها بشيء. مساجد أم درمان مساجد، وشيوخها شيوخ، ولا علم لي بشيء عنهم أو مدخل لهم يفتح بابًا. صليت في كل المساجد، وقابلت شيوخها كلهم، وحاولت البحث عن أي خيط أو عن مدخل بلا فائدة. ماذا يمكن أن أفعله وحدي؟ أمسك الشيوخ كلهم وأوجه إليهم مسدسي وأقول لهم أين تخبئون المتفجرات مثلًا؟

جالسًا في مكتبي في ليل الخرطوم المطبق أفكر أين يمكن أن تكون المتفجرات الآن؟ وفيم ستستخدم وأين ومتى؟ ولماذا أصدق هذا المصدر؟ لماذا لا يكون قد اختلق هذه القصة؟ رغبة في الانتقام من جهاز أمني أذاه وهو صغير. أو لتوجيه انتباهنا بعيدًا عن شيء آخر. أو حتى نوع من الدعابة السمجة. وما الدليل على صحة حديثه؟ لا شيء سوى أني تعاطفت معه وصدقته، وهذا كلام غير مهني. الضوء المنبعث من الأباجورة قوي ويلقي ببقية المكتب في الظلام والظلال.

أغصان الشجر اليابسة التي سقطت أوراقها من شهور وتحطبت من جفاف هذا الجو القاسي تتخبط في الهواء وتحدث خشخشة مضطربة خارج المكتب. ظللت أحدق في ضوء الأباجورة وعقلي يعمل في كل الاتجاهات. ثم حل الظلام ولم أعد أرى شيئًا.

* * *

سلمى قررت أخيرا أن ترحل وتتركني. أخبرتني بقرارها في إجازتي الأخيرة. قالت إن المشكلة ليست البعد والفتور أو العجز الجنسي، «ولكنه الموت يا أحمد». قالت إن الحق معي وإنه لا معنى لإنجاب أطفال لأني شخص ميت. وكان ردي الصمت. وكان ردها دمعًا غزيرًا بلا كلام. قالت لي بعد ذلك إنها كانت مستعدة لاحتمال أي مشكلة لو كان لدي الرغبة في المقاومة، ولكنها يئست بسبب استسلامي الكامل. قالت لي إن عجزي الحقيقي ليس جسدي ولكنه انعدام رغبتي في الحياة، وظللت صامتا حتى حملت حقيبتها وخرجت. وأنهينا الإجراءات قبل عودتي للجبهة. لماذا ظللنا نسميها الجبهة؟

* * *

كم من الوقت مر منذ وقع الانفجار؟ ساعة؟ ساعتين؟ أم عشر ساعات؟ ولماذا لم يأت أحد من رجال الإنقاذ والإسعاف والشرطة وخلافه؟ أحاول أن أحرك أي من أجزاء جسمي لكن لا شيء هناك. لا شيء سوى هذه الظلمة وعقلي الذي لا يكف عن العمل. لماذا لا تكف عن العمل وتتركني أستريح أخيرًا وإلى الأبد؟ وميض من النور يلوح من بعيد، أو كأن الظلمة تخفت فأظنها نورا. لا، بل نور يدخل، ليس فتحة من الضوء بل نور كأنه ينسكب بعيدا ويتسلل في بطء بين أشياء مصمتة فيقلل الظلمة ثم تبدأ الأشياء تتخذ شكلا. هل يزيحون الأنقاض من فوقي؟ لا بد وأنهم يزيحون الأنقاض. النور يزيد وتبدأ أذني في سماع أصوات آتية من بعيد، لا أستطيع تمييز أي منها لكنها همهمة مبهمة وبعيدة. أحاول أن أصرخ، لا فائدة.

أحاول أن أحرك جسمي، لا شيء يتحرك سوى الألم في رأسي، أحاول مرة ثانية، وثالثة، وعاشرة. لا، لن أستسلم للموت هنا.

* * *

زميلي العميد جالس في الغرفة الأخرى يقرأ الملفات، وأنا جالس على مكتبي أرقب النيل كعادتي وأقرأ الصحيفة. اليوم هو آخر أيام

العمل لي في الإدارة. بقية متعلقاتي الشخصية تقبع في هذه الحقيبة الجلدية الصغيرة الموضوعة بجوار باب الشرفة. عندما تصبح الساعة الثالثة سأحملها وأذهب، وبعد أسبوع واحد سأكون في الخرطوم لأتسلم عملي الجديد الذي هو استراحة من العمل. خسارة أن ورد النيل لا ينمو في الخرطوم أيضًا، من الذي سيذكرني بحدودي هناك؟ زميلي يقرأ في الملفات الأخيرة وأنا جالس أنتظر أن يدخل علي بالكارثة التي كنت أخبئها منذ بدأت أسلّمه العمل. والآن حانت الساعة، وهو يقرأ في الملف الآن وسيدخل عليَّ ويسألني كل الأسئلة ولا بد أن أقدم له إجابات شكلها معقول. لا يهم أن تكون إجابات معقولة، فقط أن يكون شكلها معقول. براميل براميل. انفتح الباب وظهر زميلي:

ـ سيد أحمد.

ـ أفندم.

ـ أنا عندي كام سؤال بخصوص ملف داليا الشناوي.

قضي الأمر. لا بد من إتمام تنفيذ الخطة ووضع داليا الشناوي تحت السيطرة. هذا ما قاله لي رئيسي بعد أن رفض زميلي الذي سيحل محلي إتمام العملية. حاولت التملص لكن رئيسي حسم الأمر وقرر أنه يتعين عليّ أنا أن أنهي ما بدأته. وبدون إحساس، وكأنني تحت تأثير المخدر، في صباح يوم من أيام صيف ١٩٩٥، قبل سفري للخرطوم بأسابيع قليلة، عدت مرة أخرى لأكون ضابطًا حقيقيًا. رفعت سماعة التليفون وبدأت في تنفيذ المرحلة الأخيرة من الخطة.

* * *

كان اليوم هو يوم الوساطات. أختي ـ التي قضت الصيف الماضي تحاول نقل ابنها إلى المدرسة الفرنسية التابعة للسفارة رغم رفض المدرسة لعدم وجود أماكن، وجعلتني أتدخل لدى السفارة الفرنسية لإتمام النقل رغم عدم وجود أماكن ـ تريد الآن أن أتدخل لأن المدرسة تفتقر للضبط والربط وابنها يتعرض لمضايقات مستمرة من قبل أولاد سيئي التربية في حين تقف إدارة المدرسة الليبرالية دون تحريك ساكن. العميد رأفت ـ كما أحب أن أناديه ـ اتصل من أجل تدخلي لإصدار تصريح وزارة السياحة اللازم لتشغيل مركز الغطس الجديد بالقرية. ضحك عندما سألته لماذا لا يتصل بالسياحة مباشرة: «خلاص يا أحمد يا أخويا، هو اللي في الخدمة برضه زي اللي خرج؟». أما أخي

الكبير سليمان فقد اتصل من أسيوط طالبا تدخلي لدى مدير الأمن لحل النزاع المستحكم بينه وبين أحد أعضاء الحزب في أسيوط.

تعبت والله النهارده في الشغل يا سيادة العميد.

* * *

جالسًا، أشرب الشاي في حديقة نقابة المحامين في انتظار وصول الدكتورة داليا. مكالمتنا التليفونية كانت مقتضبة وحادة كالسيف. اتصلت بها وقلت بلا مقدمات أنا العميد أحمد كمال من الأمن القومي، ولدي معلومات موثقة تدينها أخلاقيًا وقانونيًا، ومن ضمن هذه الوثائق بيان صادر من أحد مستشفيات باريس عام ١٩٧١، وإنها ما لم تتعاون معي فسأقوم بنشر هذه البيانات. هكذا. هذه هي طريقة الصدمات الكهربائية التي تتبعها بعض الأجهزة عندما لا يكون لديها الوقت. ولم يكن لدي وقت. ومن ثم، اتفقت معها، بعد محادثة عاصفة من ناحيتها وباردة كالثلج من ناحيتي، أن نلتقي لأؤكد لها أني ضابط حقيقي وأن لدي بيانات حقيقية وأني جاد في تهديدي.

وصلت داليا الشناوي. شاحبة الوجه، مرتبكة وغاضبة وتحاول جاهدةً السيطرة على نفسها. جلست في مواجهتي ونظرت إليَّ مع إيماءة مقتضبة. نسمات تهب علينا لا أدري من أين ونحن جالسان تحت تندة من القماش تحجب الشمس عنّا. جلسنا صامتين لحظة ثم جاء الجرسون فأبعدته داليا دون أن تسألني إن كنت سأشرب شيئًا.

ـ إنتم ما بتقدموش حاجه لضيوفكم؟

نظرت إليّ في ضغينة لا تحتمل التأويل ومدت يدها نحوي:

ـ تحقيق شخصيتك لو سمحت.

مددت يدي لحافظتي وأخرجت بطاقتي المهنية وأريتها إياها بوضوح ولمدة كافية. رفعت رأسها نحو وجهي فسحبت يدي بالبطاقة وأعدتها لجيبي.

ـ فين البيانات اللي بتتكلم عليها؟

أخرجت مظروفًا من الحقيبة ووضعته على المنضدة بيننا. نظرت إليه ولم تمد يدها. نظرت إليها وإلى المظروف بيننا ثم قلت:

ـ أنا آسف، حضرتك اللي اضطرتينا لكده.

اضطرم وجهها بتعبيرات قوية ومكبوتة. لم تعد تنظر إلي بل للمظروف الملقى على المنضدة. قمت واقفًا وتاركًا المظروف أمامها.

ـ خدي وقتك، حاتصل بيكي بعد يومين.

ثم انصرفت.

* * *

كان أشرف فهمي هو الذي أخبرني بالأزمة القلبية التي أصابت داليا الشناوي. اتصل بي وقال إنها نقلت لغرفة العناية المركزة بالقصر العيني بين الحياة والموت بعد أن وجدتها الخادمة ملقاة في مكتبها فاقدة للوعي وأن قلبها توقف ثلاث مرات وأعادوه للنبض بالصدمات الكهربائية ثم دخلت في غيبوبة وما زالت فيها. كانت المكالمة قصيرة، وضعت سماعة التليفون وظلّت كفي مستندة إلى جهاز التليفون وأنا أنظر أمامي بلا هدف. لم أكن أفكر في شيء محدد، لم أكن أفكر في أي شيء. لقد تحطمت الساعة الحديدية، وأرى يدي من خلف الحطام، أنا وهذا الجهاز الذي صرت رغم كل شيء جزءًا منه. أنا وهذا المقعد الذي أجلس عليه، هذا التليفون، هذه الملفات، هذه الأدراج وهذه الشقة. أنا الذي صرت جزءًا من هذا الموت البطيء، صرت جزءًا من الماكينة يا أحمد يا كمال، برغم الماضي والأحلام وموت الأحلام. أصبحت جزءًا من هذه الماكينة العملاقة البراثن والبطش. ألف مبروك يا سيد أحمد: نجحت العملية وتم تحطيم الهدف. تم احترام أصول الشغل، وملفاتك الآن سليمة وموقفك لا غبار عليه. تستطيع أن تسافر الآن. لقد أديت واجبك بالكامل.

دق التليفون مرة أخرى. سارة:

ـ عرفت اللي حصل؟

ـ خير؟

ـ داليا الشناوي؟

ـ أيوه أيوه.

ـ أحمد، هو إيه اللي حصل؟

ـ أنا إيش عرّفني يا سارة، قالولك عنّي شيخ حارة؟

ـ أحمد يا كمال! أنا شامّة ريحة وحشة في الموضوع.

ـ روحي حطي كولونيا وهدّي نفسك، مفيش حاجة.

أغلقت الخط. يدي لا تزال ممسكة بالسماعة، والدم يصعد إلى رأسي ونوبة الصداع النصفي تجتاحني. دق التليفون، كان صوته عاليًا جدًا، ضجيج لا يحتمل يأتي من بقية غرف المكتب. وقفت وفتحت الباب لأرى ما يحدث فانفجر كل شيء في وجهي.

* * *

هذا الصداع اللعين! وأين ذهب عمال الإنقاذ؟ سمعت أصواتهم من ساعة أو بعض ساعة، ورأيت نورا يقترب، أين ذهبوا إذًا؟ لماذا عاد الظلام مرة أخرى كحليًا هكذا؟ هل هو أنا الذي يصحو ويغفو؟ أم إني قد سقطت سقطتي الأخيرة؟ أيكون هذا هو الموت؟ صداع وظلام وانعدام الإحساس بالجسم وانتظار؟ أم تلك غيبوبة ما قبل الموت؟ أهذه هي النهاية؟ أتكون تلك نهايتي، مدفونا في أنقاض انفجار في مدينة غريبة؟ مقتولًا بالخطأ؟ بالصدفة؟ أبعد كل هذا القتال، كل هذا الرمل وكل هذه القنال والطلعات الجسورة والفداء وحمل الروح على اليد من أجل الوطن، كل هذا الصبر والسيطرة على النفس والمحاولة، وسارة، وقلبي الذي يموت ويحيا في موته دليلًا يتيما على بقائي حيًا، أبعد كل هذا القتال أموت صدفةً؟

ما الذي أبقاني حيًا طيلة هذه الأعوام؟ لماذا لم أمت خلف خطوط العدو في سيناء؟ ولماذا لم أمت في مركز العمليات؟ ولماذا لم أمت في دهاليز جهاز المخابرات؟ ولماذا لم أمت على ضفة النيل؟ لماذا انتظرت؟ ما الذي أبقاني حيًا كل هذا الوقت؟ لماذا لم تنطفئ هذه الشعلة رغم كل شيء؟ ولماذا لا تنطفئ الآن؟ لماذا لا يهمد عقلي ولماذا لا أغمض عيني وأستريح إلى الأبد؟ لماذا أحاول الصراخ مجددًا وأنا أعلم أن الصراخ بلا فائدة؟ ولماذا أحاول للمرة الألف أن أحرك جسمي وأنا أعلم أن شيئًا لن يتحرك سوى الألم في رأسي؟ لماذا لا أستسلم للموت هنا وأستريح؟

أحاول مرة ثانية، وثالثة، وألف، الألم يغمر رأسي.

لا ضوء، لاشيء سوى الظلام.

(٢)
أسمنت السقف

رأيت كل شيء من البداية.

وصرخت، فلم يسمعني أحد. لوحت بذراعي ولم يرني أحد. قفزت في وجوه الناس أقول لهم، وشددتهم من شعرهم ومن أيديهم، ولكنهم خلعوني من عيونهم ومن شعرهم ومن أيديهم وانصرفوا عني وتركوني هنا واقفًا أشاهد الدمار يتقدم خطوة خطوة ويأخذنا في جوف الحفرة التي تتسع لتبتلعنا جميعًا.

رأيت كل شيء من البداية، أنا الشاهد الذي شاف كل حاجة ولكن أحدا لم ينتبه لي ولم يطلب شهادتي ولم يسألني، والذي سألني لم يسمع إجابتي والذي سمعني لم يفهمني والذي فهمني لم يصدقني والذي صدقني تركني وترك البلد كلها وهاجر.

رأيت كل شيء من البداية، وتحول كل شيء إلى وجع في قلبي، وجدار على صدري، وبغضًا مقيمًا عالقًا في الهواء أنحت فيه طريقي كل يوم من بيتي إلى المجلة ويظل قابعًا خلف الشبابيك وخلف الأبواب في انتظار خروجي ليكبس مرة أخرى على نفسي.

رأيت كل شيء من البداية وفتحت فمي لأتكلم فهجموا عليّ ليخرسوني، فقلت ليس أنتم من أعني بل هم، فقالوا نحن هم وأنت تخرس فلم أخرس وتكلمت، فأرسلوا لي من يخرسني إلى الأبد وكانوا كلهم واقفين يتفرجون على إعداد جثتي ويقسمون تركتي والرصاص ما زال في فوهة المسدس لم ينطلق.

رأيت كل شيء من البداية، وتعبت من الحزن ومن الدمع المنسكب في قلبي، دمع كأنه نار تميت القلب وهو لا يموت. تعبت يدي من الكتابة ومن الإشارة ومن التلويح ومن التشويح ومن الدق على المناضد، وتعب حلقي من الصراخ ومن النقاش ومن الكلمات التي صارت كالصابون من تكرارها، وتعبت أذناي مما أسمع، مما أكره ومما أحب ولا يتحقق، وتعب صدري من الحزن القابع عليه كالصخر الأزلي، وتعبت عيوني من النظر ومن هول ما أرى.

* * *

رأيت كل شيء من البداية. كنت واقفًا بالباب لأن المقاعد كانت مشغولة. كنت أنتظر أن يسلمني الموظف أوراقي بعد اعتمادها وختمها بالنسر الذي لا يطير، النسر الذي لا ينكسر قيده محبوسًا في

خاتم الدولة. كنت أنتظر من هذا الموظف المتعالي، والذي يلعق أحذية رؤسائه، الذين يلعقون أحذية رؤسائهم، الذين يلعقون أحذية رؤسائهم حتى يوم الدين، أنتظر أن يعطيني تلك الورقة وعليها الخاتم الرسمي كي أقدمها للمركز الصحفي للمؤتمر ليعلموا أنني صحفي. ذهبت لأحضر المؤتمر فقالوا لي إني يجب أن أذهب للقنصلية وآتيهم بخطاب اعتماد كي أتمكن من المشاركة. أنا أصغر وأشهر رئيس تحرير في مصر والعالم العربي أنتظر من هذا الموظف الذي لا قيمة له أن يثبت لهم أنني صحفي لأن كل ما كتبت وكل ما أكتب وكل ما عانيته وأعانيه لا قيمة له عندهم حتى يوقع ذلك الباشكاتب بخاتم الدولة على ورقة. كنت أنتظر، حين رأيت ذلك الرجل الجالس في الصالون. عرفته حين رأيته، هو هو بمنظره الغريب وهيئته المضطربة. كان يحمل حقيبة منظرها من منظره وكان شاحب اللون وينظر للساعة في قلق. رأيته وعندما رآني هب واقفًا وتقدم إلى منتصف صالة الانتظار وشرع في الصلاة. كنت أعرفه وأدركت فورا أن كارثة على وشك الحدوث. فتحت فمي لأتكلم ولكن أحدًا لم يسمعني ومن سمعني لم يفهمني ومن فهمني لم يصدقني ومن صدقني تركني وترك البلد كلها وهاجر.

رأيت قاتلي، لكن رجل الأمن الجالس بجوار الباب قال لي ماذا أفعل إنه يصلي. قال إنه لا يستطيع أن يفعل شيئا لأن القاتل يصلي. لكنه عندما ينتهي من الصلاة سنكون جميعا قد ذهبنا للأبد، واحتد النقاش وعلت الأصوات وجاء موظفون وعمال البوفيه والحراسة وكانوا جميعا يصرخون في وجهي ويسحبونني من ذراعي وينعتونني بقلة الإيمان والأدب والصبر لأني أشرت إلى هذا الباكستاني الذي بدأ يصلي فجأة في العاشرة صباحا في صالة انتظار القنصلية. قلت لهم إنه إرهابي وإني أعرفه. الرجل يصلي ورجل الأمن واقف بينه وبيني ينظر إلي أنا بالريبة ويعطي الإرهابي ظهره يحميه. طلب رجل الأمن مني أنا الهدوء والصمت لأننا في مكان محترم، وكان الرجل ساجدًا على الأرض وجسده ينتفض من التأثر وأنا أصرخ في وجه رجل الأمن عندما أكمل عقرب الدقائق دورته وتمت الساعة العاشرة. تخلخل الهواء قليلًا وماعت الأشياء في وقفتها ثم تبعثرت وتطايرت وارتطمت وتخلعت وانهارت وانفجرت وملأ الغبار الهواء. كان رجل الأمن ما زال يشير إلي بإصبعه مهددًا وكان الباكستاني ما زال ساجدًا عندما رأيتهما ينفجران معا وجسديهما يتبعثران قطعًا في هواء مصطبغ بالدم. رأيت رأس رجل الأمن تشرع في الاستدارة للخلف في اللحظة الأخيرة قبل أن تختفي مع بقية الأشياء المتناثرة. ورأيت الأرض وهي تهوي وتبتلع المكاتب والسجاد والصالون والجالسين الذين كانوا ينظرون إلينا في أدب. رأيت الجدران وهي تهوي وقطع الخرسانة المنخلعة من السقف تسقط

فوق الجميع وتردمهم في هوة الأرض والتراب يصعد ويحتل الهواء كله. رأيت باب العميد أحمد كمال ينفتح ووجهه يظهر لوهلة قبل أن يطير مع بقية الجدران في كل الاتجاهات وجدران حجرته تنهار والباب ينفجر في الهواء. رأيت جدران القنصلية وهي تتقوض وضوء الشارع الباهر يدخل وينعكس على الغبار العالق في الهواء فيعشي العيون أكثر. ورأيت قطعة السقف هذه تهوي عليّ بما فوقها وتحجب الرؤية عني. رأيت أسمنت السقف قابعًا أمام وجهي وممتدًا من حولي لا يتزحزح ولا يهتز. رأيت أسمنت السقف يحشر ذراعي في الجدار من تحتي ومن حولي ويهصرني. رأيت التراب وهو يملأ عيني.

رأيت كل شيء، ووجعتني عيناي مما رأيت.

* * *

لا شيء يزحزح هذا الحزن البغيض عنّي. ثلاثون عاما وأنا أفر منه وهو يلاحقني أينما كنت. ثلاثون عاما وهو يحتل صدري ويخنقني من رقبتي. نجحت وتألقت وابتسمت وأحببت وتزوجت وطلقت. خنت وخانوني، حاربت وانتصرت وانهزمت وانكسرت وعدت وانتصرت وسافرت ورجعت وصعدت وهبطت واغتنيت وأفلست ورأيت الناس والدنيا من كل زاوية وركن، وفي كل ذلك لم يفارقني الحزن يومًا واحدًا.

منذ دخل القطار بي القاهرة، منذ تركت أمي وآخر حقول بلدتنا الصغيرة وعبرت النيل على كوبري بنها الحديد البارد وجئت لعشش الصفيح والزاوية الحمراء وشبرا الخيمة ومحطة رمسيس. منذ وضعت قدمي لأول مرة على رصيف محطة هذه المدينة المفترسة وحملت حقيبتي على كتفي وواجهت ضوء الشمس الساطع وأنا خارج من باب المحطة أبحث عن الأتوبيس. منذ انحشرت في أتوبيس ١٥ إلى بين السرايات وانحشر الزحام والتراب والدخان والعرق في نفسي. منذ خطوت خطواتي الأولى المترددة في ساحة كلية الإعلام. منذ وطأت قدماي المدينة الجامعية الصفراء القلب والجدران، وصارت عيناي بلا فائدة في ظلمة الممر الطويل المؤدي لغرفتي والمودي بشجاعتي وثباتي. منذ تعثرت وأنا أبحث يائسًا عن فردة الشبشب وعن النظارة وأنا أنتفض من الفراش في نصف الليل من الكابوس الذي يهزني. منذ أدركت وأنا جالس في دورة المياه أن الصنبور انكسر وأن المياه قد ذهبت من المبنى بغير رجعة. منذ انقطع نفسي وأنا أجري على رصيف المحطة محاولا عبثا اللحاق بآخر عربات قطار الليل الأخير للمنصورة. منذ بكيت بحرقة في ليل غرفتي الموحش بعد عودتي من المطار مودعا أبي المسافر لليمن السعيد الذي أتعس أمي وأبكاها ليالي لم

أعد أعدها. منذ نشب اليأس أظافره في قلبي ومنى تجمع أشياءها من على المنضدة الممتدة بيني وبينها وتمضي وفي يدها ابنتي. منذ ذهولي الأول أمام مدير التحرير وهو يبيع ضميره لرئيس التحرير كي يظل مديرًا. منذ شعرت بالغربة لأول مرة وأنا جالس مع إخوتي. منذ مات يحيي إبراهيم من التعذيب في أمن الدولة. منذ قال لي ناصر الخضري إنه مسافر إلى غير رجعة وإنه لا فائدة. منذ زمن طويل، أطول مما ينبغي وهذا الحزن البغيض يطبق على صدري وينزع طعم الأشياء من الأشياء.

صار الحزن جدارًا من الزجاج السميك بين قلبي والدنيا، أرى من خلاله وأسمع لكني لا أشعر، لا بالفرح ولا بالألم ولا بالغم ولا بالنصر ولا بالكسر. صار قلبي مغلفا بالزجاج، لا يشعر. لكن كلما رماه أحد بحجر انكسر الزجاج وانغرس في قلبي أكثر. قالوا اكتب أكثر، أخرج ما في نفسك كيلا تسقط فريسة للاكتئاب، فكتبت. كم من الكتب كتبت؟ ومن المقالات والأعمدة والقصص؟ لم أعد أذكر، كتبت كل ما في نفسي وأكثر. وحين سألني صحفي شاب لماذا تكتب، قلت أكتب كيلا أذهب للطبيب النفسي، ثم ذهبت. وحين حكيت للطبيب كل ما رأيت طلب مني ألا أعود إليه لأني أصيبه بالاكتئاب.

صعدت. حين صار قلبي من زجاج، وحين أدركت أن الحزن لن يذوب وأن الزهق لن يرحل، حين فهمت وجرؤت، صعدت، بلا هدف غير أن أرى آخر الدرب. صرت أكثر من صحفي وكاتب، صرت مؤسسة كاملة، وزارة إعلام مستقلة. رأيت كل شيء من البداية، ووجعتني عيناي مما رأيت.

* * *

ما الذي أخرجني أنا من مدينتي الصغيرة الساكنة؟ ما الذي أخرجني من حديقة منزلنا الصغيرة وأبعد أشجار برتقالها عن مرآي؟ من الذي أبعدني عن أبي وأمي وإخوتي وأعمامي واجتماع العائلة على مائدة الإفطار أول أيام رمضان؟ لم تركت شوارع مدينتي ونيلها الهادئ وبناتها الناعسات وطرقها الصغيرة وترابها الحاني؟ لم هجرت شوارع أول أيام العيد المرشوشة بماء خفيف وأنا أمضي حذرًا بملابس العيد لمنزل خالتي كي تعطيني العيدية وأنا أتمنع كاذبًا؟ ما الذي انتزعني من بهجة فتح أول صفحة من لغز المغامرين الخمسة الذي اشتريته من المكتبة الوحيدة في شارعنا؟ لم تركت سطح منزلنا عند العصر؟ وماذا جنيت من هذا السفر؟ أين ذهب تختخ وعاطف ومحب ولوزة والمفتش سامي، وزنجر؟ وماذا كان اسمها تلك الفتاة الأخرى؟ صفاء أو سناء؟ نسيت.

ومساء بيتنا، بخار الماء الساخن يملأ الحمام ويدفئه قبل أن أخلع ملابسي، شوربة العدس التي تعدها أمي في الشتاء، المدفأة الصغيرة ذات الشمعتين المحاطتين بسلك أبيض متعرج يتوهج، كوب الشاي باللبن الذي ينتظر أن أنهي إفطاري لأشربه قبل الجري للمدرسة، قبلة أمي على خدي في الصباح بعد أن تنهي الصلاة وهي تحثني على المضي سريعا كيلا أتأخر على الطابور، دعاء الصباح في إذاعة الشرق الأوسط وأنا أهبط الدرج. أمي، حبيبتي يا أمي. لم تركت هذه الطمأنينة وألقيت بنفسي في هذه الصحراء القاحلة على اتساعها؟ لأي مجد؟ لأي منفى؟

لم يروا فيّ غير أشرف فهمي رئيس التحرير والكاتب اللامع، لم يروا خلف نظرتي أن مقلتيّ أصبحتا زجاجيتين كنظارتي، وأن قلبي صار وجعًا ينبض. كانوا يهددونني بالقتل لأني أسد عليهم الطريق، لأني الوحيد من أعدائهم الذي يمتلك ما يمتلكون: القدرة على جذب انتباه الناس وكسب ثقتهم واستمالتهم لما أقول ودفعهم للبعد عما كانوا يرونه صوابا، القدرة على غسيل المخ عن بعد وبالتدريج وفي هدوء. أرادوا أن يقتلوني لأني الوحيد من أعدائهم الذي يثق الناس به وبكلمته ويشترون جرائده ويقرؤونه ويتفقون معه حتى وإن قال ريان يا فجل. أرسلوا لي من يحذرني بأن مصيري إلى النار كالساحرات. وقال لي العميد أحمد كمال إنهم قبضوا على مجموعة من الإرهابيين وعثروا في أوراقهم على خطة لقتلي. وكنت لا أرد، ليس ترفعا ولكن من اليأس. فلو صبروا على لمت وحدي، من قبضة هذا الحزن على قلبي ومن زهقي من نفسي ومن شكواي، غير آسفًا على ما تركت خلفي.

لو صبروا عليَّ لمت وحدي من هذا الوجع الذي يعتصرني في الصباح حين أصحو فأجد اليوم هو هو اليوم الذي سبقه. أغسل نفس الوجه الذي غسلته بالأمس، أرتدي ملابسي الملقاة على الكنبة المجاورة لسريري وأفر سريعًا من هذا البيت الأجرد. أهبط إلى الشارع وألقي بنفسي فيه لعلي أختفي ولا أعثر عليّ ثانية، ألقي بنفسي في زحام المرور ثم في طابور السيارات الطويل بشارع الجلاء. ألقي بتحية الصباح المقررة على أمن المجلة وعامل المصعد، نفس الرائحة بالمصعد هي هي. الساعي على باب مكتبي والسكرتيرة والمكتب والأوراق، كل شيء بقية الأمس وإعادة له، ودخول الزملاء وحديث الصباح والإفطار والقهوة وسكرتير التحرير والمؤامرات الرخيصة والمؤامرات الثمينة، والمقالات المؤجلة والمقالات الجديدة (والله العظيم إنها هي هي ولا فرق بينها). ثم تبدأ المعجنة اليومية من خناق (لا يهم فعلًا) وهزار (لا يضحك فعلًا) وصدمات (شبه متوقعة) وخيبات

أمل (غير حقيقية تمامًا) وعشرات من أكواب القهوة والشاي تنسي الفرق بين طعمها، وصياح وتليفونات تدق وحوارات وصراعات مكتومة وعلنية وتعليقات ساخرة أو سخيفة أو ظريفة أو مشينة أو غير مفهومة، وعشرات من الزيارات والمجاملات والأيمان المغلظة والدعوات والابتسامات واللقاءات حول موائد الطعام والأحاديث في البارات والمقاهي، والعودة السريعة للمنزل الفارغ للقاء عاطفي الاسم مزدوج الوحدة، ثم الركض للمقهى أو البار أو المطعم أو الندوة أو الاجتماع أو النقابة، ثم تهدأ الضجة شيئًا فشيئًا بعد منتصف الليل، وعند الفجر أعود للشقة مجرجرًا ساقيّ وسيارتي في ظلمة شارع الجيزة وأمام حرم الجامعة الخاوي.

كل ذلك من خلف زجاج قلبي. كل ذلك أراه ولا أحسه. وقلبي ينبض بأقل ما يستطيع، أبطأ ما يستطيع، وأهدأ ما يستطيع، كيلا تنفذ فيه قطع الزجاج المحطمة فوقه. يود لو يتوقف تمامًا، ليس لأنه لا يحب الحياة، لكن ليوقف الألم ويستريح. لكنه لا يتوقف، ولا يستريح.

* * *

عندما استيقظت استغربت أني قد نمت فعلا. كانت منى تنظر لي بحنان بالغ ورأسي مستند لساقها وأصوات عصافير تأتي من الأشجار المحيطة بنا. ابتسمت غير مصدق. أنا أحب، ونائم على حجر حبيبتي في القناطر الخيرية، كأنني أحقق أمنية خفية، كأني أشهد العالم أني كبرت، أني صرت رجلًا وصرت أفعل ما يفعله الرجال في الأفلام وفي حكايات الأصدقاء. غلبني شعوري بالتحقق والنصر حتى طغى على شعوري بساقها تحت رأسي أو بنظرتها الحانية على وجهي. أنا القادم من المنصورة غزوت القاهرة واستقررت في قلبها. حفرت لنفسي مكانًا وفزت به. أيكون هذا هو الحب؟ هذا التحقق الجميل والشعور بالامتلاء؟ شعورك أن لك أحدًا، لك أنت، وحدك. حضن يفيض حنانه ويغمرك، يثيرك ويشبعك، كأنها ماء يروي أرضًا تحجرت من شدة عطشها. وضعت يدها على جبيني فابتسمت.

ـ إنت رحت فين؟

ـ فيكي.

ـ يا بكاش!

ـ والله فيكي.

ـ فيّه في إيه؟

ـ في إن ده أجمل شعور في الدنيا.

ـ ربنا يخليك ليّه.

ما الذي ذكرني بمنى الآن؟ في هذه الحفرة؟ ربنا يخليك ليّه، كانت هذه هي كلمتها المعتادة، ولكن ربنا لم يستجب لها، برغم تكرار الدعاء لدرجة الملل. لك الله يا منى، ترى كيف أصبحت الآن، من داخلك؟ وهل ما زلت ناقمة عليّ؟ خمس سنوات كل ما قضيناه سويًا، خمس سنوات فقط منذ ابتسمت لي ووافقت على الخروج معي حتى جذبت حقيبتها من على المنضدة وغادرت البيت قبل طلاقنا. خمس سنوات فقط وزواج وطفلة وطلاق، كم مر على ذلك؟ عشرون سنة؟ تزوجتها عندما كنت سكرتيرًا للتحرير، ورزقنا بطفلة ـ آية ـ بعد عشرة أشهر بالتمام والكمال من الزواج (كانت أمي شديدة الفخر بذلك بين أقاربنا في البلد). ثم بدأت الأمور في التدهور سريعا بعد مولد آية. كان زواجا كئيبا خانقا، كنت أموت تحت وطأة تفاصيلها التي لا تنتهي. وعندما بلغت ابنتنا الثالثة من عمرها، تم الطلاق، ويومها جاء هذا الحزن الغامض وحط على قلبي.

* * *

وأين ذهب أبي؟ أين يده الواثقة لترفع هذا الجدار الخرساني عن صدري؟ حزن الخرسانة المسلحة بالحديد وتفاصيل الأسمنت المطعم بالزلط والرمل يسدان الأفق أمامي ويمنعان ذراعي من الحركة. لم أعد أشعر بذراعي. ولكني أرى وميض إشارات سيارات الإسعاف والشرطة التي لا بد وأنها تحيط بالقنصلية. أين أنت لتنفض هذا الجدار وهذا المكتب الضخم عني وتمد يدك لتنتشلني وتأخذني في حضنك الهادئ؟ أين أنت لتربت على كتفي بابتسامتك الوقورة دائما وشاربك المهذب دائما ونظارتك المثبتة دائما على عينيك؟ لماذا لم تأت لتعيدني للبيت كي أستحم سريعا قبل موعد الصلاة؟ تأخذني من عند الحلاق وتمضي بي في الشارع الطويل للبيت وأنت تقص عليّ قصة سيدنا يوسف وإخوته، ثم أذهب معك بعد الحمام للجامع الكبير لنسمع الخطبة وأنا لا أفهم منها شيئًا، وأظل أرقب النقوش على سقف المسجد في انتظار أن ينتهي كل ذلك ونذهب للغداء، وأتوه في النقوش والزخارف والسجاد والمنبر وألوان جبة وقفطان الخطيب ذي الرهبة. نقف في صف واحد ويدك تزحزحني كي أدخل في الصف وهم طوال القامة من حولي وصوت الخطيب يذكرنا بتسوية الصفوف التي

هي من تمام الصلاة وأن الله لا ينظر للصف الأعوج فأبذل جهدًا مضاعفًا في محاذاة نفسي كي ينظر الله لصفنا فتوقفني يدك عن الحركة إذ بدأت الصلاة. ونظل نقوم ونقعد وننحني ونقوم وأنا أخطئ دائما وأقوم فأجد نفسي وحيدًا وقامات كل الرجال منحنية ناحية الأرض فأخجل من نفسي والجأ إليك أحتمي بكتفك من الخطأ، وأظل أتأخر قليلًا لأتبع حركاتك فلا أخطئ ثانية. ثم فجأة أرى وجهك في وجهي واستكانة تسوده وابتسامة حانية تطل من عينيك وتلمس ثنايا قلبي، وتقول لي حرمًا.

أتبع خطاك. أنا ابنك يا أبي أتبع خطاك في الزحام وأبحث عن حذائي في الأحذية التي بعثرها المصلون على سلم الجامع ونجده عند أول السلم وأنت تهز رأسك مبتسمًا ومتعجبًا من عجلة المتعجلين. ونمر على بائع الفاكهة أمام الجامع تحت العمارة التي تسكن بها البنت ذات العيون الزرقاء التي أراها كل يوم في طريقها للمدرسة والتي لم أكن أعرف اسمها ولكني قررت أني أحبها وأني لن أعيش بدونها. وأظل أنظر للعمارة لعلي أراها، أنظر للشبابيك الخضراء الحديثة الطلاء، وتشدني ونحمل الأكياس للبيت سويا وأشعر أني رجل وأني كبير وأنا أدخل البيت بالكيس وأنت تحكي لأمي ولأخواتي البنات عن الجامع والخطبة وأشياء أخرى لا أدري أين حدثت وأخواتي ينظرن إلي بحسد وإجلال لأني شاركت في هذه المغامرات الكبيرة.

أين أنت بحلتك العسكرية الصوف، وأنا أسرق الكاب الميري وأضعه على رأسي ثم تقبض عليّ ضاحكا وتقول لا تتعجل قدرك! أين أنت الآن وأنا هنا مصلوب بين جدار هذا المبنى وسقفه المنهار! أين سقطت وبأي طلقة؟ وأين وُوريت جثتك؟ أخذت صلاتك وبراءتك وبندقيتك وطاقيتك الصوف وذهبت لهذا البلد البعيد وظللت أنتظرك. ظللت أنتظرك طيلة هذه السنين وأتظاهر بأني لا أنتظر، أتظاهر بأني كبير وأعرف وأني كبير وأقدِّر وأفهم. لكني كنت دائما أنتظر. أيها الغائب دومًا: ألم تستطع أن تعود ولو مرة؟ أكان الموت واجبًا عليك أنت في هذا الزحام؟ ألم تستطع أن تختبئ؟ أو أن تصوب بندقيتك إليهم قبلهم؟ لعلك أخطأت التصويب، لعلك كنت نائمًا، أو كنت تنظر للجهة الأخرى، أو لعلك كنت تقاتل ولكن هاجمتك الطائرات. ولعلك اقتحمت النار وسعيت للموت طلبًا للشهادة. وفيم فكرت يا أبي ـ إن كنت قد فكرت ـ ساعتها؟ هل خطرت على بالك، ولو للحظة؟

* * *

رأيت كل شيء، وسئمت مما رأيت ومن الشكوى.

سئمت من نفسي ومن مللي ومن شكواي ومن مثاليتي الزائدة. سئمت دور الضحية الذي تقمصني. صحوت ذات يوم وأنا أشعر بهذا الملل يجتاحني، ارتديت ملابسي في عجالة وخرجت وأنا مصّر على التقدم للأمام. تملكتني الرغبة في التنفيذ، في عمل شيء بدلًا من الشكوى. يومها قررت أني سأصبح رئيسًا للتحرير، لنفس المجلة التي منعوني من النشر فيها. لن أصبح الرجل الثاني ولا الثالث بعد اليوم. لقد جربت من قبل، وكنت أصغر سكرتير تحرير ثم أصغر مدير تحرير في تاريخ المجلة، ولكن هذا العمل جعلني أكثر تعاسة بما فتحه عليّ من رؤى: القيود الحقيقية والنفاق وتدني المستوى. وتوالت مشاعر الصدمة ثم التعاسة ثم غرقت في اليأس. ثم وقفت يومًا في غرفة نومي وصرخت من الملل من كل هذا الطنين: كفاية.

بدلًا من الشكوى من غياب الحرية، سأذهب لآخر الطريق لأوسع هامش الحرية. بدلًا من الشكوى من سوء المستوى وغياب الخيال وتدني الحرفية، سأصنع الجريدة بنفسي وأرفع المستوى. وبدلًا من التقزز من وضاعة المتملقين حولي، سأكون الرجل الأول وأتخلص من كل ذلك. بعد اليوم سأغيرها بيدي ليس بقلبي. وسأصبح الرجل الأول في المؤسسة وأعيد بناءها، أو سأرحل منها وأبني مؤسسة جديدة.

سأصعد، سأحمل حقيبتي على ظهري وأصعد إلى أعلى الجبال ولن أنظر خلفي ولا تحتي ولا بجواري: سأنظر للأمام فقط وأواصل الصعود إلى ما هو حق لي، إلى قمة المملكة التي أستحق أن أقودها أنا بدلا من هؤلاء القصّر الأغبياء، وسنرى أنها ستكون أعظم وأعدل وأجمل، سنرى ساعتها.

بلا كلمة شكوى واحدة، بدأت مشروعي الكبير، متجاهلًا إحساسي بفقدان المعنى وبالحزن. سأذهب لآخر الدرب، بالتخطيط والعمل والذكاء والهدف الواضح. أخطاء؟ بلا شك، ولكن كما يقول فرانك سيناترا، أقل من أن نتوقف عندها. لم تتغير طبيعة العمل، ولم تتغير نفوس الناس، ولم تخف القيود على حرية النشر، ولكني غيرت من نظرتي: راحت نظرة الحالم الشاعر الذي يرى القبح والقيد ويتألم له، وحلت محلها نظرة القناص الذي يرى الفرص من بين القيود، يرى الفتحات في الجدران، ويرى نصف أو ربع أو عشر الكوب الممتلئ. صعود مثل القنص، في صمت وابتسام وقوة وبلا مشاعر.

قالت منى (عندما التقينا مرة وأنا أعيد آية لبيتها) إني تغيرت، واعتبرت ذلك وسامًا على صدري وعلامة النجاح. قالت ليلى (عندما التقينا صدفة في افتتاح أحد المعارض) إني أصبحت في سلام داخلي أكبر.

وعرفت أن هذا هو المفتاح: وتعلمت أن أبتلع الغصة في حلقي وأكتم الألم في صدري، فصار أصدقائي يحبونني أكثر، وصارت النساء تنجذب لي أسرع، وقالت لي واحدة (في تبرم) إن لي سلطانًا غير مبرر على من حولي. وصار هذا السلطان مفتاحًا لأبواب كثيرة. لم أبع مبادئي يومًا، ولم أتراجع في موقف، ولم أنافق (وإن استخدمت قدراتي اللفظية لإعادة صياغة الموقف) بل وأخذت مواقف شديدة في أحيان كثيرة، لكن كل خطواتي كانت محسوبة، وكان الهدف دائم الوضوح.

صرت رئيسًا لتحرير نفس المجلة التي طردت منها. عدت منتصرًا لنفس الباب الذي خرجت منه. آخر مرة مررت فيها من هذا الباب كنت أحمل صناديقي المليئة بأوراقي وكتبي، وحيدًا لا يجسر على توديعي أحد من زملائي. عدت بعد أربع سنوات، وصفيت حساباتي كلها....كلها. لم أرفت أحدًا، ولم أنقل أحدًا، ولم أمنع أحدًا من الكتابة، ولكني أرهبت الجميع بقدرتي على فعل كل ذلك وبقدرتي على التسامح والبداية من جديد. المزج بين الترهيب والاحتواء دفع الجميع للاستسلام: لم يبق أحد خارج دائرة الطاعة، وصارت المؤسسة خاتمًا حول إصبعي، وبدأت الثورة الثقافية العظمى.

* * *

ذراعي تؤلمني عند كتفي. لماذا تأخر رجال الإسعاف كل هذا الوقت مع أني سمعت أصواتهم عقب الانفجار بحوالي عشرة دقائق فقط؟ وما زالت أضواء إشارات سياراتهم تضفي حمرتها المتقطعة على المكان. هل يمنعهم الجدار من رؤيتي؟ متى يزيحون هذا الجدار؟ ماذا يفعلون؟ أأنا من يترك هكذا تحت الجدار؟ أيجب أن ينقذوا الآخرين أولًا دائمًا؟ هل قدري أن يهملني الناس ويغمطونني حقي؟ أشعر بنفسي أضعف الآن، وأخشى أن يكون كتفي ينزف. المشكلة أني لا أستطيع حتى الالتفاف لأرى ما حدث لذراعي، كل ما أراه هو نهاية كتفي داخل الأسمنت وألم هادئ وخدر. هل أنزف؟ وإلى متى؟ وهل يرفعون هذا الجدار قبل أن أفقد الوعي؟ أو أموت؟ هل أموت؟ هل يمكن حقًا أن أموت هنا؟ أيمكن أن تكون النهاية بهذا العبث؟ أأعيش حياتي كلها تحت صخرة من حزن كي أموت تحت الأنقاض؟ وماذا حدث للآخرين؟ لقد رأيت الباكستاني المبتهل يتناثر قطعًا هو ورجل الأمن، ورأيت العميد أحمد لبرهة قبل الانفجار أو في نفس اللحظة التي انفجرت فيها الشحنة.

أحمد بك..... يا سيادة العميد..

....

يا جماعة يا للي هنا، آلو!

....

خسارة لو مات أحمد كمال، ربما يكون رجل الأمن الوحيد الذي ارتحت له، ربما هو إعجابي الخفي بجهاز المخابرات الذي أعطاني هذا الشعور، ربما هو افتقاد الأب والشعور بالحماية الرشيدة. أريد أن أرتاح قليلًا، أريد أن أغفو.

*** * ***

أجلستني إليزابيث على أريكة بنية اللون مريحة وجلست قبالتي. هي في منتصف الثلاثينات، مقبولة الشكل، لا جميلة ولا قبيحة ولكنها لا تخلو من جاذبية، وترتدي ثوبًا رماديًا بسيط الشكل. سألتني عن اسمي وعملي وعما إذا كانت المرة الأولى التي أزور فيها طبيبًا نفسيًا. قلت إنها المرة الثانية.

ـ المرة الأولى في القاهرة، لكن بعد ثلاث جلسات الدكتور أصابه اكتئاب وطلب مني التوقف عن زيارته، ثم هاجر من البلد كلها.

ضحكت واستكملت. أطلت ركبتاها البضتان عندما تحركت وانحسر الثوب قليلًا. سألتني عن عائلتي وطفولتي وأشياء كثيرة غير مترابطة. ثم انتهت الخمسون دقيقة. في الجلسة التالية كانت ترتدي بنطلونا وجاكت وقد أطلقت شعرها فبانت أحلى. حكيت لها عن طفولتي، عن المنصورة، وعن أبي الذي قتل في حرب اليمن، وأمي وبيتنا وأعمامي وإخوتي والفقر المقنّع الذي نشأت فيه. حكيت عن تفوقي في المدرسة ثم الجامعة، المجلة والتجنيد في الجيش والشئون المعنوية، نضال شعب بكامله لاسترداد كرامته. مغادرتي المجلة. حكيت عن زواجي وطفلتي التي لا أراها إلا لمامًا وعن علاقاتي النسائية التي لا تغني ولا تسمن من جوع عاطفي، عن شعوري بالاضطهاد والغبن وعن الضجر والسأم الذي لا يقهر، وعندما انتبهت للساعة أدركت أننا تجاوزنا الخمسين دقيقة بثلاثين دقيقة أخرى.

*** * ***

لماذا أواصل هذا؟ لماذا أواصل هذه الحياة؟ ولماذا أواصل الكتابة؟

لماذا لا أستسلم وأرتاح؟ أغمض عيني وأنام أو أتوقف عن التذكر وعن التفكير؟ ما الذي يدفعني لذلك وفي هذه الظروف؟ لماذا لا أقفز من شرفة بيتي في شارع الجيزة فوق هذا الميكروباص المزعج، فوق هذا الأتوبيس الأحمر (الصديق القديم)؟ لماذا لا أقفز من شرفة بيتي إلى النيل ـ فوق ورد النيل المتسخ الذي يثير أعصابي؟ لماذا لا أفر من هنا مع الذين فروا؟

لو صبروا عليّ لمت وحدي من الحزن ومن الوجع.

لكنهم لم يصبروا. أرسلوا لي رسائل «تنبهني» إلى أني «أسير في طريق الضلال»، وتتفنن في تصوير سوء مصيري، وتركوا عشرات الرسائل على جهاز الرد على المكالمات تسبني وتحذرني. ثم أرسلوا اثنين من العميان كي يقتلاني. ركنت سيارتي كالمعتاد أمام المؤسسة وأغلقت الباب متجهًا للمدخل عندما سمعت صوت الرصاص. لم أنتبه في البداية. الحقيقة أني لم أكن أعرف صوت الرصاص (لم أسمعه سوى في الأفلام وفي الأفراح وهي مليئة بشتى أنواع الضجيج). فرقعات متتالية وكأنها إطارات سيارات تنفجر الواحدة تلو الأخرى. نظرت حولي في استغراب باحثًا عن مصدر الصوت عندما رأيت الرجلين ورشاشيهما الآليين وكأن ضوءا يخرج منهما، ساعتها فقط فهمت ما يحدث (وإن كان جزء مني لم يصدق). هي لحظة، أقل من ثانية، صمت فيها شارع الجلاء كله واختفى الناس سوى هذين المعتوهين ورجلين آخرين كانا فيما يبدو يركضان نحوي. سقط أحدهما على الأرض أمامي والدم ينفجر من أماكن متفرقة في جسمه بينما ارتمى الآخر فوقي وطرحني أرضًا ودفعني تحت السيارة وتدحرج معي. كنت مذهولًا وغير مستجمع لما يجري حولي. سمعت ضجة أخرى في الشارع وصوت امرأة تصرخ، استمرت الطلقات لثوان أخرى ويبدو أن الرصاص أصاب جسم السيارة فاهتزت قليلًا من فوقنا. ثم توقف صوت الرصاص، وسمعت دراجة نارية تنطلق. صمت عميق للحظتين ثم بدأت أصوات مختلفة في التجمع. كانت هناك جثتان في عرض الطريق. أرادوا قتلي فقتلوا اثنين آخرين وأخطئوني. أي عمى؟

ثم دفعوا داليا الشناوي (سامحها الله) فرفعت علي قضية احتساب واتهمتني بالردة وطلبت من المحكمة فصلي من رئاسة تحرير المجلة باعتباري كفرت وباعتبار المجلة مؤسسة عامة مملوكة للشعب (الافتراضان خطأ: لا أنا كافر ولا المجلة مملوكة للشعب). ثم أعلن القاضي تأييد الدعوي المرفوعة من الدكتورة داليا الشناوي ضد المدعو أشرف فهمي. آه يا أمي، تظاهرت أنها لم تعرف بالأمر ولم

تسمع به، ولكن أخي (الملازم حديث التخرج من الفنية العسكرية) قال إنها بكت طوال الليل. قال لها إن هذا مجرد حكم ابتدائي ولكن أمي لم تكن ترى سوى أن القاضي حكم بكفري، ولولا الأمومة.... لولا الأمومة لمت أنا.

من هذان اللذان ماتا بدلًا مني؟ هل كانا يعرفانني؟ هل كانا من قرائي؟ هل كانا يكرهانني؟ وماذا كانا يقولان لو علما أنهما سيموتان بدلًا مني؟ هنأني العميد أحمد كمال بنجاتي ووعدني بالقبض على الجناة. ماذا سأفعل بالجناة؟ وقال مدير تحرير المجلة إن الحادث سيرفع التوزيع إلى الضعف (هل كان يفضل لو أني مت ليرفع التوزيع ضعفين؟). وقبلتني سارة قبلة حانية وضمتني لصدرها حتى اختنقت. وقالت لي أمي أن أكف عن الكتابة لأني مش قدهم ولأنهم ما يعرفوش ربنا ولا يخشون أحدًا. وقال لي الدكتور نشأت (محاميّ الفاشل) إنه لا يصدق ما حدث، قلت ولا أنا. ولم أكن أصدق أني لم أمت أمام اثنين من المسلحين بالرشاشات الآلية، ولم أكن أصدق أن هذا الحزن العقيم لا يزال رابضًا على جدار قلبي.

* * *

ظلام دامس، أين ذهب ضوء الإسعاف وضجة رجال الإنقاذ؟ هل رحلوا، أم أنا الذي رحلت؟

* * *

بصيص من الضوء يدخل إلى أجفاني وأنا أجاهد لأغلقهما في هذا الصباح الشتائي. أكره الشتاء وأكره الصباح معًا ولولا إصرارها ما جئت إلى هنا. قرص الشمس يتوهج في عيني وأنا أغلق أجفاني

ـ تيجي مكاني؟

ـ هو في الحقيقة يا ريت نغير المكان كله!

قمنا من على هذا المقهى الباريسي المشهور ـ والذي ظللت سنين أجتهد في حفظ اسمه المعوج ـ وسرنا في الحي اللاتيني. لم أفهم سر إعجاب الناس بهذا الحي ذي الشوارع الضيقة المزدحمة التي تشبه حارات بلدتنا. وما عيب تلك الشوارع الفسيحة ذات الأشجار على الجانبين، ما عيب الشانزليزيه الجميل؟ ولكن لا، ليس موضة! سكتْ: «يا ما لسه حنشوف منكم يا أهل البندر!» كانت ما زالت تتكلم، وأفقت

على صوتي وأنا أرد عليها، كان الحديث فيما يبدو يدور حول التغيرات التي تطرأ على مصر. لم تكن قد زارت مصر منذ انتقلت للإقامة مع أمها الفرنسية. وأنا سعيد لأني في باريس لأول مرة ولأنها تطوعت للقيام بدور المرشدة السياحية. ولكني محبط بعض الشيء:

ـ أين مدينة النور والتقدم من هذه المدينة العادية الممتدة من حولي بلا مجد ولا إبهار؟ بمبانيها المنخفضة وسقوفها السوداء الكئيبة؟

ضحكت:

ـ هذه هي فكرتك أنت عن باريس، ولكن باريس الحقيقية كانت هكذا دائمًا. أنتم العرب تضخمون صورة الغرب في أذهانكم ثم تريدون من الحقيقة أن تبهركم أكثر من خيالكم.

التقيت بليلى في المؤتمر وتصادقنا بسرعة حول مصر وأخبارها وحول فرنسا والغربة والفن والصحافة والعمل والعودة، وحول مشكلتها الأزلية في التوفيق بين كونها مصرية وفرنسية في آن واحد والصراع الذي يعتمل في نفسها من جراء ذلك. حدثتني عن انجذابها لكل ما هو مصري عندما تقيم في باريس ولكل ما هو فرنسي عندما تقيم مع أبيها في مصر. ليلى ابنة وزير سابق وأحد كبار رجال الأعمال، وهي تسخر من هذا طيلة الوقت وتحدثني عن رأسمالية القطاع العام، وأنا أضحك مندهشًا. صحيح ألا أحد مرتاح! عندما انفصل والداها ظل أباها في مصر وعادت أمها، المناضلة اليسارية القديمة، إلى باريس بعد إحباطها من فشل التجربة في مصر، الزوجية والسياسية، وأصبحت ليلى الموزعة عاطفيًا موزعة أيضا جغرافيًا. قضينا اليوم كله سويا وعند الليل قادتني لفندقي وسلمت عليها مودعًا فاحتفظت بيدي بعض الوقت في يدها. ابتسَمت في حياء وتلعثمت فابتسمت ومضت. لم أنم ليلتها وأنا أفكر: هي تعلم أني متزوج، قلت لها إني متزوج، وتعلم أني هنا للمشاركة في مؤتمر لأيام ثم أعود ولا أرجع بعدها لباريس ربما أبدًا. ولم أعاكسها، والله لم أعاكسها، ليس أدبًا مني بل خيبة. ولكنها نظرت إلي وأطالت النظر وسلمت علي وأطالت السلام. كنت بريئًا فيما يتعلق بالنساء، واقتصرت مغامراتي حتى الآن على قراءة قصص إحسان عبد القدوس خلسة من مكتبة أبي وعلى رحلاتي مع منى للقناطر والتي أفضت لزواجي.

لم أنم تلك الليلة وأنا أفكر. أيمكن أن أكون قد غزوت هذه المصرية الباريسية ابنة الحسب والنسب؟ وماذا يجب أن أفعل الآن؟ ما هي الخطوة التالية؟ أمسك يدها مثلاً؟ أم أقبلها سريعًا؟ ولكن في أي

سياق: هل أدعوها للسينما؟ أو للرقص (لكني لا أعرف كيف أرقص)؟ أو للسباحة (كنا في الشتاء)؟ في اليوم التالي كانت على باب الفندق عند الصباح وأخذتني للإفطار.

ـ لقد قررت الاستيلاء عليك اليوم، سيفوتك الحديث المهم الذي سيقولونه في المؤتمر!

ـ.....

لم أعترض، طبعًا. قضينا اليوم معًا، وذهبنا للسينما (ولم أجرؤ على لمس يدها) وللغداء وللمتحف وللحدائق ولمرقص في الليل (وتظاهرت بأن الإرهاقٍ يمنعني من الرقص)، وعدنا لفندقي في المساء وسلمت عليها مودعًا حين مالت علي وقبلتني بسرعة ولوحت بيدها وابتعدت. وكأن ذلك أكثر الأشياء عادية، وكأن الصاعقة التي هبطت عليَّ لم تمس سواي.

ولم أنم تلك الليلة أيضًا.

ولم تظهر في اليوم التالي، ولم أمتلك الشجاعة الكافية للاتصال بها، لكني ظللت في الفندق طيلة المساء لعلها تأتي أو تتصل، ولم تأت أو تتصل. وكرهت نفسي وترددي وخيبتي مع النساء وظللت أتذكر أبطال إحسان عبد القدوس وجرأتهم ومعرفتهم وأشعر بنفسي تتضاءل (ولكني على الأقل نمت تلك الليلة).

ظهرت في الصباح، شديدة الإشراق وضّاءة. وبدأت بتأملها أكثر: رشيقة القوام أقرب للنحافة، شعرها طويل وناعم وبني اللون، عسلية العينين، ورقيقة، رقيقة جدا ولها غمازتان عندما تبتسم. ذهبنا في رحلة لجزيرة جبل سان ميشيل على مقربة من باريس. لكني كنت مستغرقًا في سحرها أكثر من القديس ميشيل وجبله، وعندما قال لنا الموظف المسئول بالفندق أننا لن يمكننا العودة لباريس في ذاك المساء بسبب سوء الأحوال الجوية وسنضطر للمبيت هناك غرقت في السحر أكثر. بطريقة ما، انتقل مصدر الإبهار من باريس إلى ليلى التي أخذت على عاتقها شرف الدفاع عن الجلال الفرنسي، وفي ظل القديس ميشيل وعلى بركته، محاطًا بهذا الجو الأسطوري، غرقت في السحر دون تفكير. يومين؟ بل ثلاثة، قضيتهم معها في هذا المكان الأخّاذ المحاط بالبحر من كل جانب، وعوضني برق المغامرة عن برد البحر في هذا الوقت من السنة، واحتملت ليلى سخافاتي وشكواي المستمرة (من الشمس، من البرد، من الطعام، من الجمال، من غياب

مصدر للشكوى) وبدا عليها حتى أنها تستمتع بهذه الشكوى. ولكني كنت أنظر في ساعتي وأعلم أن لدي طائرة ينبغي عليّ اللحاق بها، وأعضاء وفد ينبغي أن أبرر لهم غيابي وبقية جولة في بلدان أوربا الأخرى ثم زوجة تنتظرني في القاهرة وعمل ونهاية لهذا الحلم الرائع.

لكنها حملت حقيبتها وجاءت معي، أو بالأدق جاءت خلفي. على مدى شهر كامل وهذه المجنونة تحمل حقيبتها وتسافر أينما أسافر وتقيم أينما أقيم دون الظهور علانية معي ثم تأتي إليَّ متخفية بعد نهاية يوم العمل أو المؤتمر أو اللقاء أو الزيارة ونقضي بقية الوقت معًا. ومع اقتراب موعد عودتي للقاهرة بدأت هي في الاضطراب وبدأت أنا أشعر بالقلق. ولكني في النهاية نجحت، بما حباني به الله من قدرات لفظية، في إخراج مشهد النهاية في هدوء وود ورحلت عائدًا.

هل علمت منى؟ هل أخبرها أحد؟ أم إنها شعرت وحدها؟ قالت إني تغيرت. هل كنت قد تغيرت فعلًا أم هي التي تغيرت؟ كانت منى تزداد هدوءًا مع الوقت، وتقضي وقتًا أطول في أعمال المنزل أو الحديث عن الأقارب أو زيارتهم أو دفعي لتلقي زياراتهم. وبدأت فترات الصمت تمتد بيننا حتى صارت تغلب على فترات الحديث. ثم انتهينا بالإقلاع عن الخروج للغداء. وكانت محاولاتي لدمجها في شلة الأصدقاء والصديقات من الصحفيين والكتاب قد باءت بالفشل. وأصبح عليَّ توزيع وقتي بين البقاء معها أو مع أصدقائي وأقراني. هل كنت أقارنها سرا بليلى؟ نعم، في أعماق أعماق نفسي كنت أقارنها بها ولكني لم أعترف بذلك أبدا، ولا حتى لنفسي. كان الفتور ينمو بيننا، وكلما حاولنا دفعه كلما أظهر مدى تغلغله في حياتنا. ثم جاء الحمل الثاني ككارثة أخيرة. كنا ـ قبل الزواج ـ قد اتفقنا على تجنب الإنجاب لخمس سنوات (مثل كل الشباب المقبل على الزواج الذين شاهدناهم في الأفلام)، لكنها حملت سريعا، ولم أستطع الاعتراض في وجه الفرحة التي اعترتها وبهجة أمي وفخرها بابنها البكر. وأنجبت آية، وزاد التباعد. ثم جاء الحمل الثاني (كانت آية قد أكملت عامها الأول بالكاد) وقالت منى إن الحمل كان خطأً في الحساب، وقلت لها إننا يجب أن نوقف الحمل. صرخت في وجهي، وسحبت حقيبتها من على المنضدة الممتدة بيننا وجرت خارجة، وتحطم بيننا شيء لم ينصلح بعد ذلك.

شعرت منى بالإهانة، وجرحت. جرحت كثيرًا، أكثر مما ظننت أنها ستجرح، لكني وقتها لم أكن مستعدًا إطلاقًا لتلقي طفل آخر والتحول إلى أب كامل. وانصاعت لقراري الذي أصررت عليه، وكنا صامتين حين خرجنا من المستشفى بعد العملية، ولم نتحدث عن ذلك بيننا بعدها

أبدًا. ولكن الألم ما زال يعتصرني وأشعر بيد من حديد تخنقني من وسطي كلما فكرت في تلك الحادثة. كان سيصبح لي طفل، ولم يأت، لأني منعته. كانت هناك إمكانية، وأجهضتها. كان هذا هو القرار السليم في وقته، لم يكن أمامي حل آخر، لكني ما زلت حزينا وآسفًا. سيقول البعض ـ وسأقول معهم ـ إن الإمكانية موجودة دائمًا وإن وقفها في مراحلها الأولى لا يختلف كثيرًا عن منعها. ذلك كلام منطقي، ولكن الكلام شيء، والذهاب للمستشفي وبطن امرأتك يحمل نطفة جنين ثم الخروج منها وبطنها خاوية شيء آخر تمامًا.

في العام التالي كان الفتور قد تحول إلى صمت مدبب، يجرحنا كلما التقينا. وكنت قد انقطعت عن ليلي لشهور في محاولة لإنقاذ الموقف مع منى. ثم جاءت ليلى للقاهرة وأقامت بها عدة شهور تفتت خلالها ما بقي من روابط بيني وبين منى. وفي نهاية العام كانت النهاية واضحة لكلينا فافترقنا بلا ضجة. ولم يكن ذلك مفاجأة لي، فقد بدا الطلاق حتميًا منذ العام الأول تقريبًا، المفاجأة الحقيقية أني لم أحتمل ليلى بعد ذلك كثيرًا. كانت رقتها الزائدة مع الناس مبعث توتر دائم، وكان انطلاقها مثيرًا لأعصابي وكذلك اعتيادها الأرستقراطي على الأناقة والفخامة والكمال. وبدت لي أفكارها وثوريتها وثقافتها مبالغًا في تعقدها ولا تخلو من تحذلق (في حين كانت هي تتهمني بالشعبوية ـ وكانت تقولها بالفرنسية، ولست واثقًا أني أفهم ما تعنيه هذه الكلمة). كانت الغربة التي تستقر بيني وبينها تدفعني للحنين سرا إلى منى، مما كان يزيد من توتري. وبعد ستة شهور بالضبط من طلاقي لمنى، تركت ليلى وانتقلت للعيش في شقة صغيرة بالمنيل، وعادت ليلى إلى باريس.

بصيص من الضوء يدخل أجفاني وأنا أجاهد لأغلقها في هذا الصباح الشتائي. أكره الشتاء وأكره الصباح معًا ولولا إصرارها لما جئت إلى هنا. قرص الشمس يتوهج في عيني وأنا أغلق أجفاني.

ـ تيجي مكاني؟

ـ هو الحقيقة لو ممكن نغير المكان كله؟

هكذا بدأت المحادثة التي أفضت إلى انفصالنا. كنا جالسين في غرفتنا في فندق فلسطين بالإسكندرية. ما الذي يأتي بأحد إلى هنا في الشتاء غير الجنون. هكذا بدأت المناقشة (كم أكره المناقشات مع النساء). تناقشنا، وأعلنا اختلافنا، ثم عنّ لي الإمعان في بيان الخلاف، ثم تحدثنا عن الاختلاف بيننا، ولسبب غامض دفعني ذلك لمزيد من

التحدي: أنا كده، وكلام من هذا القبيل وكلام جر كلام ثم صمت ثم صوت الريح على البحر ولمعان الشمس في عيني وإحساس عام وغامر بالضيق وبأن كل ذلك غريب وسائر إلى نهايته، ثم دفعت الأمور للحافة ووقفت أتفرج عليها تهوي للقاع. رحلت هي وظللت وحدي في الغرفة قبل أن أجمع حاجياتي وأعود للقاهرة في سيارتي الصغيرة.

كم مرة فعلت هذا؟ كم امرأة تركت؟ كنت أعد في ذاكرتي النساء اللواتي عرفت، أكرر أسماءهن في ذهني، ثم صرت أكتب الأسماء على ورقة المطعم وأنا أنتظر الشاي، ثم بدأت أنسى بعضهن حتى توقفت عن العد. كان طلاقي لمنى وتركي لليلى نهاية لفكرة الاستقرار ذاتها، ومن يومها لم أنم جيدا ـ حتى هذه اللحظة. قالت لي سلوى إني غير قادر على الارتباط، وإني أحب حتى أتأكد من أني قد نلت الحب ثم أضجر ممن أمامي، وقالت فاطمة إني مريض نفسيًّا، وقالت داليا الشناوي إني زير نساء. سامحك الله يا دكتوره، من كان يصدق أن نصل لهذا في يوم من الأيام؟

* * *

كيف فصلت من عملي بالمجلة؟ القصة المتداولة تقول إني استقلت احتجاجًا على عدم نشر بقية مقالاتي المعارضة لزيارة السادات للقدس، ولكن الحقيقة أني تركت عملي بسبب سذاجتي المفرطة. زيارة السادات للقدس، المقالات، منع النشر، كل هذا كان الواجهة التي تخفي حركة كاملة من الصراعات التي رحت أنا ضحية ساذجة لها. السيد رئيس التحرير، الأستاذ قناوي كان «رجل الداخلية» في المؤسسة، في حين أن هناك آخرين كانوا «رجال الإعلام». بالطبع كانت شبكة التحالفات أعقد من ذلك، ولكن هذا هو المختصر المفيد. مدير التحرير، الأستاذ محمد عبد الواحد، كان رجل الإعلام الأول. عندما عينت أنا سكرتير تحرير بالمجلة تمت ترقية محمد عبد الواحد مديرًا للتحرير. كنت أظن وقتها أنه ترقى بالتملق والرياء وقبول ما لا يقبل. ولكن هذا الرياء كان مجرد طريقته في العمل وفي تجنب الصراعات الصغيرة. الحقيقة أنه ترقى في إطار صراع بين الداخلية والإعلام للسيطرة على المجلة، وكانت ترقيته تأكيدًا لنفوذ الإعلام في المجلة. وقد قبل الأستاذ قناوي ضغط الإعلام لأنه لم يلمس من الداخلية دعمًا كافيا للحيلولة دون تنفيذ رغبة الإعلام. كانت الداخلية معنية أكثر بالتوجه العام، بسيطرتها العامة على المجلة أكثر من توزيع الكعكة داخلها. وعندما عينت أنا سكرتيرًا للتحرير (أي فرحة اجتاحتني وقتذاك) لاحظت امتعاض محمد عبد الواحد رغم أنه هو أول من دربني وعلمني

ألف باء الواقع العملي للصحافة، وفسرت ذلك وقتها بأنه غيرة الأستاذ من تفوق تلميذه الجارف. لكن الواقع أن تعييني سكرتيرًا للتحرير كان يعني أني صرت محسوبًا على معسكر رئيس التحرير (وبالتالي معسكر الداخلية). وحين تم تعييني مديرًا للتحرير (وإعادة محمد عبد الواحد لمنصب سكرتير التحرير)، كان ذلك بمثابة إعلان سيطرة الداخلية الكامل على المجلة، دون أن أدري. صحيح أني كنت أعرف أن حلولي محل محمد عبد الواحد يشكل حطًا من شأنه أمام شاب هو في نهاية الأمر تلميذه، ولكنى لم أر أبعد من ذلك، لم أر دور الصراعات الخارجية ولم أدرك أبدًا أني صرت محسوبًا على الداخلية التي لم أتعامل معها في حياتي. كنت مؤمنًا أن الموهبة لا علاقة لها بالعمر وأن هناك صحافيين استثنائيين في موهبتهم ومكتوب لهم (أو عليهم) أن يلمعوا أكثر من كل من ساهم في تعليمهم مجتمعين. من منا يذكر أو حتى يعرف أساتذة التابعي أو هيكل أو مصطفى وعلي أمين أو أحمد بهاء الدين؟ كان هذا هو رد فعلي على كل من يثير موضوع حلولي محل أستاذي من قريب أو بعيد: ليس ذنبي أن الله منحني موهبة، ولن يكون ذنب القادم بعدي أن تكون موهبته أكبر مني. كان هذا كل تفكيري، ولم أكن أدري أن ترقيتي تعني إبعاد رجل الإعلام إلى هامش صنع القرار وتوطيد سلطة الأستاذ قناوي والداخلية. رأى الجميع القرار على أنه انقلاب للداخلية ضد الإعلام بالمجلة، كل هذا وأنا في الظلام أحسب الأمور بمعيار الكفاءة والموهبة.

ثم جاءت مقالتي الأولى ضد زيارة السادات للقدس. أذكر جيدًا أنها لم تعرض على رئيس التحرير وقتها، وأذكر أيضًا تعبير وجه محمد عبد الواحد عندما رآها. كان باعتباره سكرتير التحرير يجمع كل المقالات والمادة المرشحة للنشر ثم نجلس سويًا لنتفق على اختيارات، ثم أقوم أنا بمناقشة المادة كلها مع الأستاذ قناوي الذي نادرًا ما يدخل تعديلًا أو اثنين أو يراجع محمد في أمر أو اثنين. وبحكم دولاب العمل الأسبوعي والطابع التكراري للمجلة فإن المادة الثابتة (المقالات الأسبوعية، الأعمدة الثابتة) نادرًا ما تعرض على رئيس التحرير ونكتفي بمراجعتها أنا ومحمد عبد الواحد. أضاء وجه محمد عندما رأى مسودة المقال.

ـ إيه؟ عجبتك؟

ـ دي ممتازة.

ـ مش جريئة شوية؟

ـ جريئة طبعًا، إنت عايز تعارض وماتبقاش جريء؟

ـ يعني مش محتاجة تعديل؟

ـ تنزل زي ماهي. دي الحلقة الأولى من سلسله مش كده؟

ـ أيوه.

ـ على البركة.

وقد كان. اتصل رئيس التحرير فور أن رآها (كان العدد في السوق بالفعل) وهو يصرخ في التليفون متهمًا إياي بالجنون ومعلنًا عدم مسئوليته عما سيحدث لي إلى آخر ذلك. واستشاط غضبه أكثر عندما سألته إن كان ذلك يعني منع بقية السلسلة من النشر معتبرًا أن السؤال في حد ذاته دليل على غياب كامل للإحساس بالمسئولية. لم يكن الحديث معه مجديًا، لا في ذلك اليوم ولا في الأيام التي تلت. وظننت أنه مجرد جبن سياسي من رجل يحافظ على موقعه، والذي لم أعلمه وقتها أن ذلك كان توريطًا له مع الداخلية وطعنة في مصداقيته لدى الوزير شخصيًا. الذي حدث طبعًا أن الوزير أحرج أمام الرئيس الذي علق ساخرًا على مدى سيطرة الوزير على مجريات الأمور في البلد في حين كان وزير الإعلام يبتسم في هدوء المنتصر، ومن ثم عاد الوزير إلى مكتبه وصرخ في رجاله الذين أيقظوا الأستاذ قناوي من النوم وصرخوا فيه (لم يكن قناوي قد قرأ العدد بعد، مما زاد الطين بلة) الذي رفع السماعة بدوره وصرخ فيَّ.

كنت قد عزمت على الاستقالة من منصبي كمدير تحرير عندما دخلت مكتبي ووجدت محمد عبد الواحد جالسًا فيه وقد وضع أوراقي ومتعلقاتي الشخصية داخل كرتونة.

* * *

بصيص من الضوء يدخل إلى جفنيّ وأنا أجاهد لأغلقهما وهما لا ينغلقان، هل عاد عمال الإنقاذ أم هي هلاوس ما قبل الذهاب. أحس نفسي ضعيفًا ضعيفًا، وصغيرًا وضالًا ويتيمًا. أين أنت يا أبي، أين أنت؟ ثلاثون عامًا وأنا أسأل هذا السؤال، بلا مجيب.

* * *

أين هذا من الحلم الأول؟ متى فقدت الأمل في الحلم وقبلت الواقع؟ ما هي اللحظة الفاصلة بين أنا القديم، ذلك الحالم الساعي لتغيير العالم، وبين أنا الذي صرت؟ في أي يوم، في أي ساعة، في أي لحظة فهمت أن الحلم حلمًا وأن الواقع واقعًا؟ أكان ذلك أيام الجامعة، عندما ضربتنا قوات الشرطة بالهراوات وألقت بنا في السجن لأننا نطالب باستعادة كرامة بلدنا؟ أم عندما هاجر أعز أصدقائي علامة على اليأس؟ أم عندما علمت أن تلميذي النجيب وابني الروحي قد مات في الحبس؟ أم في دهاليز المجلة في سنة التدريب الأولى وأنا أرى القيم تتساقط الواحدة تلو الأخرى على يد أساتذتي والكتاب الذين كنت أحلم يومًا بالحديث إليهم؟ أم بعد ذلك، حين عدت للمجلة منتصرًا على أعدائي القدامى وصرت رئيسًا للتحرير ووجدت من الضروري استخدام نفس الأساليب التي كنت أحتقرها وأنا صغير؟ أم حين شعرت بالغربة عن إخوتي وأنا جالس معهم وأود الذهاب بعيدًا عنهم ولا يمنعني سوى الأدب وحسن التربية؟ أم حين اكتشفت أن أعمامي سرقوا ما ورثته أمي من أبي؟ أم حين أحسست لأول مرة ـ حين عدت بعد غياب طويل ـ أن بيتنا صغير ومتهالك وفقير وأن الرطوبة نشعت في الحمام وأسقطت الطلاء وأن حديقة أشجار البرتقال ليست سوى فسحة قذرة بها شجرتان ميتتان يكسو أوراقهما غبار قديم؟ أم عندما ماتت أمي، نبع الحنان الوحيد الذي كان لي؟

لا أدري في أي لحظة مات الحلم، لكني عرفت أنه قد مات حين جلست مع الرجل الذي قتل تلميذي وابني الروحي ـ يحيى إبراهيم، وشربت معه الشاي. العقيد سمير، الذي أصبح لواء، قابلني في شرفة الميريديان وتبادلنا الحديث المهذب وشددت على يده وجاملته بكلمتين دون أن تختلج في وجهي عضلة واحدة، دون أن أشعر أن في الأمر شيئًا غريبًا. نسيت؟ وكيف أنسى!

قال لي يحيى إبراهيم وهو على فراش الموت بالمستشفى:

«كنت جالسا في غرفة الحجز واضعا رأسي بين كفي، وكان الدمع يسيل من عيني مدرارا لا أستطيع وقفه، وكانت الدنيا ظلامًا أو شبه ظلام. لا أدري، فلم أكن أرى جيدا منذ كسر نظارتي. كانت أطياف أبي وأخوالي وأمي وأختي وأخي الصغير تدخل عليَّ الغرفة وتجالسني. كان أبي يقرعني لأني لم أسمع كلامه ولم أصدق أن هذه الصحبة ستعود عليَّ بالضرر، وكانت أمي تحضر لي طعامًا. وأختي تشكو لي موت وليدها الذي حز قلبها وأدمى قلبي، وأخي يسألني متى آخذه للقاهرة. كنت أنظر إليهم من حولي ولا أراهم ولا أرى غيرهم. فتح

الباب فانبلج ضوء لا أدري كنهه ولا مصدره، ودخل عليّ شبح شخص مترنح ثم انهارت بجواري كتلة بشرية ومستني فانتفضت. سمعت تنفسًا ثقيلا كأنه يخرج من بين رحى وجاء صوت أعرفه يناديني. كان هو، فخر الدين عيسى. التصقت به. كان مريضا، كأن به حمى أو شيء كهذا، وينتفض جسمه كله. وكان غزير العرق مبللا بكامله. حدثته فلم يرد عليّ، وكانت حشرجة أنفاسه تصك أذني. ناديت الحرس فلم أسمع ردًا، سألت فخر الدين فلم يرد عليّ، قمت إلى ما كان مصدر الضوء وتحسسته. هو الباب. خبطت عليه بيدي وقدمي ورأسي وصرخت. لا أحد يرد. عدت إلى فخر الدين، وطفقت هكذا: بين الباب وفخر الدين حتى الصباح، كان فخر الدين قد بردت حرارته، وسكنت حركته، وذهبت الحمى عنه، وذهب عني. راح، راح الاستثنائي، راح أروع من في حياتي وأهم ما فيها، راح ورحل عني وتركني أواجه هذا الحزن البغيض وحدي. ظللت أصرخ حتى فقدت الوعي وحين أفقت كان وجه العقيد السمج أول ما رأيت. استقبلني العقيد سمير بابتسامة واسعة، وحين سألته عن فخر الدين ادعى عدم معرفته به. كنت مرهقا ولا طاقة بي لهذا الهراء. صمت وغطيت وجهي بكفي، ألم في كتفي. صمتْ، ثم عرض عليّ ـ بصفاقة لا تصدق ـ أن أشتغل جاسوسًا للأمن، الأمن الذي قتل صديقي منذ ساعات. لم أستطع أن أمسك نفسي، قمت نصف قومه حتى صرت قريبا من وجهه المبتسم وبما تبقي فيّ من قوة بصقت على وجهه. لم يستغرق الأمر أكثر من ثانية واحدة، كان بقايا البصاق ينقط من على وجهه الآخذ في الاحمرار وابتسامته المجمدة ميتة ونظرته تتغير، تراجع وجهه قليلا، وعاد للمكتب حيث التقط منديلا ومسح به وجهه. نظر إليّ في هدوء ميت وضغط بإصبعه على جرس بجوار المكتب».

كان يحيى إبراهيم ابني الذي لم أنجبه، والوحيد المؤهل لخلافتي. مصنوعًا من نفس المادة، ولديه نفس الموهبة، ورأيت في رعايتي له عمل الخير الوحيد الخالص من أي غرض والذي أستطيع أن أكفر به عن مساوماتي العديدة. كان يحيى في المستشفى بعد القبض عليه في مظاهرات نظمها مع زملائه بالجامعة. وقمت بالاتصالات الضرورية للإفراج عنه، لكن النزيف الداخلي الناتج عن الضرب المبرح الذي تعرض له بقسم الشرطة كان قد بدأ، وتوفي بعدها بيومين.

عندما قابلت اللواء سمير في الميريديان بعدها بسنوات، كان يبتسم نفس الابتسامة التي كانت له عندما قابلته أثناء التحقيقات التي تلت وفاة يحيى، ولوجهه نفس السماجة. ذكرنا عرضًا الأيام الخوالي وعاتب كل منا الآخر من بعيد وكأنه يدافع عن موقفه دون رغبة حقيقية في

فتح الموضوع. كأننا نرسم خطًا حول الموضوع لنخرجه من الحديث، وقد كان، وتكلمنا في موضوعات كثيرة وتبادلنا معلومات هامة وأخرى أقل أهمية وتآمرنا قليلًا بتواطؤ غير معلن (حرضته على شخص ما في مجلس النقابة فأبدي استعدادًا «لبحث الموضوع» وطلب مني تخفيف التشهير بدولة عربية شقيقة فأخبرته بأننا «ربما» نبدأ حملة على الأدوية الفاسدة في الأسبوع القادم لأن الحملة الخاصة بهذه الدولة قد استنفذت «معظم» أغراضها). وفي غمرة الحديث نسيت أنه العقيد سمير الذي أشرف على تعذيب يحيى إبراهيم، وحين تذكرت ذلك وأنا في طريقي للمجلة عرفت أنني قد فقدت سذاجتي القديمة.

أظن أن هذه كانت اللحظة الفاصلة بين الحلم والواقع.

* * *

وضعت سلوى حقيبتها على الأريكة المواجهة للتليفزيون، سألتها وأنا ذاهب للمطبخ إن كانت تريد أن تشرب شيئا، فتساءلت بدلال عما إذا كان هناك ما يمكن شربه في هذا البيت الفوضوي، فقلت إن الفوضى أم الاختراع (لا أعلم بالضبط ما معنى ذلك) وعدت إليها بزجاجة بيرة أخذتها وهي تميل على المكتبة تتفحص عناوين الكتب. جلسنا نتحدث عن المجلة وعن الصحفيين وعن القاهرة والنيل والقضية الفلسطينية وتأرجح التأييد الشعبي للفلسطينيين وعن أهلها والسفر للخليج والجامعة والجماعات الإسلامية والزواج والسعادة وتحقق الذات وقمت لآتي لها ولي بزجاجتي بيرة أخريين وعندما عدت كانت منحنية على دولاب شرائط الموسيقي تنتقي شريطًا فأمسكت بها برقة من ظهرها وضممتها إليّ فانضمت والتفتت وتعانقنا ووضعت شفتاها على شفتي فقبلتها بعمق وأنا أفكر في ضبط توقيت حركة يدي على جسمها حتى لا أنفرها بحركة زائدة ولا أحبطها بلمسة ناقصة. أكاد أرى الحركة التالية منها ومني، سأضع يدي على وسطها ثم أمسك بظهرها وأضمها إليّ أكثر وأقبلها أعمق وأنا أحل لها مشبك حمالة صدرها، وهي تلقي بمزيد من حملها على ساعدي فنجلس على الأريكة أو الأرض وأنا أتحسس بقية جسمها شيئًا فشيئًا وأجردها من ملابسها شيئًا فشيئًا ثم أنزع ملابسي بسرعة بيد واحدة ويدي الأخرى فيها، ونظل هكذا حتى تذوب تمامًا في رغبتها فآتيها مطولا حتى نأتي سويًا وأشعر بهذا الاحتقار الهائل لي ولها ولما نفعله على أرض هذه الشقة التي تعمها الفوضى ثم نرتدي ملابسنا ونتبادل شبه حديث وأنا أوصلها لمكان ما متذرعًا بموعد ما ثم تصبح لقاءاتنا روتينية أكثر ونخلع ملابسنا في هدوء في البداية وندخل في الفراش وكل منا يعلم طريقه

أفضل حتى نصل إلى نفس اللحظة ونفس شعور الخواء وأوصلها ثانية وهكذا دواليك حتى أبدأ في التهرب منها وهي تحاول إعادتنا لسيرتنا الأولى ثم تفهم ألا فائدة فتذهب حانقة عليّ وتنضم لنقابة العشيقات السابقات. كنا ما زلنا نتبادل القبل وأنا أفك لها مشبك حمالة صدرها حين عادت للوراء لثانية وقالت:

ـ دي حاتكون أول وآخر مرة.

قلت بهدوء:

ـ طيب وليه؟ مفيش داعي: ياللا بينا.

أعدنا هندمة ملابسنا التي لم تتح لها الفرصة للخلع وخرجنا من البيت، تذرعت بموعد لدي وأوصلتها لبيتها وذهبت.

*** * ***

هناك صور لا تنمحي من الذاكرة أبدًا. مثل هذا الجدار الأسمنتي الذي يسد الدنيا (والموت) عني. مثل النظرة التي رأيتها في عيون حراس الأمن وعامل المصعد وأنا أتوجه لمكتبي في نوفمبر ١٩٧٧ حين وضعت قدمي على مدخل المجلة ووقف حراس الأمن يحيونني في ارتباك. رأيت هذه النظرة في عيونهم، ارتجت مقلتا عامل المصعد عندما التقت عينانا وهو ينظر إليّ خلسة، عمال البوفيه رمقوني بنفس النظرة وهم مصطفون في الردهة الضيقة المؤدية لمكتبي، عندما وضعت يدي على مقبض الباب فهمت فجأة معنى هذه النظرات لكن الأوان كان قد فات ووجدت نفسي بالفعل داخل المكتب أنظر إلى سكرتير التحرير جالسا مكاني وقد تكومت أوراقي في كرتونة.

*** * ***

ما زالت أضواء سيارات الإسعاف اللعينة تلمع من بعيد، وأصوات عمال الإنقاذ تأتي في لهجة سودانية لم أتصور من قبل أنني يمكن أن أحبها لهذه الدرجة. أهي فعلا أصوات وأضواء أم إن هذه ضجة عالم ما بعد الغيبوبة؟ أما زلت تحلم يا أشرف؟ يا تلميذ مدرسة المنصورة الثانوية النابغ؟ أما زلت تراود نفسك عن حزنها وتمنيها ببعض الأمل؟ ألم يضع الأمل كاملا وإلى الأبد؟ لا، ما زال قلبك اللعين ينبض تحت الجدار الزجاجي الصخري الذي يغلفه. لو أنه كف لكنت استرحت من الجروح ومن الحزن ومن الانتظار ومن الملل، لكنه ما زال يحرك خلفه في

طريق الزجاج المكسر تنغرس شظاياه في قدميك. لماذا لم تجدك تلك الرصاصات العمياء؟ ولماذا لا ينهار ذلك الجدار الأسمنت المعلق فوق رأسك؟

* * *

موسم الموت أتى.

وصلني خطابه في أول أكتوبر، وبعدها بأسبوع وصلني نبأ موته. بدأ الموسم الحزين وأخذ يطيح بما بقي من أخضر في حياتي. موت ناصر في نيويورك أتى كالجنازة الأخيرة، كسقوط آخر الأشجار. سافرت إلى نيويورك كأنما أذهب عكس الزمن، كي أوقفه. كأن فارق التوقيت سيوصلني إلى ناصر في محطة المترو فأجذبه من على الرصيف قبل سقوطه الأخير ومرور المترو على قلبي وقلبه. سأجذبه وأنتشل بقايا الحلم وبقايا العمر والأيام والصداقة القديمة. سأجذبه بعيدًا إلى كوب من الشاي في شرفة منزله بالمنصورة، إلى زجاجة بيرة في «الكاب دور» بوسط البلد، إلى تمشية طويلة في ليل القاهرة الموحش وإلى ضحكة خطفناها سويًا وإلى رواية قرأناها. ليحدث ما يحدث يا ناصر لكن ابق هنا ولا تذهب أبعد مما أنت. لتذهب السياسة والصحافة والحرية والوطن إلى حيث يذهبون ولكن ابق هنا، قليلًا، من أجلي، من أجل أمك. سأجذبه وأنتشله من براثن الغول الذي يحصد أرواحنا، سأمد يدي وأجذبه قبل مرور المترو الأخير. مددت يدي، لأرفع التابوت وهو يدخل بطن الطائرة الصامتة، والهواء يلفح وجوهنا في مطار كيندي المخصص للأحزان. دفعت التابوت داخل بطن الطائرة وظللت واقفًا لا أدري ماذا أفعل بنفسي. ظلت يدي قابضة على يد التابوت وظلت يد قابضة على قلبي تعصره.

لو صبروا عليّ لمت وحدي.

ماذا كنت ستقول يا أبي فيمن رماني بالكفر حين قلت إننا بشر وأن البشر سواسية؟ ماذا كنت ستقول في القاضي (رمز العدالة والميزان) الذي أصدر حكمًا بأنني مرتد حتى ولو قرأت الشهادتين على الملأ؟ أنا يا أبي، أنا الذي سقيته حب اللغة والقرآن والصوم، أنا الذي كنت تقضي الأمسيات تحفظه الآيات وتمتحنه في نحوها وصرفها، أنا الذي سقيته حب شجر الحديقة، ثمار الحقل وجمال الشارع النظيف المرشوش بالماء في الظهيرة، حب الجيران والمدينة والحياة، أنا يا أبي، ابن-ك، قرروا أنني مرتد وخارج. فعلت خيرا يا أبي حين ذهبت مبكرًا.

أخذتني أمي في حضنها. جاءت إلى بيتي بالقاهرة وأخذتني. حاول إخوتي منعها ولكن تلك السيدة القوية الذكية أدركت أن هذه هي اللحظة التي يجب أن تتدخل فيها وتنتشلني. أخذتني في حضنها. كنت طفلًا صغيرًا باكيًا ومنهزمًا ومستسلمًا وكانت دموعي تنهمر دون مقاومة وتملأ عينيّ وزجاج نظارتي والكون كله. لم أعد أر شيئًا ولم أعد أريد أن أرى شيئًا. أخذتني أمي في حضنها حتى نهاية العام. أخذتني وأغلقت الباب علي وأبقت الموت خارجًا. كانت دموعي تنساب مع المطر الشتوي وهي تحول بيني وبين صحفيي المجلة والراديو والتليفزيون والتليفون والجرائد. المطر على الزجاج في الخارج، وصمت طويل طويل. المطر، هذه الرحمة التي تنزل علينا من السماء لتغسلنا. يأتي صوته بعيدًا من الخارج وأنا ممددٌ على الأرض واضعًا رأسي بين يدي ملاك الرحمة الذي انتشلني. ثلاثة شهور وأنا أغيب وأعود بين أبي ويحيى إبراهيم وناصر والجثتين اللتين سقطتا بدلا مني في شارع الجلاء، أذهب وأعود إلى وجه أمي: عيناها الضيقتان السوداوان وشعرها المنساب وحنان يدها تربت على جبهتي. ثلاثة شهور وأنا أغطس وأطفو بين اليقظة والحلم والموت، كنت جرادة، وكنت أعوم على سطح النيل، وكنت آكل الورد وأقتلعه بأسناني وأفتته قطعا تطفو على تيارات الماء الصغيرة نحو الشاطئ، وكنت أغرق في النيل وأتشبث بالورد العالق على سطحه، وكنت أطفو وأجنح إلى الشاطئ.

* * *

جميلة سارة، أجمل امرأة عرفتها، رغم سمار بشرتها، ورغم نحافتها. جمال سارة ليس في جسمها (بالرغم من اعتقادها الشخصي في جماله غير المسبوق) وإنما في روحها. سيبدو ذلك مضحكا، في ضوء أن علاقتنا لا يمكن وصفها بأنها روحانية بأي حال من الأحوال. مع سارة اكتشفت أن جمال المرأة يكمن في روحها، في تعاملها مع الرجل ومع جسمها، في حركتها، في استجابتها وفي شعورها هي بالرجل وبنفسها. هذا هو بيت القصيد، أما الباقي فمحض ديكور. وأنا لا أذكر جسم سارة ولكن أذكر إحساسها، وعندما أغمض عيني أرى ضحكتها الماكرة البريئة، وأرى سعادتها الحقيقية عندما تكتشف في ثلاجتي قالبًا من الشكولاتة، وأرى نظرتها الطفولية الحاقدة على امرأة تسير في الشارع وترتدي ثوبًا جذابًا، وأرى انهماكها في مشاهدة قناة الأزياء ومجلاتها، وأرى وجهها وتعبيراته ونحن نتطارح الغرام، وأرى بشرتها أصفى ونحن نرتاح بعدها. سارة. ملخص للنساء كلهم. سارة الصغيرة، الصحفية بالمجلة، تبدو هادئة وطيعة ومنطوية، أكاد أضحك الآن عندما أفكر في أنني اعتقدت للحظة أنها منطوية. أعرفها عرضًا من صداقتها

القديمة لداليا الشناوي (لا أعرف ماذا يمكن لهاتين المرأتين الحديث عنه سويًا!)، وتحدثنا لأول مرة حديثا حقيقيًا حين أوصاني عليها صديق ما، وخرجت من مكتبي وأنا أحمد الله لأنني كنت متأكدًا أنني لا يمكن أن أقيم معها أي علاقة تتعدى المساعدة المهنية. لم أجدها جذابة بالمرة، مجرد سيدة مجتهدة شديدة الهدوء وسمراء ونحيفة ولا ينقصها سوى نظارة سميكة كي تكون واحدة من تلك الفتيات المجتهدات المتواجدات في كل فصل في كل مدرسة.

عادة، أرشح أي امرأة أقابلها لدور العشيقة حتى يثبت العكس، وهذه ليست غلطة النساء اللواتي أقابلهن بل مشكلتي أنا. فـأنا لم أصمم كي أعيش دون امرأة، دون مصدر للحنان والاحتواء والعاطفة. ثم يصيبني الملل سريعًا ويتملكني شعور لا إرادي بالاحتقار لنفسي ولها، أيًا كانت. ثم تحدث مشكلة أو أفتعل مشكلة ونترك بعضنا بعضًا، ثم أجد نفسي وحيدًا من جديد وفي حاجة لامرأة من جديد. وهكذا، فإن معدل الطلب على النساء في حالتي مرتفع، مما يجعلني دائم البحث عن ترشيحات جديدة.

بعد أن استبعدت سارة من قائمة المرشحات، توطدت علاقتنا المهنية ووجدتها موهوبة فعلًا، وبدأت أسند إليها أعمالًا هامة في قسم التحقيقات، وقد أنجزتها كلها ببراعة. ومع تقدمها المهني زالت الكلفة شيئا فشيئا وحلت محلها الألفة، وذات يوم وجدت نفسي أقبلها على شفتيها وهي تشدني إليها. كنا في منزلي وكنت قد أعددت لها القهوة وهي جالسة تحكي لي شيئًا عنها وعن شاب تركته منذ عشر سنين وأنا واقف خلف زجاج شرفتي أستمع إليها وأرقب النيل. قامت ووقفت بجانبي وعلقت على جمال النيل ثم التفتت إليّ، نظرت إلى نظرتها ووجدت نفسي أميل ناحيتها وهي تميل ناحيتي فقبلتها، هكذا، دون سبق إصرار أو ترصد. ثم تعانقنا، وفتحت طاقة لم تنغلق من وقتها.

* * *

أجلستني أمي قبالتها على مائدة الطعام بعد أن أخلت الغرفة من أخواتي البنات (كان أخي الصغير كالعادة غائبا بالجيش). ليل بيتنا ساكن. لملمت أطراف طرحتها البيضاء الشفافة ووضعت كوب الشاي أمامها وهي تبحث عن بدايات الكلام. تبدو متعبة، منهكة، مثل شخص سار أيامًا وليالي ووصل لتوه وسحب كرسيا ليجلس عليه ويرتاح. فكرت وأنا أنظر إليها: كيف يمكن أن يتركز الحنان في شخص واحد بهذا الشكل؟ هل يمكن أن يكون أحد هكذا؟ هل يولد البعض منا هكذا أم نصبحه؟ وفكرت في منى، كان لديها هذا الحنان نفسه. غريب،

يشعرني غيابها بالفقد والاضطراب والراحة في نفس الوقت! أفتقد وجودها الذي يشبه وجود أمي المطمئن، ولكني أشعر براحة عميقة لمجرد التفكير أنها ليست في حياتي. تنهدت أمي وواصلت حديثًا لم أكن أصغي إليه تمامًا حول البرد والشتاء والمطر وما يفعله شباب البلدة هذه الأيام لتنظيف الشوارع من برك الماء التي تجمعت. تحدثت عن شجرة البرتقال في الحديقة وعن عمي وأبنائه. كانت تتحدث عن أخواتي البنات وأزواجهن وأبنائهن فردًا فردا، وعندما أنهت القائمة (كنت أعلم أننا سنصل لهذه النقطة) سكتت لحظة ومسحت دمعة من على طرف عينها وبدأت الحديث عن أبي. الرجل الذي لم يكن له ند، الصول محمد فهمي ابن الحاج سيد فهمي شيخ البلد، قرة عين أبيه والبلدة كلها، كيف كانت تعد له بدله الميري الصيفية والشتوية والفارق في كيفية الغسيل والمكواة لكل واحدة، وشرائطه التي كان يضيفها لكتف البدلة الواحدة تلو الأخرى حتى صار صولًا. حكت عن أبي كل القصص التي أحفظها عن ظهر قلب منذ أكثر من أربعين سنة، وحكت عن غيابه الذي قصم ظهورنا جميعًا وجعلنا تحت رحمة العم المتحكم، عن وفاته التي طردت الفرح نهائيًا من البيت وأطفأت مصابيحه. ثم أنا، أملها ودرتها ورجل البيت، صاحب الصيت والنفوذ (كانت أمي تنبهر من جديد كل مرة ترى مدير الأمن أو المحافظ قادم لزيارتي أو متصلًا في التليفون).

ـ فيه إيه يا أمي؟

قالت أمي إني رجل البيت الباقي، سند أخواتي البنات وأخي الصغير، وسألتني بصراحة عن واجبي الأول هل هو حماية بيتي وأهلي أم الجري وراء الصحف والأفكار والسياسة والخناقات والرصاص الأعمى في شارع الجلاء. «وحتكسب إيه إذا لا قدر الله حصلك حاجة؟ لكن وجودك، حسك في الدنيا، هو سندنا كلنا». سألتني أمي لماذا أندفع خلف كلام الكتب والأفكار المجردة. كنا نشتري لك الكتب كي يتفتح عقلك وتتفوق في دراستك وتتقدم في حياتك، كنا نحب أن نراك الأول على مدرستك وأن نسمع المدرسين يمتدحون نبوغك، كنا نباهي بك الجيران. هل كنا نغزل كفنك بأيدينا؟ كان أبوك يشتري لك كتب التاريخ وسير الأنبياء والصحابة ليحسن من خلقك ويغرس فيك الرجولة والمثل العليا. لم يكن قصدنا يا بني أن تتقمص أحد هذه الأدوار ولا أن تتبع هذه المثل إلى النهاية، هذه مثل يا بني نحاول قدر استطاعتنا أن نحيا بها، ولكن الحياة عمرها ما كانت تطبيقًا للمثل، الحياة لها ضغوطها وكل إنسان له ظروف عليه أن يكيف أولوياته وسلوكه تبعًا لها. هذا ليس كلام من الكتب يا بني ولكنه من أم ربت ستة بأب غائب شهيد. هل

تريد أن تصبح شهيدًا مثل أبيك؟ وهل تفضل أباك شهيدًا غائبًا أم لو أنه كان قد وجد طريقة للعودة؟ لو أنه لم يتطوع للذهاب للحرب أصلًا؟ هل تريد أن تكرر مأساة أبيك وأن تعيش أمك وأخواتك هذه المصيبة مرتين؟

قلت شيئًا عن الواجب وعن الوطن ثم سكت أمام نظرتها، نظرة التي ولدت وأرضعت وربتت ونهرت وأطعمت وغسلت وعلمت، نظرة التي رأت الكثير من الحماقات وصبرت كي نتعلم، نظرة العارفة ببواطن الأمور والتي تفرق اللغط من الصواب بحس التجربة المباشر، تلك النظرة التي أراها منذ طفولتي المبكرة. آه من نظرة الأم تلك، هل يمكن الصمود أمامها؟ وما هو الوطن غير أمك وأمي وأخواتنا وبيوتنا وهدأة بالنا؟ صمت ونظرت إليها ثانية في عينيها. ربتت على ظهر يدي وقالت افعل ما تريد يا بني لكن لا تنس أن هذا البيت ليس له غيرك وهؤلاء البنات ليس لهن غيرك. صمتت أمي وبدأت تصب الشاي من جديد وكأنها تغلق الحديث في الموضوع وكنت أعلم أنها جردتني من حجتي ومن هشاشة موقفي. ستموت أمي بعدها، ستموت بعدها بيوم أو بسنة أو بعشرة، ولكنها ستكون قد زرعت جهاز إنذار في قلبي إلى الأبد.

* * *

نشأت غالب. لماذا لا أعترف أنه محام فاشل وأبحث عن آخر ليمثلني، ثم إنه خسر القضية التي كان يؤكد أنه سيكسبها. أستطيع أن أبرر له قراري بأن القاضي متدين وممكن يكون أخذ موقفًا منه لأنه مسيحي. الحقيقة أني نفسي وجدت الموقف غريبًا: محامي مسيحي يترافع عن صحفي مسلم متهم بالردة! ولكن نظرًا لأنه صديق منذ أيام الجامعة، ومحامي لسنوات طويلة فقد أحرجت أن أطلب منه التنحي عن هذه القضية بالذات، كما أن كونه أكبر محامي قضايا حقوق الإنسان في مصر يزيد من حجم الاهتمام الإعلامي الأجنبي بالقضية. قال لي ضاحكًا إننا بعون الله سنكسب، ولكنه بعون الله خسر القضية. هناك شيء غير مريح في نشأت، وكان يجب أن أتبع غريزتي منذ البداية. ربما أصوله الأجنبية، أمه هي الأجنبية، لكنها عاشت في مصر طول عمرها. يذكرني بالمسيحيين المصريين الذين تحدث عنهم سوليه في رواية «الطربوش»: هذا المزيج من السوريين واللبنانيين الذين ولدوا وعاشوا حياتهم كلها في مصر ولكن ظلوا يتذكرون بإعزاز أصولهم الشامية، محبي الفرنسية وأبناء مدرسة الجزويت والقلب المقدس، الذين يتعالون على الأقباط باعتبارهم فلاحين. نشأت ليس كذلك، نشأت قبطي. حتى أمه الأجنبية أرثوذكسية. لكن شيئًا ما فيه

يشبه تلك الأصول، رغم حرصه على التواضع وإنسانيته المفرطة أحيانًا. ربما هي إنسانيته تلك التي تضايقني، فهناك شيئًا مستفزًا في تبني الأغنياء لمواقف يسارية، وكأنهم وجدوا لديهم كل شيء ولم يكتفوا بكل ما عندهم فراحوا يأخذون الشيء الوحيد الذي يملكه الفقراء وهو كراهية الأغنياء، حتى الحقد الطبقي يسرقونه من الغلابة. إذا فشلت صفقتي مع الأمن سأفكر في مخرج يسمح لي بإعطاء القضية لشخص آخر.

* * *

رأيت كل شيء من البداية، وخلت أني فقدت الوعي من هول ما رأيت، ولكني لم أفقده. لم أفقد الوعي لحظة واحدة منذ وعيت على الدنيا. حتى وأنا نائم يظل جزء مني مستيقظًا، وتكون أحلامي واضحة ومكثفة حتى صار نومي يشبه اليقظة، كما لو كان حياة أخرى أحياها في الليل. وكأن العذاب الذي ألقاه في حياتي لا يكفيني فمددتها أثناء النوم. والآن، وهذا الجدار الخرساني يسد الطريق بيني وبين الموتى والجرحى وهذا الركام وهذا الحطام، الآن وهذا الجدار يمزق ذراعي ويخنق الدم فيها، الآن وأنا لا أرى الناس الذين أسمع أصواتهم وصوتي لا يخرج من حلقي، الآن خير ما أستطيع فعله هو أن أغيب عن الوعي، أن أسقط وأرفع الراية البيضاء وأستريح، ولو قليلا.

لكن رأسي وعقلي لا يهمدان ولا يكفان عن الحركة والعمل والاندفاع. وأسأل نفسي لماذا أعذب نفسي هكذا؟ لماذا يعذبني عقلي هكذا؟ لماذا لا يهدأ ولو للحظة كي أستريح؟ لحظة واحدة أغمض عيني فيها فأغيب عن العالم وشروره وأحلم بفتاة بسيطة وجميلة ترتدي ثوبًا أبيض وتركب مركبًا فضيًا في بحر أزرق وتحبني أنا فعلًا وتكون لي أنا. لكن وعيي المتيقظ لا يريد. لن يهدأ عقلي حتى تنفجر القنبلة فيه وتفتت خلاياه وتبعثرها في هذا الحطام.

أصوات سيارات الشرطة والإسعاف لم تلبث أن علت وملأت المكان، أستطيع أن أرى من مكاني وميض إشاراتها ينعكس في الركام وأسمع صيحات عمال الإنقاذ وهم يدخلون المبنى ثم وهم يبحثون في الحطام ويرفعون جرحى أو قتلى لا أدري، لكن صوتي كان محتبسا بداخلي وكأن هذا الجدار الخرساني قد أخرسه لحظة ما سقط فوقي. هل تكون هذه هي نهايتي ونهاية الحزن القابع على صدري ليل نهار؟ سقط الجدار فوقي، لكنه لم يزحزح صخرة الحزن عن قلبي.

* * *

داليا الشناوي تبكي وقبة الجامعة صامتة. داليا تبكي والشمس حارقة والضوء يعشي عيني. داليا تبكي وأنا أقاوم الضجر من هذه البنت الرقيقة المترفة ومشاكلها. داليا تبكي وتمسح دموعها بمنديلها وتحمر عيناها ثم تغرورقان وتحمران من جديد. داليا تبكي وتلم شعرها بيدها وتعقصه خلف رأسها وهي تبكي والرائح والغادي ينظر إلينا في ريبة. سمحت لنفسي بعد تردد أن أمسك بذراعها وسحبتها خارج الجامعة وأوقفت أول تاكسي عند الباب. حين وصلنا دفعت كل ما في جيبي للسائق المتبرم وسحبتها إلى مقعد حجري على شاطئ النيل. جلست وجلست بجوارها وهي تبكي. ورد النيل بدأ في الانتشار مرة أخرى، وداليا ما زالت تبكي.

ـ وبعدين يا داليا، خلاص بقى اجمدي!

ـ مش قادرة.

ـ طيب لما انت مش قادرة بتسيبيه ليه؟

ـ لأني لازم أسيبه.

ـ ليه بس!

ـ ليه يعني إيه يا أشرف؟ لأنه مسيحي.

ـ طيب ماياما مسيحيين ومسلمين اتجوزوا.

ـ بس هو مش حا يغير دينه.

ـ يا ستي بلاش يغيره، يعمل بس الورق وكل واحد واللي في قلبه.

ـ هو احنا حا نضحك على نفسنا؟ هو ده يبقى اسمه تغيير دين برضه؟

ـ من الناحية الرسمية آه.

ـ وقدام ربنا؟ ده يبقى جواز ده؟

ـ طيب عايزاه يعمل إيه؟ حانقنعه فجأه يسلم؟

ـ مش عارفة!

ـ خلاص سيبيه.

ـ مش قادرة، مش قادرة، فكرك أنا ماحاولتش؟ أنا عملت كل اللي أقدر عليه. دا انا باخد منوم وبانام ١٥ ساعة علشان أعدي اليوم، مجرد مابشوفه بافقد السيطرة على نفسي، باتنح واللي في إيدي يقع مني وبعدين ألاقي نفسي واقفة جنبه أكلمه.

ـ وهو؟

ـ نفس الحاله.

ـ طيب والحل؟

ـ مش عارفة، مش عارفة. قوللي انت أعمل إيه؟

وعادت داليا للبكاء، ماذا تريد أن أقول لها، الدنيا في حرب والناس بتموت على الجبهة وأنا في إجازة ٤٨ ساعة من أجل أن أسمع هذه المشكلة التي لا حل لها؟

ـ أنا بصراحة مش شايف حل غير إنكم تبعدوا عن بعض. واضح انه مش حا يغير عقيدته فجأة، وانتي مش حا تقبلي إنه يغير الديانة على الورق وبس. يبقي لازم تسيبوا بعض. مش انتي غنية؟ روحي كملي دراستك في باريس وانت تنسيه.

* * *

ماتت أمي في نهاية موسم الموت. وضعت بيدي جثمانها الملفوف في الأبيض داخل حفرة في الأرض وبدأ العمال يهيلون التراب علينا وأيد تنتشلني وأنا لا أكاد أرى سوى ذلك الأبيض الذي يهبط عليه التراب. أصوات عويل وصراخ تختلط بصوت المقرئ وطنين يملأ رأسي. أشباح وجوه وأيد تشد على يدي وتربت على كتفي وأناس يعانقونني. وفقد. فقد لا يعوض. فقد أعلم أنه لن يعوض. فراغ في روحي لن يملأه شيء.

* * *

عندما أطيح بي من المجلة في نوفمبر ١٩٧٧ أيدني العديد من زملائي وأصدقائي، تأييدًا لفظيًا بحتًا. لم يستقل أحد من منصبه احتجاجًا أو تضامنًا، لم تحتجب صحيفة عن الصدور ولو ليوم واحد، ولو لصفحة

واحدة، لم تصدر نقابة الصحفيين بيانًا يدين الاعتداء على حرية الكتابة، لم يحدث أي شيء من هذا القبيل، وكأن شيئًا لم يكن. صرت فجأة بلا عمل، لا أدري أين أذهب أو ماذا أفعل. ولكن روحي المعنوية ظلت مرتفعة. كنت بطلًا بشكل من الأشكال، واستمررت في الكتابة بشكل متقطع في عدد من المجلات والصحف العربية، كما كانت بعض الأحزاب والنقابات تستضيفني للحديث في ندواتها، وسافرت لعدد من العواصم العربية وإلى لندن وباريس للمشاركة في ندوات حول مهنة الصحافة ومخاطرها في العالم العربي. لكن العام التالي كان أصعب: خفتت هذه الدعوات وتباعدت مقالاتي المنشورة كما انتابني شعور بأن القارئ في مصر بدأ ينساني (وهو أسوأ ما قد يحدث لصحفي)، وبدأت أمي في الشكوى من قلة المال ومن تدهور الحال، ثم تلاشت الدعوات شيئًا فشيئًا، وبدأ ممثلو الصحف العربية في التملص مني والتحجج بشتى الأعذار لعدم نشر مقالاتي، وأصبح الإحساس المسيطر عليّ هو أن الجميع قد تخلى عني، وأن النتيجة الوحيدة لجرأتي وشجاعتي في قول الكلمة الحرة هي خسارتي للمنبر الذي كنت أعبّر من خلاله في حين أن كل من أيدني (لفظيًا) استمر في العمل والتقدم في المؤسسات القائمة. وكان هذا الإحساس يأكلني من الداخل.

في آخر العام قبلت عرضًا للعمل في إحدى المجلات العربية بلندن، ومن هنا كانت بداية العودة. صحوت من النوم في أول أيام العام الجديد، في شقتي الصغيرة جدًا بلندن، وكلي غضب من نفسي ومن استسلامي للشكوى ومن مثاليتي الزائدة. مللت من دور الضحية الذي تقمصني. ارتديت ملابسي في عجالة وخرجت وأنا مصرّ على أن أتقدم للأمام وأنجز. تملكتني الرغبة في التنفيذ، في عمل شيء ما بدلا من الحديث والشكوى. يومها قررت أن أصبح رئيسًا للتحرير، لنفس المجلة التي منعوني من النشر فيها وأنا مدير تحريرها ثم فصلوني منها. لن أصبح الرجل الثاني ولا الثالث بعد اليوم. لقد جربت ذلك من قبل، ولم تكن التجربة ناجحة. وقفت ذلك اليوم في غرفتي الصغيرة في لندن وصرخت من الملل: كفاية.

* * *

ثم جاءت سارة، جاءت بعد كل هؤلاء النساء ومع كل هؤلاء النساء وأثناء كل هؤلاء النساء. جاءت سارة وتسللت شيئًا فشيئًا داخلي رغم إنكاري أمام نفسي أن هذه العلاقة أكثر من مجرد علاقة. جاءت سارة بالصدفة، لأني نظرت إليها وقبلتها وقبلتني، ثم التقينا ثانية وتعانقنا ثم

التقينا ثالثًا وعاشرًا. ثم تطارحنا الغرام، بهدوء وبطء ودون تردد، ثم بدأنا ندمن بعضنا بعضًا. ثم تركت الأخريات من أجلها، ثم هاجمني ذلك الشعور القهري بالاحتقار لي ولها، وتركتها. لكنها عادت، ثم قابلت أخريات ونمت معهن وقلت لها، وبكت، ولكنها بقيت. قالت إنها تحبني، وقالت إنها ستغفر لي، وقالت إني عقابها الإلهي على ما اقترفت من ذنوب، وقالت إنها كذبت كثيرًا وخدعت كثيرًا وفعلت بالرجال ما فعلته أنا بالنساء. وقالت إن كل ذلك قد انتهى الآن وإني شفاؤها. واستمعت غير مصدق ولكني في أعماق أعماقي صدقتها. وإن كنت أمعنت في غيي، فإن ذلك كان اختبارًا مني لصدق وعدها لي باحتمال ظلمي لها وبأن تبقى مهما فعلت. ومرت شهور وأنا أخرج علنًا مع أخريات، وانقطعت عن الحديث إلى سارة بالكامل، وتركت هي المجلة وعملت بأماكن أخرى. ثم التقينا صدفة بمطعم الشبرد، وابتسمت لي ابتسامتها القديمة الجميلة وقالت بصوتها الرخيم «اتصل بي»، فاتصلت. وعادت وعدت مثل الأول وأكثر. وقالت لي إنها لن تتركني أبدا وأنها ستحبني إلى الأبد مهما فعلت بها، وقالت لي إني سيدها ومولاها ومعلمها وأنها ملك يميني، وذابت مثلما كانت تذوب في الحب وفي العشق وفي الغرام العميق الغائب المفيق. ويلي منك يا سارة، ماذا فعلت بي؟ أين أشرف فهمي العتيد القديم الذي فقد قلبه؟ وكيف استطعت أن تعيدي لقلبي اليابس هذه الخضرة الزاهية؟

* * *

لا أحاول تحريك ذراعي من مكانه. لا أحاول الصراخ أو الاستغاثة. لا أحاول أن أزحزح هذا الجدار من على صدري، بل أقف ساكنًا وصامتًا وشامخًا. أدركت منذ زمن عبث المحاولة. قال محمود درويش:

«دع كل ما ينهار منهارًا

ولا تقرأ عليهم أي شيء من كتابك»

ففعلت. ولما حاولت زحزحة الأشياء التي انهارت فوقي تراكمت أكثر: كلما زحت قطعة وقعت فوق رأسي قطع أكثر. وأدركت عبث المحاولة فظللت واقفا. هنا أو هناك، مثلما تحملني الريح. كأنني ورقة شجر.

* * *

العمل في لندن فتح لي أكثر من نافذة وباب. أول ما تعلمته، وهو مفتاح كواليس الصحافة العربية كلها، هو أنه لا يوجد أحد ليس له

صاحب. كل صحيفة أو مجلة تحتاج إلى «ظهر» تستند إليه، سواء كان ذلك الظهر تمويلًا (لا توجد صحيفة واحدة تقريبا تعيش من مواردها الذاتية) أو حماية سياسية، «البروتكشن» كما كنا نسمي الشخص الذي يلتقيه رئيس تحريرنا في لندن من حين لآخر.

«البروتكشن» قد يكون نظام سياسي، ممثل بمندوبين من أجهزة مخابراته أو الإعلام. وهم مندوبون لا يرتدون نظارات شمس غامقة ولا معاطف طويلة، وإنما هم رجال محترمون ومهذبون وأحيانا لا يكونون حتى موظفين بل وأحيانا يكونون وسطاء من جنسيات دول أخرى غير تلك الدولة التي تصبغ حمايتها على الجريدة. «البروتكشن» أيضًا قد يكون شخصًا غير معروف إلا للخاصة: أمير مثلًا أو رجل أعمال كبير، مغترب أو يعيش في وطنه، يتطلع للعب دور سياسي أو مجرد محب للنفوذ أو يستخدم الصحيفة كأداة لترويج أعماله أو حتى لحماية نفسه ضد منافسين أو ضد نظم أخرى أو ضد حكومته هو أو ضد أناس معينين داخل حكومة بلده. شبكة «البروتكشن» شديدة التعقيد وتتغير حسب تبدل التحالفات بين مراكز القوى المهتمة. وعليك أن تبقي عينيك مفتوحتين دائمًا إن أردت النجاة.

التعامل مع «البروتشكن» فن. وهناك صنوف للتعامل بقدر ما هناك أشكال من «البروتكشن»، وعليك أن تختار النموذج الذي تقدر عليه. هناك نموذج العميل/الموظف حيث يصبح الصحفي مجرد عروسة ورق تحركها «البروتكشن» في أي اتجاه وفي أي وقت. وهذا هو أغبى الأنواع وأسرعها احتراقًا، حيث يحول أمرها المفضوح بينها وبين بناء المصداقية اللازمة، كما تسقط سريعًا حين تتغير التحالفات بين القوى صاحبة البروتكشن. أفضل النماذج في رأيي هو نموذج المستقل/المشاكس، حيث يحتفظ الصحفي باستقلال نسبي، مع المهادنة في بعض الموضوعات أو بعض الأوقات والتنسيق في أشياء معينة وضمان «البروتكشن» لحرية حركة الصحيفة في باقي الموضوعات. النموذج المستقل/المشاكس يلجأ أيضًا لتنويع قاعدة «البروتكشن» اللازمة له بحيث لا يكون تحت رحمة جهة واحدة، فإذا أرادت هذه الجهة سحب تأييدها استطاع بسرعة حشد تأييد جهة أخرى بشروط مشابهة بحيث لا يتأثر كثيرًا بالتغيير. وهذا هو أصعب النماذج ولكنه أكثرها قدرة على الاستمرار.

الدرس الثاني هو تعلم كيفية قراءة الخريطة السياسية للصحيفة قبل أن تقوم بأي عمل درامي فيها، مثل مهاجمة أحد أو تأييد أحد آخر. يجب أن تفهم أولًا من يقف مع من، ومن ضد من، وأين الصراعات المفتوحة

وكيف ومتى وقعت الانقلابات، وأن تحفظ كتاب تفسير ظهور وصعود بعض الصحف والمجلات وهبوط واندثار بعضها.

الدرس الثالث هو أن تدرك أن الصحفي ليس مجرد ناقل للخبر أو محلل له، وإنما هو مشارك في العمل السياسي. العمل في لندن فتح لي أبوابًا جعلتني أرى هذه الحقائق. لندن، التي ما زالت تحتفظ ببعض مجدها القديم كعاصمة للإمبراطورية. أن تكون صحفيًا عربيًا في لندن في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات يفتح أمامك الباب لكل التيارات السياسية وغير السياسية الموجودة بالعالم العربي والإسلامي (خاصة الأكراد وإيران وباكستان والهند). لا يوجد تيار واحد لا يأتي ممثلوه إلى لندن مرة في العام، ولا توجد صفقة واحدة تتم دون المرور على لندن. ممثلو الدول، المعارضون، التيارات السياسية الممنوعة، الشيوعيون، الإسلاميون، القوميون، حركات التحرر الفلسطينية بأنواعها، ضباط المخابرات، الجواسيس والعملاء، الإرهابيون. الجميع يتخذ من لندن إما محطة أو مقرًا. وقد قابلت الجميع بلا استثناء وكتبت عن الجميع بلا استثناء وصار لي أصدقاء بين الكثيرين منهم. العمل في لندن أيضا أتاح لي فرصة نادرة لإقامة علاقات عمل مع الكثير من الصحفيين والمراسلين ورجال الإعلام الغربيين الذين يغطون أنباء العالم العربي، ابتداء من الصحف الأمريكية المحلية المغمورة إلى معدي البرامج السياسية في قنوات الإذاعة والتليفزيون العالمية المختلفة. ووجد الدبلوماسيون الغربيون الذين يتنشقون عن المعلومات ومعناها في شخصي غير المتواضع من يمكنهم الحديث معه ويفيدهم ويفهمهم ويشرح لهم. باختصار، كانت الأعوام التي قضيتها في لندن بمثابة درس مكثف في واقع الصحافة والعلاقات العامة، البداية الحقيقية لمساري المهني كصحفي.

عندما عدت إلى القاهرة في نهاية ١٩٨١ كنت قد تعلمت دروسي كلها، وصممت على تغيير التكتيك. راحت نظرة الحالم الذي يرى القبح والقيد ويتألم له، وحلت محلها نظرة القناص الذي يرى الفرص من بين القيود، يرى الفتحات في الجدران، ويرى نصف أو ربع أو عشر الكوب الممتلئ. مثل القنص، في صمت وقوة وبلا مشاعر تقريبًا، تعلمت أن أبتلع الغصة في حلقي وأكتم الألم في صدري، وأبحث عن توسيع الجانب الإيجابي فى أي ظروف أجد نفسي فيها. لم أبع مبادئي يومًا، ولم أتراجع في موقف، ولم أنافق (وإن استخدمت القدرات اللفظية في صياغة المواقف كثيرا) بل وأخذت مواقف شديدة في أحيان كثيرة. لكن خطواتي كانت محسوبة، وكان الهدف دائم الوضوح: التقدم للأمام وتوسيع هامش الحرية المتاح لي.

كان الاتفاق الذي عدت بموجبه قد تم في لندن. مع التغييرات السياسية الجارية، تحولت السيطرة على المجلة لأيد جديدة. وكانت علاقتي بأحد السعوديين المقربين من الحكومة المصرية قد توطدت، وهو رجل كبير في السن والمقام يتمتع بروح الفكاهة المبنية على خبرة السنين ومشاهدة صعود وهبوط الناس. كان في طريقه لاعتزال العمل العام حيث، كما قال، لم تعد الأمور تلذ. كان دائمًا ما يقول لي إني خسارة في الصحيفة التي أعمل فيها وأن مكاني هو رئاسة تحرير الأهرام.

ـ أهرام إيه يا أستاذ؟ إحنا قادرين حتى نرجع من مطرح ماجينا؟

كان فاهمًا لتلميحي ولكنه لم يرد. وذات يوم، بعد مقتل الرئيس السادات بقليل، التقط الخيط وسألني:

ـ واللي يرجعك؟

كان ذلك بداية عرض عمل، واستمرت المفاوضات لشهرين. قال إن مسئولًا كبيرًا يبحث عن رئيس للتحرير يحل محل الأستاذ قناوي.

ـ وليه مش محمد عبد الواحد؟

ـ محمد يا دوبك نافع مدير تحرير، ده لو بقى رئيس تحرير حانحتاج نكتبله المجلة كل أسبوع.

لم يكن المسئول الكبير ليفكر فيّ بالطبع، باعتباري ـ في نظره ـ معارضًا لا أمل فيّ. وكانت الخطوة الأولى هي أن قام صديقي السعودي بإفهامه خلفية الأحداث التي تمت عام ١٩٧٧، وأني كنت مجرد شخص مخلص ومتحمس تم استخدامه في تصفية حسابات بين عدد من المسئولين. واستمرت المفاوضات بيننا حول مدى هامش الحرية الذي سأتمتع به وبقية التفاصيل، وقرب التوصل لاتفاق رتب صديقي لقاء بيني وبين المسئول الكبير في لندن، وكان لقاءً وديًا ونديًا أتممنا فيه اتفاقًا شعرت بالراحة إليه. وبعدها بشهر كنت في القاهرة.

لا أعتقد أن أحدًا كان يتصور حجم التغييرات التي يمكن أن أحدثها في المجلة، ولا توقع مدى النجاح الذي حظيت به المجلة بعد ذلك. بدأت بوضع المجلة في قبضة حديدية ذات قفازات حريرية. كان الجميع يتوقع انتقامي ويخشاه، وقد لاحظت برضا وشماتة (والشماتة عاطفة إنسانية بحتة) أن محمد عبد الواحد قد جمع حاجياته من تلقاء نفسه

ووضعها في كرتونة، ولكني لم أنتقم منه، ولم أحتل مكتبه وألقي به وبكرتونته في الشارع مثلما كان يتوقع هو والجميع. الحقيقة أني لم أنتقم من أحد إطلاقًا، وإن كنت قد أشعرت الجميع أن سلطتي وجبروتي يمكن أن يعصف به في أي لحظة. بدأت بعبد الواحد، والذي تركته أسبوعًا في منزله لا يعرف إن كان مفصولًا أم لا. وظلت كرتونته البائسة التي تحوي أوراقه ملقاة على الأرض في مكتبه بانتظار تعليماتي (لم يكن ممكنًا مجرد إخراجها من المؤسسة دون تصريح مني شخصيًا). وبعد أسبوع استدعيته، وبدلًا من منحه إجازة بدون مرتب أو نقله للأرشيف ـ كما كان الجميع يتوقع، أعدت تعيينه سكرتيرًا للتحرير. حتى هو فوجئ.

بعد بسط سريع للهيمنة على المحررين، بدأت العمل الحقيقي. دعمت قسم التحقيقات بعدد من أفضل المحررين الموجودين كما دعمت عملهم بفريق من الباحثين الذين يتولون إعداد المادة الخام وجمع البيانات عن خلفية الموضوعات (وهي عادة نقطة الضعف في محرري التحقيقات). أنشأت سكرتارية خاصة لتسهيل وترتيب عمل محرري التحقيقات (ترتيب المواعيد، تسهيل الانتقال والحصول على التصريحات اللازمة،.. إلخ). وفي خلال شهر واحد كان الفرق قد بدأ يظهر في عمل قسم التحقيقات. استقدمت عدد من الشباب وفتحت الباب لكل الأفكار الجديدة وغير التقليدية. وسعت من نطاق التحقيقات ونوعتها. فتحت المجلة لمساهمات عدد من الكتاب الكبار من مختلف التيارات بحيث أصبحت المجلة منبرًا للمناقشات السياسية والفكرية التي تهم مختلف تيارات الحياة السياسية في مصر (ومن ثم أصبح للجميع مصلحة في استمرارها) كما فتحت الباب لكتابات شبان صغار ما كانوا يحلمون بالكتابة في مجلة كبرى، مما أضاف إليها بعدًا جديدًا جعل كثيرًا من الشباب ينظر إليها باعتبارها تعبر عنهم. أنشأت قسمًا للترجمة يطرح على القارئ أسبوعيًا مختلف الأفكار والمناقشات الدائرة في المجلات الغربية العريقة، وبدأت صفحة لمراجعة التراث الثقافي العربي تنور الماضي وتناقشه بطريقة نقدية بما يتجاوز الثنائية التقليدية من تمجيده أو تجاهله. أرسيت أهداف المجلة التحريرية حول التنوير، نشر الثقافة بشكل يسمح لأكبر عدد ممكن من الناس من فهمها والمشاركة فيها، التعبير عن مختلف الآراء، محاربة الفساد، ومحاربة الإهمال والتسيب والفوضى، محاربة التزمت والتعصب والجهل بأنواعه.

* * *

ماتت أمي. وضعت جسدها في حفرة في الأرض ووقفت أنظر للتراب يهيلونه عليه ثم مضيت. تركت أمي في الحفرة تحت التراب ومضيت.

* * *

رفعت داليا الشناوي عليَّ دعوى احتساب متهمة إياي بالكفر ومطالبة بالحكم بفصلي من رئاسة تحرير المجلة. كان الدكتور نشأت يتولى أمور القضية ولكنه كان يستشيرني في كل التفاصيل، وأدرنا حملة رأي عام قومية وعالمية لا بأس بها على الإطلاق. أحمد كمال، العميد بجهاز الأمن القومي، قال لي إنهم يفعلون ما في وسعهم. واللواء سمير قال إنهم سينهون المسألة لأن الدولة لا يمكن أن تسمح لمجموعة من الأفراد أيًا كانوا أن يملوا السياسة العامة في البلد. الوزير الفلاني والوزير العلاني طمأنوني، والدكتور نشأت قال إن القضية مضمونة، قانونًا ودستوريًا وسياسيًا، وبدا لنا أن الدولة لا يمكن أن تغامر بالسماح لهذه السابقة بالحدوث في ظل الانتقادات الدولية لهذه الطريقة البربرية في المصادرة على حرية الفكر. لكن أول علامات القلق جاءت عندما تولى ملف القضية قاض معروف بميوله المناصرة للجماعات الدينية. لكن الجميع استمر في طمأنتي وطمأنة أنفسهم أن ذلك لا علاقة له بشيء وأن الأمر ربما يحتاج لقاض معروف بميوله الدينية لإضفاء مصداقية أكبر على حكمه برفض الدعوى. وبدا لي ذلك تزيدًا لا معنى له ولكني صمت. وكنت أستغرب، لماذا رفعت داليا هذه الدعوى عليَّ أنا من دون كل خلق الله المشتغلين بالصحافة؟ لم يكن ما كتبته عن نظام الحكم الإسلامي ثوريًا ولا جديدًا، بل ردده العشرات قبلي، فلماذا أنا؟ ولماذا ترفع داليا القضية دون بقية الناس؟

في النهاية، حكم القاضي بقبول الدعوى وبأني مارق من الدين إلخ إلخ. واعتراني ذهول في المحكمة أقعدني عن الحركة دقائق طوال، فلم أرد على حديث نشأت ومن كانوا معي، ولم أتحرك من مقعدي، تخشبت وظللت مذهولا لفترة حتى وأنا في السيارة في طريق العودة. قال نشأت إننا بالطبع سنستأنف الحكم، وأن الاستئناف سيأخذ وقتًا، ربما عامًا آخر. عام آخر؟ تحت هذا السيف المسلط على رقبتي؟ سيقوم الجميع بابتزازي خلال هذه الفترة! واضح أن الحكومة لا تريد إنهاء القضية. فرصة طيبة لإشعاري بالحاجة إليهم والضغط عليّ. ومن يدري؟ ربما يكون أحمد كمال أو اللواء سمير هو الذي دفع داليا لرفع القضية حتى «يضعني تحت السيطرة». ألا يمكن لجهاز أمني أن يقبل التعامل بندية أبدًا؟ هل لا بد للدولة دائمًا من السيطرة؟ ولكن لا، ليس أنا من يقبل بالخضوع للسيطرة، لست يائسًا لهذه

الدرجة، ولست بلا حول ولا قوة لهذه الدرجة، ولست أسيرًا لقبضة الدولة لهذه الدرجة، فلديَّ مصادر قوتي الخاصة والمستقلة عن الدولة، وسأستخدمها. هل تريدون اللعب؟ لنعلب إذًا، ولنر من الذي يضحك أخيرا.

كتب لي ناصر قبل انتحاره رسالة طويلة، الأولى والأخيرة. قال فيها ألا فائدة، وأنه فر من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هناك الأبعد و:

«... بلا فائدة. نحن ضحايا ومذنبون معًا. ضحايا لهذا الزمن ولهذه الظروف وضحايا لتربية شديدة المثالية تلقيناها ولأوهام شديدة القوة عشناها. ومذنبون لأننا صدقناها ولم نتمكن من الخروج من أسرها. والآن أعلم علم اليقين أن الوقت قد حان كي أتوقف عن التصديق وعن الاتباع وأن أدرك أن كل هذا الحلم هو محاولة يائسة. لا ورد النيل يمكن مقاومته ولا بيوتنا يمكن حمايتها ولا الجمال يمكن إعادة اختراعه. ولكنني لا أستطيع التوقف عن التصديق والاتباع دون أن أموت من الملل ومن الاكتئاب. ومن ثم فإن الخيار الحقيقي هو بين الوهم أو الموت، وذلك قاع المأساة...».

وبعدها انتحر. انتحر صديقي الوحيد الباقي من أيام الصبا وقطار المنصورة الليلي. ألقى بنفسه أمام المترو في نيويورك وأنهى حياته على القضبان الحديدية التي بدأنا حياتنا سويًا عليها. أنهى حياته وأخذ جزءًا من حياتي معه: شطر قلبي نصفين وأخذ نصفًا وذهب وتركني هنا أسأل نفسي لماذا لا أرسل له النصف الآخر؟

* * *

أجلستني إليزابيث على أريكة بنية اللون مريحة، وجلست بجواري ثم قامت كمن نسي شيئا. عادت ومعها كأسان من النبيذ وجلست بجواري وابتسمت. قالت:

ـ أتعرف شيئًا؟ إنني سعيدة بقرارك عدم الاستمرار في الجلسات.

أبديت استغرابي فمالت على وجهي وقالت إنها لم تكن لتسمح لنفسها بمواعدة أحد مرضاها، فهذا عمل لا أخلاقي، ثم وضعت شفتاها على شفتيَّ وبدأت في تقبيلي. كأنها خرجت لتوها من «الطيور المهاجرة للشمال» للطيب صالح، ولم أستطع التعامل معها إلا على هذا الأساس، حتى إني بدأت في سلوكي معها أتقمص شخصية بطل الطيب صالح، وكان ذلك أمرًا خطرًا إذا ما أخذنا في

اعتبارنا نهايته ونهاية من معه في الرواية. كانت إليزابيث ابنة الطبقة المتوسطة البريطانية حتى النخاع، طيبة وصادقة وساذجة، محمولة بتفاؤل وحب جارف للحياة والناس يكاد يكون أبله. وفي البداية وضعت نصب عينيها هدف إصلاح نفسيتي المعوجة في نظرها، وقالت كلامًا كثيرًا حول الشرق والغرب والفردية والجماعية وطفولتي وعلاقتي المرضية بنفسي وبالآخرين وبأمي وبالنساء، ولما صار ضجري من هذا الحديث واضحًا كفت عن ذلك، وتحولت إلى هدف آخر وهو إسعادي. ولكني كنت أشعر أنها تقوم بعمل خيري، عمل تطوعي لمساعدة البلدان الفقيرة، وعندما بدأت الحديث عن الزواج قطعت علاقتي بها. وحمدت الله أنها لم تنتحر مثل بطلة الطيب صالح، ولو أني ربما كنت لأفضل ذلك عن اتخاذها حبيبًا جديدًا ـ تصادف أنه عربي أيضًا ـ بعد أن تركتها بأسبوع واحد.

* * *

و«البروتكشن»؟ أحلى «بروتكشن» مثلما كان يردد مساعديّ المقربون. بدأت بفتح قناة اتصال مع الداخلية لتجنب عداءات لا داعي لها، واضطررت في ذلك لابتلاع غصتي والتعامل مع اللواء سمير صاحب الوجه الكالح والماضي الأسود. فتحت قناة ممتازة مع الأمن القومي وكان العميد أحمد كمال هو أداتها، وهو رجل محترم وذكي ولا يعاني من أمراض العمل الأمني الشائعة. العلاقة مع أحمد تجسد نموذج «البروتكشن» الذي أفضله. علاقتي بأحمد لا علاقة لها بالصحافة، فنحن لا نتحدث عن أي شيء يدور داخل المجلة، أو داخل أي مؤسسة صحفية أخرى. فأحمد كمال ليس مسئول الصحافة بالأمن القومي وإنما مسئول النشاط الديني. ومن ثم نحن نتحدث غالبًا عن الجماعات الدينية وآخر أخبارها. الصحفيون لديهم دائمًا أخبار لا تتوفر لأجهزة المخابرات حتى العريقة والقوية منها. لا لشيء إلا لأن الأخبار تأتي إلينا من مصادر عفوية كثيرة ومن أشخاص يمكن أن تحدثنا نحن فيما لا تحدث فيه ضباط المخابرات أو مسئولي الحكومات. كما أنه أحيانًا يكون في معلومات الصحفي نقطة واحدة تنور معلومات أخرى لدى ضابط المخابرات (ويتحمل من أجلها كوم من الكلام الفارغ). الصحفي الصحيح عبارة عن جهاز مخابرات صغير، متنقل، أقرب لأرض الواقع والوصول إليه أسهل والتعامل معه أقل خطورة. ونظرا لأن لديَّ علاقات كثيرة بحكم تركز كتاباتي على الحركات الإسلامية منذ إقامتي بلندن، فقد وجد أحمد كمال أنه من المفيد له المحافظة على علاقة عمل منتظمة معي (مع انشغاله الشديد، فهذا هو أهم رجل في مكافحة النشاط الديني في مصر). وبماذا يعود عليَّ ذلك؟ حماية.

بدأت علاقات مع الرئاسة توطدت مع الوقت. وحولت صفحة الاجتماعيات (الأفراح وما شابه) لأداة لكسب ود سيدات المجتمع المهم وعطفهم. كما وطدت علاقاتي القديمة بمختلف قطاعات «المجتمع المدني» الناشئ وقتها كالمنظمات غير الحكومية وخلافه وهي مجموعات من الناس يغلب على علاقتي بها التعجب من جانبي والإعجاب من جانبهم، ولكنها علاقة قامت واستمرت على أساس من المصلحة المشتركة (وكان مهندسها في الحقيقة صديقي القديم ومحامي الفاشل الدكتور نشأت)، كما استثمرت الكثير من العلاقات التي أنشأتها في لندن مع جهات عربية وأجنبية. كان كل ذلك يشكل قاعدة الأمان السياسية للمجلة لمواجهة غدر الزمان وتقلبات «البروتكشن».

اضطلع قسم التحقيقات (وهو القسم الأثير لديَّ باعتبار التحقيق هو لب العمل الصحفي) بدور رئيسي في المعارك التي شنتها المجلة. خضنا معارك دامية ضد الإرهاب وجماعات التعصب الإسلامي، ضد الدجالين والمشعوذين ممن عينوا أنفسهم دعاة عبر التليفزيون، ضد التعصب الديني في الكنائس وعلاقاتها بالجماعات المسيحية في الخارج، ضد اضطهاد الأقباط في الصعيد من قبل الجماعات الإسلامية المسلحة، ضد الأدوية الفاسدة والتلاعب بصناعة الدواء، ضد التهريب شبه الرسمي من ميناء الإسكندرية ومافيا الجمارك، ضد الأغذية الفاسدة والتلاعب بتقارير الرقابة الصحية، ضد مافيا الأسمنت ومافيا الخشب، ضد سرقة الآثار والتلاعب في هيئة السكة الحديد، ضد الفساد في الأحزاب وضد سيطرة الأجيال القديمة في كافة المؤسسات. معارك خلف معارك، وتحقيقات موثقة بمعلومات دقيقة لا ترحم، حولت المجلة إلى برلمان للمساءلة وقلعة للتنوير الثقافي والسياسي.

* * *

ماتت أمي.

لا يعرف هذا الشعور غير من ماتت أمه: مهما كنت كبيرًا، حين تموت أمك، تعود طفلًا، وينقطع فيك شيء إلى الأبد. فقد. نقص لا يملؤه شيء.

* * *

لأول مرة منذ طلاقي من منى أفكر في الزواج من جديد. قلت ذلك

لنشأت وسألته رأيه، قال إنها فكرة ممتازة وإني بحاجة للاستقرار العاطفي والإنساني. اقترح سارة فقلت لا طبعًا. اندهش واندهشت من اندهاشه. قلت إني أفكر في زوجة محترفة لا في عشيقة محترفة، قال إنه لا يرى الفرق بين الأمرين، فنظرت إليه وصمت. هؤلاء الخواجات!

أريد زوجة، هانئة، طيبة، وتعتني بي. أحبها وتخلص لي، أحترمها وتحترمني. أعتني بها وتحتوي جنوني وحزني. متفتحة ولطيفة وذكية، لا مناضلة أو زعيمة، زوجة تكون أمًا لأطفالي. هل هذا كثير؟

* * *

أصيبت داليا الشناوي صباح اليوم بأزمة قلبية. ولم أعرف بماذا أشعر. انزعجت حين سمعت الخبر، ربما بحكم الصداقة القديمة وعشرة أيام الجامعة، وربما لأن الخبر فاجأني لا أكثر. ولكني بعد قليل شعرت بالراحة. وإذا كانت الشماتة شعور إنساني وطبيعي، فإني قد قاومته. لكن الراحة، الراحة كيف يمكن مقاومتها؟ لا يمكن، يمكن أن تحاول تفسيرها فقط. والصداقة القديمة؟ ذهبت منذ زمن بعيد، وتحولت لعداء مستحكم. قال شخص ما إن أسوأ الأعداء هم الأصدقاء الذين انقلبوا عليك، وأعتقد أن ذلك صحيح. لماذا أصيبت داليا الشناوي بأزمة قلبية؟ لا أدري، ومعلوماتي أن صحتها ممتازة، ربما هو النظام الصارم الذي تعيش فيه.

المفاجأة أن سارة تكدرت بشكل مبالغ فيه عندما أخبرتها، وجمعت حاجياتها وخرجت مهرولة. لم أكن أعرف أن سارة وداليا أصدقاء لهذه الدرجة! أصيبت داليا الشناوي بأزمة قلبية ولكن ذلك لا علاقة له بي ولا بالقضية المسلطة كالسيف على عنقي. فلماذا نظرت إليَّ سارة هذه النظرة المستريبة؟ وإذا كانت داليا صديقتها لهذه الدرجة فلماذا لم تتدخل من البداية لتجعلها تحل عني؟

* * *

قضيت العطلة الأسبوعية في المنصورة لأول مرة منذ ماتت أمي. الذهاب لبيت العائلة وأمي غائبة عنه أكد لي أني صرت يتيمًا.

* * *

لا أحد يعلم مدى النفوذ الذي يحظى به رئيس تحرير إلا رؤساء التحرير

أنفسهم. تكتشف ساعتها سطوة الكلمة وكيف يعمل لها الجميع ألف حساب. ويأتيك من كنت تظن أنهم أقوى الناس يخطبون ودك، ولا تفيق إلا وأنت ضيف على موائد الوزراء وكبار المسئولين. لماذا يهتمون بك؟ لأن بيدك مفاتيح الشهرة والأضواء ومفاتيح التشهير والفضيحة.

استغللت هذا النفوذ بلا رحمة، لكني وضعته كله في خدمة توسيع قاعدة الأمان السياسي للمجلة. أولًا، خلقت ما يسمى بالتوجيه السياسي لحملات المجلة. صحيح أن تحقيقات المجلة هاجمت وكشفت أخطاء كثيرة في مجالات كثيرة، ولكني تجنبت مجالات معينة أعلم مسبقًا أنها قد تؤدي لإغلاق المجلة أو لتضييق قاعدة أمانها السياسي، ومن ثم جعلها عرضة للابتزاز ثم الإغلاق. هذا هو الفارق بين أنا القديم الساذج وأنا الجديد العملي. القديم كان سيثور للقيد على حرية التعبير ويُصِر على نشر ذلك التحقيق بالذات الذي يعتقد رئيس التحرير أنه لا يجب نشره، «وإذا الحكومة أغلقت المجلة فستثور ثائرة الصحفيين وتجد الحكومة نفسها في مأزق». التجربة تثبت أن هذا كلام فارغ، وأن الحكومة قادرة على إبعاد من تريد في هدوء ودون ضجة. يصبح السؤال إذًا هو: هل من الأفضل تجنب نشر عشر تحقيقات مقابل الاحتفاظ بالقدرة على نشر مائة تحقيق آخر؟ الإجابة نعم، وهذا ما فعلته. لا تحقيقات عن الفساد في وزارات معينة وأجهزه معينة، حيث إن هذه هي «البروتكشن» الرئيسية للمجلة، كما أن هذه مغارة الداخل فيها مفقود. ثانيًا، لا مانع من بعض «التلميع» لبعض الوزراء والشخصيات الهامة التي أصبحت تشكل جزءًا من «البروتكشن» الموسع، بما يسمح للمجلة أن تنزل كالسيف على عنق آخرين وتجد من يحميها. القاعدة هي ألا نهاجم أحدًا لا نستطيع أن نقتله، لأنك في اللحظة التي تهاجم فيها تحول المهاجم إلى عدو مطلق مستعد لفعل أي شي للقضاء عليك، ومن ثم الهجوم يعني الاستعداء الكامل الذي يجب أن نكون جاهزين له.

هذا هو المنهج العملي، الواقعي، إن كنت تريد أن تدير صحيفة مستقلة أو شبه مستقلة. لا يوجد في علمي صحيفة مستقلة تمامًا، ومن ثم إذا كان ولا بد من المساومة وبعض التجاوزات من أجل بقاء صوت أكثر حرية وأكثر استقلالية فلا بأس. أما توجيه اللوم لمن يأخذ المنحى العملي لأنه تخلى عن المثالية المطلقة فليس في نظري إلا مزايدة صبيانية تودي ببقية الحرية التي يمكن للمرء الحصول عليها. هناك قواعد لكل لعبة، وإذا كنت تريد كسر القواعد فيجب أن يكون لديك القدرة على الدفاع عن القواعد التي تريد أن ترسيها أنت. إن لم تكن لديك تلك القوة، فعليك الالتزام بالقواعد التي لا تهدد بقاءك في

اللعبة. وهذا ما فعلت، وهكذا أصبحت المجلة مؤسسة سياسية حقيقية: ليست نشرة حكومية، وليست نشرة أسبوعية للتسلية، وليست صحيفة مغلقة.

كنت أبدأ يومي عند الظهيرة وأنهيه عند الفجر، ما بين المحررين وتوزيع المهام ومتابعتهم وقراءة المادة ولقاءات مع الكتاب ومندوبي «البروتكشن» المختلفين، انتهاء بمتابعة عمل الديسك وقسم الكمبيوتر ومعمل تحميض الأفلام ثم المطبعة، وبعد المطبعة حتى المرور في الفجر على بعض الموزعين الرئيسيين للاطمئنان على سير الأحوال. سنوات كاملة من العمل الدءوب الدائم، كالمخدرات. ولكني لم أشعر بالتحقق. كل هذا النجاح، كل هذه الانتصارات، كل هذا التحقق الوظيفي، ولا أشعر بالتحقق. وكلما طاردني هذا الإحساس بالخواء كلما انغمست في العمل أكثر. ولا تحقق. فراغ داخل صدري، كأن به فجوة سوداء تقود إلى فراغ المجرة كلها، تشفط البهجة من دمي وتلقي بها في ذلك الفراغ البعيد، وكلما حاولت أكثر، كلما شفطت البهجة أكثر ولا ينوبني سوى تعب الجهد المضاعف.

أريد فتاة تصفق الأبواب خلفها وتدفع المكاتب بقدمها وتهزني من أعماقي باستدارة جسمها وضفيرة شعرها على ظهرها، تمد يدها وتلتقطني من عبث الريح وتضعني في خصلة شعرها، تمد يدها لتلتقط قلبي وتمسحه وتزيل قطع الزجاج المكسر عنه وتضعه في راحة يدها، تمد يدها وتزيح جدار الحزن الرابض على صدري وتقبلني في عيني. لكني لا أجد سوى نساء لا يحركن قلبي ولا يثرن فيّ أكثر من غرائزي، نلتقي على عجل وننصرف على عجل حتى لا نرى بعضنا بعضًا بعدها. نساء كالعمل، كالمخدرات، كالتقليب المستمر لقنوات التليفزيون بالريموت آخر الليل، كالنوم الزائد في الضحى، ليسوا بهجة، بل مهدئات.

لماذا حرمني الله ـ دون سائر عباده ـ من كل مصادر الحنان والحب؟

* * *

ثم جاءت انتخابات نقابة الصحفيين. فكرت في الترشح ونصحني كثير من أصدقائي بأن أفعل ذلك، ولكني كنت أدرك أن الحكومة لن تسمح لي بأن يكبر حجمي لهذه الدرجة، وأني لو رشحت نفسي فسيفعلون المستحيل لإسقاطي في الانتخابات أو سيغلقون المجلة. لا أحد مسموح له بتجاوز حجم معين هكذا دون أن يكون له صاحب، وأنا لي حماية ولكن ليس لي صاحب. لم أدخل انتخابات النقابة، لكني نظمت

فريقًا من الأصدقاء والزملاء شكلوا قائمة ودخلوا الانتخابات. كانت علاقتي ممتازة بكبار الكتاب المستقلين، والحكوميين السابقين الذين تغيرت حظوظهم بتغير العهود. كبار الكتاب يخطبون ودك كرئيس تحرير حتى وإن ظنوا في أعماقهم أنهم أفضل وأذكى وأرقى منك. العلاقة بين رئيس التحرير وكبار الكتاب مثل العلاقة بين منتج السلعة وصاحب سلسلة السوبر ماركت. كلاهما يعتمد على الآخر، ولكن اعتماد الكاتب على من بيده النشر عادة ما يكون أقوى، إلا طبعًا لو كنت مثل الأستاذ هيكل وأمامك عشرات من الصحف تتلهف على كتابتك. لكن حتى كبار الكتاب لا يستطيعون أن يفقدوا ود رؤساء التحرير، وخاصة رؤساء تحرير الصحف والمجلات المحترمة، ومن ثم يضطرون للحفاظ على الجسور سليمة مع رجل مثلي. شباب الكتاب المتحمسون معنا، وتبقى أمامنا مشكلتان: الصحفيون من ذوي الميول الإسلامية والصحفيون الموظفون لدى الحكومة، وعلينا أن نعقد صفقة مع أحد الجانبين كي نفوز. لكن ما زال أمامي شهران كاملان، وسأتفرغ لهذا الموضوع بعد عودتي من لندن.

* * *

كنت في لندن حينما علمت أن جماعة تسمي نفسها «جيش خير» تخطط للقيام بعملية كبيرة ضد هدف مصري. لم يقل لي المصدر (صديق منذ أيام لندن) شيئًا عن طبيعة العملية أو عن مكانها. ولم أكن قد سمعت باسم هذه المنظمة من قبل وبدا لي ناقصًا: خير من؟ خير الأنام مثلًا؟ أم جيش الخير؟ أم شخص اسمه خير؟ صديقي (المصدر) قال إن القرار اتخذ وأن العملية ستتم في خلال شهر. أعطاني أسماء أربعة عناصر هم المشرفون على التنفيذ (كنت أعرف أحدهم وهو «مجاهد» باكستاني سابق كان طالبا بلندن يتقن العربية). لماذا قال لي أنا؟ ربما يريد إبلاغ السلطات دون أن يحسب عليه ودون أن يتعرفوا عليه ودون أن يدخل في متاهات. ربما يسوي حساب مع الجهة المنظمة للعملية، ولكن لماذا عن طريقي أنا؟ ثقةً فيّ منذ كنا نتبادل الخدمات والمعلومات في لندن؟ أم يختبرني؟ أم له دافع آخر وليس هناك عملية ولا يحزنون؟ ربما يريد الانتقام من هؤلاء الأربعة لسبب ما؟ هذه الجماعة ليس لها وجود في مصر، ومعظم نشاطها يتركز في الأماكن الهامشية ـ حسب ما ذكر لي، في جنوب شرق آسيا واليمن والسودان والبلقان، كما أن لها قيادات في نيوجيرسي.

قضيت حوالي أسبوعًا أبحث عن مزيد من المعلومات عن هؤلاء الأربعة واستعنت في ذلك بصديق آخر (جورج، وهو فرنسي من الألزاس كان

يعمل ضابط اتصال في السفارة الفرنسية بلندن بين جهازي المخابرات الفرنسي والبريطاني). اضطررت للسفر لباريس لمقابلة جورج حيث يقيم ويعمل حاليًا. بعد عدة أيام اتصل بي جورج ثانيةً وقابلني في مقهى الروتوند في شارع مونبارناس على الإفطار (ما زلت أمقت هذا الإفطار الفرنسي منذ أيام ليلى) وتحدثنا حديثًا عامًا. وعندما غادر المقهى ترك لي على المنضدة ظرفًا يحوي صور الأشخاص الأربعة وسيرة حياتهم والمعلومات المتاحة عن محل إقامتهم الحالي وعن المنظمة المذكورة و«سجل أعمالها».

ماذا يمكن أن تكون هذه العملية؟ إما اغتيال شخصية كبيرة أو عملية إرهابية ضد السياحة. كل العمليات الإرهابية التي وقعت في مصر كانت موجهة إما ضد المسئولين أو الكتاب أو ضد السياحة أو بعض العمليات العمياء ضد المواطنين. ولم أعر اهتماما كبيرا لمكان العملية فهذا أمر يخضع عادة للقادة المحليين، فإذا تعذر تنفيذ العملية ضد الهدف الأساسي عادة ما يمكن التعديل لهدف ثان أو ثالث يمكن إصابته بتأكد أكبر. أتوبيس سياحة في القاهرة أو الأقصر أو أسوان، حسب مسرح العمليات.

كان قراري قد اتخذ منذ علمت بالعملية: سأقايض الأمن على هذه المعلومات. أعطيهم ما لديَّ، بالتدريج، مقابل إنهاء قضية الاحتساب ووعد بمنع تكرارها في المستقبل. كنت مسافرًا للخرطوم بعد أسبوعين لحضور مؤتمر تنظمه الأمم المتحدة عن حقوق الإنسان في العالم العربي، وأردت إنهاء المسألة قبل السفر. وقد كان. عدت للقاهرة ورتب لي اللواء سمير لقاء مع المستوى الأمني والسياسي المطلوب وتم الاتفاق وأعطيتهم البيانات التي لديَّ كاملة (فيما عدا أسماء الأشخاص الأربعة وصورهم والمعلومات عن محل إقامتهم) ووعدوني بتغيير ملموس في موضوع القضية خلال أسبوع. قلت إني مسافر للخرطوم وإذا توفرت لي معلومات أخرى في المستقبل القريب سأحيطهم علمًا. كانت نيتي أن أعطيهم الصور وبقية البيانات بعد عودتي من السودان بعد أن أرى ماذا فعلوا بالنسبة لقضية الاحتساب، بحيث لا يأخذون كل المعلومات ثم يسوفونني.

لا بد وأن الصور في جيب جاكتتي في مكان ما تحت هذا الجدار.

* * *

أريد رئاسة تحرير الأهرام. لا شيء أقل من هذا سيرضي طموحي. الأهرام هي المؤسسة الوحيدة التي تناسب قدرتي على الإبداع

والتطوير، ولكني أعلم أن هذا شبه مستحيل في ظل النظام القائم. الأهرام تؤدي وظيفة لا أقبل أن أكون منفذها ولن تقبل الحكومة أن تؤدي الأهرام الوظيفة التي أريدها لها. بعد أكثر من عشر سنوات على قمة المجلة وقمة العمل الصحفي والسياسي في مصر، حان الوقت لأنتقل لشيء أكبر. الأهرام حلم مستحيل، ولكني أستطيع إصدار جريدة يومية جديدة، إنشاء مؤسسة صحفية كاملة أكبر وأكثر عصرية وديناميكية من الأهرام. هذا ليس حلمًا مستحيل التحقيق. قلت لأصدقائي انظروا لجريدة الحياة، هذه مؤسسة ناشئة تتجه لتكون مؤسسة عملاقة، وأنا لديَّ القدرة على إنشاء مؤسسة عملاقة في القاهرة تكون منارة للعمل الصحفي والإعلامي في العالم العربي. كل ما أريده هو الترخيص، السماح، «البروتكشن» أو حتى عدم التعرض. ولكني كنت أجابه بالرفض دائمًا. هذه هي الحدود المسموح لي باللعب فيها. «ما تستعجلش رزقك»، هذا ما قاله اللواء سمير مكررًا على مسامعي نفس الكلمات التي سمعتها تقريبا من كل أعضاء نادي البروتكشن. لا تستعجل رزقك.

* * *

رأيت كل شيء من البداية.

وتحول كل شيء إلى وجع في قلبي وجدار على صدري وبغضًا مقيمًا عالقًا في الهواء أنحت فيه طريقي كل يوم من بيتي إلى المجلة ويظل قابعًا خلف الشبابيك وخلف الأبواب في انتظار خروجي ليكبس مرة أخرى على نفسي.

رأيت كل شيء من البداية، وتعبت من الحزن ومن الدمع المنسكب في قلبي، دمع كأنه نار تميت القلب وهو لا يموت. تعبت يدي من الكتابة ومن الإشارة ومن التلويح ومن التشويح ومن الدق على المناضد، وتعب حلقي من الصراخ ومن النقاش ومن الكلمات التي صارت كالصابون من تكرارها، وتعبت أذناي مما أسمع، مما أكره ومما أحب ولا يتحقق، وتعب صدري من الحزن القابع عليه كالصخر الأزلي، وتعبت عيوني من النظر ومن الرؤية ومن هول ما أرى.

عندما رأيت ذلك الباكستاني تذكرت الصورة اللعينة، وبرق كل شيء في ذهني دفعة واحدة وفهمت. كنت ما زلت أصرخ في وجه رجل الأمن عندما أكمل عقرب الدقائق دورته وتمت الساعة العاشرة. تخلخل الهواء قليلا وماعت الأشياء في وقفتها ثم انطلقت في الهواء وتبعثرت وتطايرت وارتطمت وتخلعت وانهارت وانفجرت وملأ الغبار

الهواء. كان رجل الأمن ما زال يشير إليَّ بإصبعه مهددًا وكان الباكستاني ما زال ساجدًا عندما رأيتهما ينفجران معًا وجسديهما يتبعثران قطعًا في الهواء المصطبغ بالدم. رأيت رأس رجل الأمن تشرع في الاستدارة للخلف في اللحظة الأخيرة قبل أن تختفي مع بقية الأشياء المتناثرة. ورأيت الأرض وهي تهوي وتبتلع المكاتب والسجاد والصالون والجالسين. رأيت الجدران وهي تهوي وقطع الخرسانة المنخلعة من السقف تسقط فوق الجميع وتردمهم في هوة الأرض. رأيت باب العميد أحمد كمال ينفتح ووجهه يظهر لوهلة قبل أن يطير مع بقية الجدران في كل الاتجاهات وجدران حجرته تنهار والباب ينفجر في الهواء. رأيت جدران القنصلية وهي تتقوض وضوء الشارع الباهر يدخل وينعكس على الغبار العالق في الهواء فيعشي العيون أكثر. ورأيت قطعة السقف هذه تهوي عليَّ بما فوقها وتحجب الرؤية عني. رأيت أسمنت السقف قابعًا أمام وجهي وممتدًا من حولي لا يتزحزح ولا يهتز. رأيت أسمنت السقف يحشر ذراعي في الجدار من تحتي ومن حولي ويهصرني. رأيت التراب وهو يملأ عيني. وما زلت أرى ضوء سيارات الإسعاف يأتي من بعيد وأكاد أسمع أصوات عمال الإنقاذ يحول بيني وبينهم هذا الأسمنت.

* * *

(٣)
ورود خضراء زاهية
تكـــاد تكــون قـاتلـــــة

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ماذا أقول أكثر من هذا؟ لا بد وأن المبنى كله قد انهار. ماذا جرى؟ كيف فعلوا هذا؟ هل فقدوا عقولهم؟ هل وصلوا لهذا المستوى من الجموح؟ وما الهدف؟ هل فقدنا السيطرة على أنفسنا لهذه الدرجة؟ كل ما حولي تراب، وقطع صغيرة مبعثرة من الأسمنت، وجدار ضخم متصدع لكنه ما زال متماسكًا، وألم في ظهري ووجهي. تحسست وجهي، دم وجرح رفيع بطول خدي، وتراب الأسمنت يجرح حافة الجرح. ذراعي اليمنى محشورة داخل الجدار المتصدع، أحاول عبثًا إخراجها. خدر يغمر الذراع سريعًا. ربنا يستر. لا أصدق أنهم فعلوها، هؤلاء الهمج!

أصوات بعيدة تأتي وتعلو، صياح، ثم أصوات سيارات إسعاف أو شرطة. صراخ مستمر يتردد صداه في الركام. ماذا حدث؟ كم من الضحايا؟ قلبي يغوص لمجرد التفكير في ذلك. رأيت عددًا من الوجوه المألوفة ثم حل الظلام بغتة، كأن الكهرباء انقطعت، ثم طنين هادر في أذني وارتطام وألم في ظهري، ثم بدأ الضوء يعود شيئًا فشيئًا. كم استغرق ذلك؟ لا أدري، لكني لم أكن أذكر أين أنا حين أفقت: خلت أني نائمة بالبيت ثم تذكرت جلسة المؤتمر في الصباح ثم أدركت أني في الخرطوم، ثم تذكرت القنصلية. القنصلية. تركت المؤتمر منعقدًا وذهبت للقنصلية لاستكمال أوراق اعتمادي بالمؤتمر ـ هكذا طلبت سكرتارية المؤتمر منا. ودخلت إلى صالة القنصلية فوجدت أشرف فهمي واقفًا يتعارك مع حارس الأمن ووجهه أحمر من الغضب وبعض رذاذ ماء حول فمه وعلى شاربه، ثم رأيت سلمان أحمد واقفًا يصلي في الصالة. فقدت التركيز ثانية أو ثانيتين وأنا أنظر لسلمان أحمد، وحين برقت الإجابة في ذهني أظلمت الدنيا من حولي.

ماذا أفعل الآن؟ ما دمت أرى ضوءًا فلا بد أني قريبة من سطح الركام. هل أزحف نحو هذا الضوء بين شقوق وقطع الجدار؟ قد ينهار أكثر. وذراعي المحشورة، لعلي أستطيع تخليصها أولًا. ولكني لا أكاد أشعر بها. حقيبة يدي الجلدية ما زالت بجواري. سحبتها بيدي اليسرى وفتحتها، هذا هو المنديل. مسحت الدم من على وجهي وتركت المنديل على خدي. سقطت الحقيبة بين الشقوق. أسعل، فيوخز الألم ظهري. لا بد أن هناك كثيرًا من الضحايا، مساكين الموظفون الغلابة. كان هناك هذا الساعي السوداني الذي أحضر لنا الشاي في مكتب القنصل منذ يومين: رجل أسمر وطيب النظرة ومتقدم في السن، يداه ترتجفان بصينية القهوة. قال القنصل بعد خروج الساعي إنه كبر على الخدمة ولكنه طلب البقاء بعد بلوغه سن المعاش لأنه لم يكن لديه

شيء آخر يفعله بعد أربعين عاما من الخدمة في القنصلية. ونشأت كان أيضًا هناك. رأيت شبحه الرقيق في آخر الممر عندما دخلت من الباب الرئيسي للقنصلية. والتفت وهو يدخل غرفة الانتظار فتقاطعت نظرتنا ونظرت في الأرض سريعا متمنية ألا يكون قد رآني، ولمحت على وجهه شبه ابتسامة ظلت عالقة في مخيلتي ولم أرها حقيقة إلا بعد أن حولت نظرتي. لا بد وأن ابتسامته تلاشت ببطء كعادتها. أيكون الآن تحت الركام ينتظر مثلي؟ أيكون مصابًا؟ هل يمكن أن يموت نشأت الآن، على بعد أمتار مني؟

أصوات الصراخ والنداءات تختلط وتعلو ككتلة واحدة من الضوضاء غير المميزة. ضوضاء وطنين هادر وألم حاد في ظهري، طنين هادر ومستمر كصوت محرك عملاق وصوت خافت لسيارة إسعاف بعيدة.

* * *

صوت سيارة الإسعاف يتردد في عناد أمام لا مبالاة السيارات الأخرى، صوت السائق يأتي خشنًا عبر ميكروفون السيارة الخارجي، غير مفهوم، ينهر سائقي السيارات في يأس. سيارة الإسعاف تتأرجح، تقف فجأة لتسير فجأة وأنا أترنح على نقالتي البائسة ويغوص قلبي أكثر. يد صغيرة تمسك بيدي. أبحث عن الهواء فلا أجده. أبحث ثانية فلا يستجيب صدري. كأن شفاطة الهواء في صدري توقفت عن العمل. يد الممرضة تلمس جبهتي وتمسحها بقطعة من القطن المبلل، تفتح زر قميصي المهلهل وتمسح رقبتي. ممرض آخر يعبث بشيء يصدر صفيرًا متقطعًا، ثم يأتي الهواء ويغمرني فجأة، يملأ رئتي وصدري وقلبي ويحملني بعيدًا عن السيارة والطريق. كأني أطير في هواء بارد ورطيب. وتزرق السماء أكثر. وأطير. ويملأ الهواء رئتي فأطير أبعد. ثم يتناقص الهواء سريعًا وأنا أهوي نحو الأرض كصخرة. يزداد الصفير في أذني وأنا أسقط أسرع وأسرع. أسقط في بئر، وأسمع صوت ارتطام جسمي بالماء، وأظل أهوي والبئر يضيق عليّ حتى يحشرني وأنا أهوي سريعًا محتكة بجدران البئر وتشتعل الحرارة في جسمي وأدوخ. أتشبث باليد الصغيرة كيلا أسقط أكثر، ويتوقف الهواء تمامًا، تمامًا. ثم أبدأ الدخول في الألوان. كرات صغيرة ملونة غزيرة تغمرني وتنهمر فوقي وتترابط وتنفك من حولي، وأدخل في دوائر ألوانها وهي تتلوى من حولي، كرات ثم كرات من الألوان. ثم يأتي ذلك الصفير المتقطع وصوت طفلة باك:

ـ ماما

ثم الهواء مرة أخرى، يغمرني فجأة، ويد صغيرة تمسك بيدي، والهواء يحملني، وأنا أترنح، وصوت سيارة الإسعاف يأتي ويغيب.

* * *

كنت جالسة على أريكتي التي أحبها. ممدة ساقي فوقها ومطلقة العنان لشعري تحت الفوطة المبللة. جلست ياسمين ترقبني من المقعد المقابل وهي تتظاهر بقراءة مجلتها الصغيرة. أستكمل طلاء أظافر قدمي وعيناها تروح وتجيء مع فرشة الطلاء. رفعت عيني إليها فجأة فارتبكت وعادت للقراءة.

ـ تعالي هنا.

تظاهرت بأنها فوجئت ثم انفرجت أساريرها عن ابتسامة ماكرة وهي تقترب من قدمي. كانت ياسمين تنظر لطلاء أظافري وكأنها تشهد عملية سحرية. كل مرة تتسلل وتجد عذرًا ما لتجلس بجواري بعد خروجي من الحمام ومعي قارورة الطلاء الصغيرة.

ـ كده، ماتمليش الفرشة قوي. يادوبك تبليها وبعدين تفرشيها على الضافر، وبعدين تظبطي الجوانب.

ـ ممكن أجرب واحدة؟

ـ جربي في ضافري أنا، إنتي لسه صغيرة.

ـ ١١ سنة وصغيرة؟

ـ ياللا وريني حاتعمليها ازاي، أيوه. لأ بالراحة علشان ماتطرطش، أيوه كده.

دخل زياد وهو يرتدي بلوفر من الصوف البرتقالي أكبر منه بكثير، وتجول في أنحاء الغرفة ثم توقف عندي ليراقب التجربة التي تجريها أخته. اقترح أن يجرب هو الآخر فطردتهما هما الاثنين، وضحكت عندما عاد مرة أخرى وهو يرسم وجوهًا متوسلة بوجهه الصغير الدقيق الملامح، وضممته بقوة حتى صرخ وفر هاربًا، وارتطم وهو خارج من الغرفة بأمي التي نهرته لجريه في الشقة دون ترو. التروي هو مفتاح الكلمات كلها عند أمي.

ـ انتي بتدلعي الولاد قوي يا داليا.

ـ يا ماما ولا بدلّعهم ولا حاجة.

ـ ياسمين، سيبينا لوحدنا دلوقت.

ـ حاضر يا نانّا.

ـ مش معقول يا داليا! الولاد كده حايطلعوا ماعندوهمش manières خالص!

ـ مش قوي كده يا ماما، أنا بس مش عاوزه أعقدهم، خليهم براحتهم.

ـ براحتهم؟ يعني إيه براحتهم؟ أمال فين التربية؟

ـ إنتي شايفاهم بيعملوا حاجه غلط يا ماما؟

ـ أنا مش شايفاهم بيعملوا حاجه صح!

ـ دول لسه صغيرين.

ـ صغيرين؟ دانتي لما كنت قد ياسمين كنتي Demoiselle accomplie

ـ أيوه يا ماما، فاكرة.

ـ وبعدين معاكي يا داليا؟

ـ ولا حاجة يا ماما، أنا بس راجعة من المحكمة تعبانة شوية. أنا طالبة التأجيل يا حضرة القاضي.

ـ خليكي كده هزري! وريني بكرة ها تهزري إزاي لما ياسمين تبقى ست ومش فاهمة حاجة في بيتها ومع راجلها ولا في المجتمع.

سحبت ماما الجريدة وظلت تقرأ فيها دقيقتين بينما عدت أنا لطلاء أظافري. الرحمة يا صاحب الرحمة! أحيانا أتساءل عما إذا كان اللّٰه يختبرنا بأمرنا طاعة الوالدين حتى النهاية. ربما كان هذا هو أقسى اختبارات إيماني. ماما هي أم «ماجدة» في فيلم «أين عمري»، حتى في مظهرها. وبرغم سنين عمري المقاربة على الخمسين، فإنها لم تيأس من دورها كأم آمرة ناهية، كأنها لا تريد أن تعتزل أبدًا. كنت أنظر لأمي وطلاء أظافري يجف عندما رفعت عيناها عن الجريدة وحدقتني

في يأس من فوق نظارتها:

ـ manières إيه اللي حا تعلميها لبنتك إذا كنتي بتعملي ضوافرك في غرفة الجلوس!

ثم تركت الجريدة ونظاراتها ومضت إلى غرفتها.

* * *

الضوء يعود لعيني. وتعود الأنقاض لتملأهما. هدأ التراب قليلًا. تستمر الأصوات ولكنها تتباعد. صوت سيارات الإسعاف يأتي، يعلو، يطن في المكان كله، ثم يسرع بعيدًا ويختفي. لا بد وأن عمال الإنقاذ قريبون، ناديت لكن لم يرد أحد. ناديت ثانية، وثالثة. لا شيء. تستمر الأصوات المتباعدة. لماذا يستغرق الأمر كل هذا الوقت يا ترى؟ أريد ماءً. وأريد أن أخرج ذراعي اليمنى من تحت هذا الجدار الذي يكاد يهصره. وأريد أن أعرف ما حدث. هل انفجر المكان أم سقط المبنى؟ وهل هو سلمان أحمد الذي فجر المكان؟ أريد أن أعرف ما حدث لأحمد كمال. على الأقل هو يستحق أن يموت تحت هذه الأنقاض البائسة. إن كان هناك من يستحق هذه الميتة فهو ذلك المريض، بتهذيبه الزائف، بابتسامته الباردة وهدوئه الإجرامي. كان المظروف الأصفر ملقى على المنضدة بيننا وأنا أنظر إليه ولا أراه. أنظر إليه وكلي غضب مكتوم. كنت جالسة على مقعد حديقة النقابة أتصبب عرقًا، وأحاول أن أتماسك. المظروف يقبع أمامي ولا أقوى على لمسه. أعلم ما بداخله ولا أريد أن أراه. نظرت للعميد أحمد كمال وراعني أن أراه يبتسم:

ـ أنا آسف، حضرتك اللي اضطرتينا لكده.

كيف اضطررتكم لهذا؟ وبأي حق؟ من أعطاك هذا الجبروت؟ وباسم من؟ ومن أجل أي غاية؟ هل فكرت ولو للحظة أيها المغرور المتعالي أن هذه القوة ليست لك؟ أنك حلقة في سلسلة من العنف المنظم الظالم؟ هل هناك عقل داخل رأسك هذه أم فقط أمراض الكبر؟ كنت أغلي، ورأسي يكاد ينفجر، والعرق يتفصد على جبيني. مر أحد من معارفي وقال شيئًا، وقال العميد شيئًا، وكانت الأصوات تختلط وأنا جالسة أنظر إلى هذا المظروف على هذه المنضدة بيننا ولا أنبس بكلمة. قام واقفًا وسوى قميصه بيده وقال شيئًا ومضى. مددت يدي للمظروف وسحبته وفتحته. كانت الأوراق بالفرنسية. مستشفى «بيت الرب»، باريس، ١٩٧١. نظرت لاسمي المدون عليه ولتوقيع الطبيب المختص: كلود إيميه. ياه! كدت أن أنسى اسمه! كم مرة رأيتك في

أحلامي تولدني يا كلود إيميه، وكنت تحمل المولود بين ذراعيك لتريني إياه. أنظر فلا أرى في اللفافة شيئًا. مرات أخرى كنت أنظر فأرى مسخًا، فأصرخ، وأنت تضحك بجنون وتلقي به في وجهي. ومرات كنت تريني المولود وأنظر، فتجري وأنت تحمله ثم تختفي، وأظل أنا أبحث عنه وعنك، وأبحث ولا أجدكما، ثم أستيقظ وهذا الشعور بالفقد يجتاحني. فقد ما بعده فقد. كلود إيميه، لم توقفت عن زيارة أحلامي أيها القاتل؟

الضوء يخفت، والأصوات تعلو ولكني لا أميزها، والعرق يغمرني، وخدر في ذراعي يؤلمني. والهواء....أين الهواء؟ أحتاج لمزيد من الهواء. ولكن شفاطة الهواء في صدري لا تعمل. يد تمتد وتمسح على جبيني، وأصوات هرولة وصراخ. والهواء يقل أكثر. وأغوص. أسقط في بئر يسحبني لأسفل بسرعة جنونية حتى إني لا أرى جدران البئر بل ومضات من الألوان، ومضات زاهية ومتسارعة تصبح خطوطًا متصلة متشابكة ملتوية كأنها عناقيد من الضوء الملون. وأغوص أكثر في هذه الخيوط التي تستحيل كرات ملونة. وصوت سيارة الإسعاف البعيد الملح ويد تمسك بيدي وماء يقطر على جبهتي. ثم دفعة فجائية من الهواء تأتي كأنها مظلة تنتزعني لأعلى، ثم قفزة أخرى لأعلى، ثم قفزة شاسعة تأخذني خارج البئر مرة واحدة لسماء زرقاء يغمرني فيها الهواء. ويحملني ويتغلغل فيّ ويأخذني لأعلى، ويملأ الهواء رئتي.

* * *

ورد على النيل. ورد زاهي الخضرة يفترش مياه النهر من الضفة للضفة الأخرى، ورجال بائسون في قوارب صغيرة محاصرون بجحافل النبات الأخضر. يلقون بخراطيم وبراميل في الماء ويدورون حول أنفسهم كالتائهين. أنا المرأة الوحيدة وأصغر الجالسين حول هذه المنضدة. الأربعة الآخرون تعدوا الستين، على الأقل. أستاذي المحامى الكبير، وأبي الروحي، يشارف على السبعين. تحمس لفكرتي، وهو الذي أقنع الآخرين بالحضور لمناقشتها. هناك اثنان آخران من قيادات الحركة المعروفين لكني لا أعرفهما بصورة شخصية، وهما صامتان معظم الوقت وواحد منهم دائم العبث بلحيته البيضاء. الثالث رجل أعمال بارز. رجل الأعمال صامت وكأنه ينتظر صدور الحكم كي يبدأ في حساب التكاليف. والعابث بلحيته يبدو عليه التفكير العميق طيلة الوقت ويومئ برأسه، حتى عندما سألته عما إذا كان يرغب في كوب من الشاي.

بدأ أستاذي الاجتماع بعمل التقديمات اللازمة، ثم طلب مني عرض فكرتي على الحضور. الشاي والقهوة لا ينقطعان من على المنضدة

المستطيلة الخضراء وأنا أشرح مشروعي لتحسين الدفاع القانوني عن شباب الحركة الذين يتعرضون للقبض عليهم:

ـ حاليًا كل اعتمادنا على عدد من كبار المحامين الذين يتطوعون في القضايا الهامة، أو المحامين الذين يتطوعون لقضايا فردية حسب الظروف. واقتراحي هو أن ننشئ شبكة توفر الحماية والمساندة القانونية لكل المقبوض عليهم، بحيث تعمل بشكل آلي فور القبض على الشخص، زي التأمين الصحي يعني. بعد كده، لو فيه حد يريد التطوع لقضية بعينها يبقى يطلب، لكن يجب أن يجد المقبوض عليه محام يحمي حقوقه فور القبض عليه ودون أن يحتاج أهله للبحث عن محام.

ـ بس ده يستدعي موارد كبيرة وتنظيم محكم يا أستاذة! ده علشان الكلام اللي بتقوليه حضرتك ده يتم، حانحتاج عدد كبير جدًا من المحامين، ويكونوا مرتبطين بينا بشكل دائم بحيث نقدر نكلفهم بقضايا فورية. يعني محتاجة تديهم مرتبات بشكل دائم كأنهم موظفين، ومحتاجة يكون عندك مؤسسة تدير العملية دي كلها، ومحتاجة يكون عندك مصادر في أقسام الشرطة تبلغك إن فيه حد تم القبض عليه من الشباب بتوعنا.

ـ ما هو انا باتكلم عن مكتب للمساعدة القانونية، بسكرتارية ومرتبات وناس تتابع العملية.

ـ طيب وإيه عيب النظام الحالي إذا كان شغال وبيؤدي الغرض؟ كمان عمل مكتب حايجيب لنا وجع دماغ وحايعمل visibility زيادة للجماعة!

ـ بالعكس، النظام الحالي هو اللي كده. دلوقت احنا معتمدين على مجموعة محامين كبار، وكل قضية بيدخلوا فيها بتعمل visibility عالية. كمان، مع احترامي للجميع، يمكن استهدافهم أو الضغط عليهم. لكن لو فيه شبكة كبيرة من المحامين العاديين شغلهم اليومي الدفاع عن الشباب، كيف يمكن استهدافهم؟

ـ برضه بالضغط عليهم.

ـ أصعب، لأن الحكومة إيدها كبيرة وتقيلة، فأسهل عليها تكسر الشجر من إنها تلم ورد.

ـ مش فاهم.

ـ بص حضرتك من الشباك. شايف عمال المسطحات المائية دول؟ طول النهار يضربوا كردون حوالين ورد النيل بالبراميل، وبعدين يلموا الورد في مراكب وينقلوه بره النيل. زي ما بيعملوا مع شبابنا بالضبط. بس كل يوم بيطلع لهم ورد جديد بره الكردون اللي ضربوه، فيروحوا يعملوا كردون على الورد الجديد ويلموه، يكون طلع ورد في المكان القديم، وهكذا. لما الورد كتر عليهم، راحوا جابوا المكنة اللي شبه الونش دي، بس مش عارفين يعملوا إيه بيها! لو كان الورد ده شجر كبير كان الونش شاله في نص يوم، لكن حايعمل إيه الونش في شوية ورد متناثر ومالي سطح النهر كله؟ حاليًا إحنا نظامنا عامل زي الشجر الكبير، ممكن لا قدر الله الحكومة تهده بالونش. أنا عايزة أغير نظامنا من الاعتماد على الشجر للاعتماد على الورد، على شبكة من الشباب إن شاء الله تبقى زي الورد! من ناحية تانية، احنا دلوقت بنتدخل بعد التحقيق ما يكون تم، لكن لو فيه مساعدة قانونية متوفرة من لحظة القبض حانصعب على المباحث إنها تتجاوز في التحقيق، وحنقدم مساعدة فورية للمقبوض عليه ولأهله. في رأيي الفكرة دي لو تم تنفيذها حاتعمل نقلة نوعية في الوضع القانوني للكوادر اللي تتعرض للقبض.

استمرت المناقشات حتى وقت متأخر. ثم ذهبوا على وعد بالتفكير في الموضوع، وظللت جالسة في مكتب أستاذي القديم أرقب ورد النيل. لا فائدة في هؤلاء العمال، التخلف ليس صدفة مثلما كان أستاذي يقول دائمًا.

ـ أبشري يا أستاذة!

ـ فعلا؟

ـ إن شاء الله. هي بس الفكرة جديدة عليهم وجاية من واحدة ست، انتي عارفة، معظم التعاملات دي مع شباب ومش حايقبلوا ده بسهولة.

ـ أيوه بس كوني ست مش معناه...

ـ أنا عارف يا داليا! بس دول ناس كبار ودقة قديمة زي ما بيقولوا، أو شباب من الفلاحين والصعيد. المهم خلينا بس نحل مشكلة التمويل والجوانب العملية وده حايساعد على إقناعهم.

ـ التمويل محلول، وعندي تصور للميزانية السنوية، والمصادر موجودة،

بس تاخد أوكيه.

ـ طيب سيبي لي الموضوع وان شاء الله خير.

* * *

«باريس، ١٥ أكتوبر ١٩٧٠

عزيزي نشأت

هذا خطابي الأول لك منذ سفري، وقد ترددت كثيرًا قبل الكتابة، وأعلم أني سأتردد قبل إرسال الخطاب، وربما لا أكتب لك ثانية، وربما لا تقرأ خطابي، ولكني أريد أن أكتب، لك. أنا في باريس، وقد بدأت الدراسة منذ شهر. الجو هنا يختلف تماما عن جامعة القاهرة، كأنه عالم آخر. مع أني جئت كثيرًا لباريس لكني لم أر الحياة الجامعية من قبل، المكتبة مذهلة، والعلاقة بين الطلبة والأساتذة رائعة. الطلبة مغرورون كثيرًا ـ الطالبات أفضل قليلا لكن مزاجهن حاد وبارد. الجميع منخرط في مناقشات طول الوقت تجعل مناقشاتنا الحادة بجامعة القاهرة تبدو بسيطة وهادئة. ما زالت ذكرى الاضطرابات التي وقعت العام قبل الماضي حاضرة في الأذهان: البعض يتحدث عن عودة ديجول وكأنه انقلاب والبعض يتحدث عن ثورة الطلبة وكأنها خيانة، وهاتك يا مناقشات وشتيمة! كنت أظنهم أهدأ وأكثر احترامًا للرأي الآخر، ولكن واضح أنه عندما تسخن الموضوعات فإن الجميع يفقد الموضوعية.

لا أشعر بأن أحدًا ينظر إليَّ، مهما كان شكل ملابسي. الجامعة كرنفال ملابس وقصات شعر. الطلبة الأجانب أكثر أناقة من الطلبة الفرنسيين. الطلبة الأفارقة مسلون جدًا، ولا يخلون من غرور مصطنع، كأنهم نسخة غير متقنة من الفرنسيين (أخشى أن أقول باهتة فتتهمني بالعنصرية ثانيةً). وأنا؟ أشعر أني حرة هنا أكثر من أي وقت مضى. الطلبة العرب أيضا حكاية، وخاصة من الجزائر. آه من الجزائر.

السكن الذي أوجده لي بابا رائع، وقريب من الجامعة، وكل شيء متوفر حولي، حتى السينما والمحلات الكبرى (بما ينذر بحملات لا تنتهي من الشراء!). ولكني أفتقد القاهرة، جدا. وأفتقد الجامعة، وأصدقائي ومدرسي، وسيارتي الفولكس البيضاء وفوانيسها المضحكة، وأفتقد النيل وبيتنا وأسرة البواب اللطيفة، وأفتقد شوارع الزمالك ليلًا، والقهوة في سميراميس صباح الجمعة.

وأفتقدك كثيرًا، وعميقًا، كأن جزءًا مني انتزع، وأشعر بوجوده وبافتقاده معًا. كأني أراه ولا أستطيع لمسه ولكن بقيتي يحترق من الشوق لهذا الجزء المنتزع. يا ترى أين أنت الآن وماذا تفعل؟ وماذا فعلت حين اختفيت أنا؟ هل حاولت أن تعثر عليَّ؟ هل حاولت أن تعرف أين أنا؟ وهل قال لك أشرف الحقيقة أم نفذ الوصية؟ الله يسامحك يا حبيبي، ويسامحني. لكن ماذا بوسعي أن أفعل؟ ليت الأمر كان بيدي. لو كان هناك أي شيء، أي شيء يمكنني فعله كي أعيدك وأستعيدك وآخذك لي لما ترددت لحظة واحدة، ولو مشيت حتى آخر العالم لأجدك. ولكن ماذا تريد أن أفعل إزاء هذا الحائط الراسخ بيننا؟

أعلم جيدًا ما ستقوله، وقلته، وما قلته أنا. كم مرة تبادلنا هذا الحديث وكم مرة صرخنا بعضنا في وجه بعض؟ وكم مرة بكينا وتركنا بعضنا بعضًا؟ وكم مرة انهارت مقاومتنا وعدنا؟ أعلم أني أعلم من البداية من أنت ومن أنا، ولكني كنت آمل سرًا أن تغير رأيك، أن تتغير أنت نفسك، أو أن تختفي المشكلة. لكن المعجزة لم تحدث، وكنت أعلم أنها لن تحدث ولكني كنت آمل بالرغم من يقيني. من قال إن الأمل واليأس ضدان؟ كنت يائسة وكان عندي أمل.

أنت حبيبي، وأنت تعلم ذلك. وليس هناك ما أضيفه. ويجب أن نترك بعضنا بعضًا، وأنت تعلم ذلك أيضًا. وليس هناك ما أستطيع فعله سوى أن أتقوى بالبعد عنك هذه الأعوام. فابق بعيدًا، ابق بعيدًا من أجلي، ولن أرسل لك عنواني، بالطبع».

* * *

يا أمي: هلا قلتِ شيئا غير «الأصول يا داليا»! كل هذه الأعوام وانت لا تكلين ولا تملين. الفائدة الوحيدة لهذا التكرار هو إصراري على ألا أذكر هذه الكلمة أبدا لابنتي. أريدها حرة كعصفور. أريدها أن تختار بنفسها وأن تنتعش وتزدهر وتنمو وهي تختار. أريدها أن تختار الاختيارات الصحيحة بلا شك، وأريد أن أجنبها كل أذى وكل جرح وكل ألم. ولكني أريدها أيضًا أن تختار اختيارات خاطئة، وأن تتألم كي تتعلم. وإلا أكون قد حرمتها من الحياة نفسها، ودمرت فرصتها فى أن تكون لها قدرة ذاتية على السير وحدها في هذه الدنيا، وحكمت عليها أن تصبح مخلوقًا تابعًا ينتظر نصيحة كي يسير وراءها مغمض العينين، ويعلم الله أن الخطر حينئذ أكبر.

ـ أنا مش هاعيشلك على طول يا قمر.

ـ ماتقوليش كده يا ماما!

ـ ماقولش كده ده إيه؟ انتي عبيطة؟ طبعا مش هاعيشلك على طول، وعلشان كده لازم تعرفي تختاري لوحدك.

ـ أختار إيه؟

ـ تختاري الصح من الغلط.

ـ واعرف ازاي من غير ما اسألك أو اسأل بابا؟

ـ تسألي قلبك.

ـ طيب ما قلبي حايقوللي على اللي انا عاوزة اعمله صح حتى لوكان غلط!

ـ لأ ده مش قلبك، دي رغبتك، أو الشيطان اللي بيدخل جواكي.

ـ واعرف منين قلبي من رغبتي؟

ـ قلبك جوه خالص حايبقي عارف إن ده غلط وان انتي بتبرريه لنفسك علشان عايزاه قوي وبعدين اللي حاينتصر هوه اللي كلامه حا يمشي.

ـ يعني ممكن الشيطان ينتصر؟

ـ طبعا، لكن انتي حاتعرفي إن ده غلط حتى لو عملتيه. المهم عندي إنك تعرفي الصح فين وتعرفي إنك دايمًا ممكن تعرفيه وممكن تعمليه.

ـ طيب وإيه اللي يخليني أعمل الغلط لو أنا عارفاه؟

ـ ممكن يبقى نفسك فيه قوي.

ـ وبعدين؟

ـ وبعدين حاتندمي انك عملتيه.

ـ طيب مش أحسن لو أسأل حد عارف؟

ـ ماهو انتي حاتبقي عارفة، انتي عارفة الصح فين، مش محتاجة

اللي يقولك، انتي محتاجة اللي يقوي إرادتك إنك تعملي الصح.

ـ ومين اللي يقوي إرادتي؟

ـ ربنا.

ـ إزاي؟

ـ لما تغمضي عينيك وتفكري في ربنا وفي إنك بتحبيه وإنه بيحبك وإنك مش عايزة تغضبيه، حاتلاقي نفسك عاوزة تقربي منه وتعملي اللي هو عاوزه.

ـ طيب دي حاجة سهلة قوي يا ماما.

ـ سهله يا حبيبة ماما، سهلة يا روح قلب ماما.

ـ امال ليه الناس ما بتعملش كده؟

* * *

أحدق من نافذة السيارة باتجاه حقول انطفأت خضرتها، ولا تمتد بعيدًا عن حافة الطريق، وبيوت غامقة اللون غير واضحة المعالم. كنت دائمة التفكير في أن الريف أخضر زاهي، حقوله شاسعة وبيوته مبتسمة وسكانه فلاحون جادون وطيبون، وها أنذا في قلب الصعيد، تحت شمس قائظة، وكل ما حولي يبدو قاسيًا جدًا.

وأفكر، لماذا أنظر لحياتي وكأنها لقطات من فيلم؟ لماذا أضبط نفسي متلبسة دائمًا بتأمل الأحداث التي أمر خلالها بدلًا من أن أنغمس فيها؟ لماذا أفكر الآن في هذه الأشياء بدلًا من القضية التي تركتها لتوي وبدلًا من القلق على الطريق الذي يجب أن أقطعه حتى أعود لبيتي وأطفالي؟ قالت ياسمين على التليفون إنها بخير وإنهم سيتناولون طعام الغداء بدون «نانّا» لأنها في مشوار. لم يكن الصوت واضحًا وكان الضابط بادي التململ وأنهيت المكالمة سريعًا. لم يكن هناك مجال لتبادل القبلات مع ياسمين على التليفون ولا حتى للسؤال عن التفاصيل كيلا يكتشف الضابط أني أهاتف ابنتي الصغيرة وليس سكرتيرتي في المكتب مثلما افترض.

تتحرك السيارة مبتعدة عن قسم الشرطة وتأخذ الطريق العمومي وما زال المشهد قائظًا وقاسيًا. كان الشاب قد تعرض للضرب طيلة الليل ـ

على الأقل، وكدمات وجهه وتورم جسده وعدم قدرته على الوقوف تشي بذلك. نظر لي الضابط ـ عمره في عمر الشاب المقبوض عليه ـ وهز كتفيه في نصف اعتذار، أعطيته نظرة الشذر المهنية التي حفظتها وصارت مثل كارت أصفر أخرجه للضباط في الأقسام دون تفكير، تركني أتحدث مع الشاب في شبه انفراد ـ كان هناك كثيرون بالغرفة ولكن على مبعدة. قال لي الشاب إنه تعرض للضرب «والتعذيب» ـ واحمرّ وجهه ونظر في الأرض في انكسار لمدة ثانية ثم رفع عينيه بسرعة وفي ومضة واحدة أبلغني «رسالة» لأحملها لأحد الإخوة. بُهتُّ. كانت الرسالة جد خطيرة، ولم أكن قد قمت بشيء من هذا قبلًا. اعترضتُ بصوت خافت:

ـ لا، لا، أنا ماليش في الحاجات دي، أنا جايه علشان حمايتك القانونية.

نظر إليَّ غير فاهم:

ـ حمايتي القانونية؟!

قالها وصمت في يأس وكأنه اكتشف فجأة أني مجنونة. نظرت إليه في عينيه لحظة قبل أن يحرك نظرته نحو الضباط في آخر الغرفة:

ـ من فضلك يا أخت بلّغي الرسالة، دي حياة ناس.

كان قاطعًا في لهجته، كأنه أمر. نظرت إليه وسكت فجأة، لم أعطه المحاضرة المعتادة عن الفصل بين العمل القانوني والعمل الميداني. فجأة فقدت الرغبة في الشرح وظللت أنظر إليه. لقد تعرض للاعتداء الجنسي ولا شك، هذا ما يقصده الشباب عادة عندما يشكون من «التعذيب» في القسم، خاصة إذا ما كان الحجز لم يتم لأكثر من ليلة، وهذا ما تشي به حالته. وماذا يمكن أن توفر له الحماية القانونية التي أزعم تقديمها الآن؟ لم يضع وقته في مناقشة عبث هذه الحماية، ولم أضع وقتًا في إفهامه أن هذه الحماية وإن جاءت متأخرة له فإنها ستؤثر على معاملة المقبوض عليهم عامة ومع مرور الوقت. كنا كلانا متعبين، والضابط عاد إلينا ونظر متسائلًا ثم أشار لجندي جاء وسحب الشاب من يده نحو سيارة الترحيل. أكملت إجراءاتي المعتادة واطلعت على المحضر وأخذت صورة منه ومن الأرقام وأسماء مناوبة الضباط والجنود وخلافه، ثم طلبت التليفون. وهاهي السيارة تقطع الطريق الملتهب شمسًا نحو بني سويف حيث تم القبض على خمسة آخرين سأذهب لرؤيتهم، وأعود للقاهرة في المساء. هذا دوري في المرور على الأقسام، أقوم به مرة كل شهر كيلا أنسى وأفقد الصلة بالواقع على

الأرض. عرضوا عليَّ إعفائي من هذا العمل المضني والذي يقوم به صغار المحامين، أو على الأقل الاكتفاء ببعض الحالات في القاهرة الكبرى، ولكني أصررت على الذهاب للصعيد مثل الباقين، فالمعركة الحقيقية هنا، والتجاوزات التي لا تصدق تحدث هنا، والمواجهة تقع هنا، وهنا يجب أن آتي كيلا أنسى لماذا أفعل كل هذا.

والآن، ماذا أفعل في رسالة هذا الشاب؟ كانت الرسالة جد خطيرة، وقد يترتب على عدم تسليمها تبعات على بعض الشباب المسلح. ولكني لا أستطيع نقل هذه الرسالة. لا أستطيع نقل رسائل ميدانية. لن أتحول إلى مقاتلة، ولن أشارك في استخدام العنف. كان موقفي واضحًا في هذه المسألة ومنذ اللحظة الأولى، وقلت للجميع إني ضد استخدام العنف وأن العنف لن يؤدي لنشر الدعوة ولا لتقريب الناس من رسالة هي بالأساس رسالة روحية وأخلاقية. وربطت عملي مع الجماعة بقبولهم لموقفي هذا وبالفصل التام بين عملنا وبين استخدام العنف. قوتنا تكمن في ضعفنا. قوتنا تكمن في تفوقنا الروحي والأخلاقي، في قدرتنا على مواجهة الطاغوت بالكلمة، لا بالسلاح. السلاح قوته هو، والقتل ميدانه هو، وسفك الدماء والإرهاب لعبته هو. نعم، قبلت الدفاع عن الشباب المقبوض عليه في قضايا عنف، فأنا أتفهم الظروف والأسباب التي حدت بهم لذلك، وأنا أدافع عن حقوقهم أمام النظام القضائي وهو أبسط حق للمتهم، ولكن هذا شيء والانخراط والتورط في أعمال القتل والنهب شيء آخر تمامًا. وكم من مرة امتحنوني وكم من مرة حملوني رسائل من السجون وأقسام الشرطة لآخرين، ودائما ما رفضت نقلها، ولن أرضخ الآن. لن أسلم هذه الرسالة ولا غيرها. على من اختاروا القتال أن يتدبروا أمورهم بأنفسهم دون توريطي أنا. أنا محامية ولست مقاتلة، ولن أشترك فى دائرة العنف والعنف المضاد.

* * *

«باريس، ١٢ ديسمبر ١٩٧٠

عزيزي نشأت

ذهبت أمس مع مجموعة من أصدقاء الدراسة لحضور حفل لموسيقى الجاز يحييه مايلز ديفيس الذي جاء من نيويورك خصيصا لهذا الغرض. وقد مهد بعض الأصدقاء لحضوري بإعطائي كتب عن الجاز وتسجيلات لبعض المقطوعات الشهيرة، وقد قرأت الكتب واستمعت للمقطوعات ولم تعجبني، ولكني قررت الذهاب استكمالًا للتجربة مثلما كنت تقول

لي. وكانت حفلة صاخبة جدًا ورائعة بشكل من الأشكال، لكن قراري النهائي هو أني أكره موسيقى الجاز، وأسمع إيقاعاتها كأنها مسامير تدق قاع روحي وتثقبه وتحوله لمصفاة تتساقط نفسي من بين ثقوبها وتفنى. موسيقى الجاز هي اكتمال الخواء، هي استنزاف الروح، هي عكس الموسيقى وعكس الطرب. موسيقى الجاز هي علم الفوضى وهي النشيد القومي للعدمية ونداء النهاية. الذي لا أفهمه حقا هو هوس بعض العرب بها، من أين؟ ولِمَ؟

وإذا كانت هذه الموسيقى استشرت في الثقافة الغربية مع انهيار القيم والمعايير وانتشار التخبط الروحي، فكيف تخاطب هذه الموسيقى مشاعر المصريين والعرب هنا؟ أم إنهم من ولعهم بالثقافة الغربية ورغبتهم الذليلة في تقليدها يقنعون أنفسهم بأن هناك خواء في روحهم وأن هذه اللاموسيقى تخاطب أحاسيسهم؟ ولم هذه المهانة؟ ولماذا كل هذا اللف والدوران؟ كانت لي صديقة في المدرسة اشترى لها أبوها معطفًا للمطر مثل ذلك الذي نراه في الأفلام الأجنبية، وكانت شديدة السعادة به لأنه ـ على حد قولها ـ يشعرها أنها في أوربا. مشكلتها الوحيدة أن الدنيا لا تمطر في القاهرة أبدًا للدرجة التي تبرر ارتداءه، إلا أنها ظلت محتفظة به حتى سافرت لندن بعدها بعشر سنوات والتقطت لنفسها صورًا به. أليس هذا جنونًا مطبقًا واحتقارًا للذات؟ أيبلغ بنا الافتتان بالصورة، صورة الغرب، صورتنا متحولين إلى غرب، هذه الدرجة الرخيصة؟ نستورد موسيقى لا هي موسيقانا ولا نحبها ثم نرغم أنفسنا على تعلمها وتعودها وإتقانها وادعاء حبها؟

هل أعطيتك سببًا جديدًا لتقول إني متطرفة؟ أنا لست متطرفة، أنا أكره الفوضى. أكره أن أرى الإنسان يتدنى ويلهث كالحيوان خلف غرائزه دون رادع أو وازع أو قيادة. المسألة بسيطة جدا، تبدو فلسفية وعميقة لكنها بسيطة. هو سؤال واحد: ما هو الأساس الذي يقوم عليه نظام الأخلاق؟ ما هو الأساس الذي يحدد الصواب من الخطأ؟ الغرب اللاديني قرر أن هذا الأساس هو عقل الإنسان ـ رؤيته لنفسه وللحياة، وهذه الرؤية هي التي تحدد ما هو الصواب وما هو الخطأ. في المقابل، رجال الدين طول عمرهم يقولون إن الأساس هو الكتب المقدسة. ولكن وقع الاثنان في جمود وفي فوضى. الغرب اللاديني قادنا للفوضى الكاملة في مجال الأخلاق، فكل شيء لديهم جائز طالما تم بالتراضي: الزنا جائز، واللواط جائز، بل حتى زواج المحارم حلله البعض إن تم بالتراضي. أي فوضى وأي عمى وأي انقياد للغرائز أكثر من ذلك؟ في المقابل هناك جمود رجال الدين، وهو أمر نعرفه ولا

حاجة للإطالة فيه. ولكن كلا الموقفين متطرف، والصواب يقع بينهما بالضبط. فالأساس ليس غرائز الإنسان وإنما روحه التي بثها فيه الخالق، وبالتالي فالأساس للأخلاق إلهي، يحمله الإنسان في قلبه ويعلمه في قرارة ضميره.

هل هذه مسألة معقدة؟ ومن المتطرف فينا، من يريد أن يعيد للإنسان، وللمرأة بالذات إنسانيتها ووجودها المستقل المسئول؟ هؤلاء الذين لا يرون فيها إلا شيء ـ جميل نعم ـ ولكنه مادة للاستهلاك وللرمي حين تستنفذ أغراضها ويخبو لمعانها؟ وكيف تنقاد النساء وراء تلك الفوضى التي تهينهن وتنفيهن؟ هل الغريزة قوية لهذه الدرجة؟ هل غسيل المخ قوي لهذه الدرجة؟ وهل صار القلب بعيدًا لهذه الدرجة؟

وهل صدعت رأسك بترهاتي مرة أخرى؟ لا بد وأنك كنت تنتظر مني خطابًا عاطفيًا، ولا بد من أني قد خذلتك ـ ثانية. ولكن أليس ذلك قدرنا؟ أن أحبك وأخذلك وأن تحبني وتعذبني؟

أعتذر مرة أخرى أني لا أرسل لك عنواني، فأنا لا أريد تلقي رسائل منك، وسأسمح لنفسي أن أواصل الكتابة إليك فهي تعينني على فراقك ونسيانك ـ حتى وإن بدا لك هذا الكلام غير مترابط وغير منطقي. ويمكنك دائمًا، مثلما كنت تقول، أن تمارس حقك في عدم قراءة رسائلي».

* * *

كم أكره حديقة النقابة! مجرد المرور من الحديقة إلى مكتبي يثير فيّ التقزز، أخشى هذه المسافة من الباب الخارجي وحتى عتبة السلم الأولى طوال اليوم، كأنه امتحان سأقدم عليه في نهاية اليوم. وجربت كل الحيل للتغلب على هذه الرهبة. قررت أن أسير ببطء وأنظر للجالسين أتفحصهم بل وألقي بالتحية على بعضهم. وجربت التحديق الصامت والواجم. وجربت عدم النظر والمرور بسرعة. وجربت النظر في الأرض وتجاهل الحديقة بساكنيها. ولم يفلح شيء في التغلب على الضيق الذي يعتريني حين أمر من هذه الحديقة الصغيرة الحقيرة. من هم هؤلاء الناس؟ ولماذا يتلطعون هنا؟ أليسوا محامين ولديهم أشغال أو أسباب للتواجد هنا أم إن النقابة صارت مقهى للعاطلين والمتضجرين؟ ومن هؤلاء النسوة؟ وكيف تحولت الحديقة إلى مرتع للترخص؟ تسألني سارة في تحدٍّ:

ـ وانتي مالك؟ انتي خايفة من البنات دول لأنك ما تقدريش تبقي زيهم،

وخايفة من الرجاله دول لأنهم مقتحمين.

ـ انا مش عايزة أكون زيهم يا حبيبتي، وشوية المقاطيع دول مايخوفوش قطة، دول زي الكلاب اللولو لسانهم مدلدل بره بقهم، وأي واحده ممكن توديهم وتجيبهم، لكن المشهد كله يقرف.

ـ انتي اللي بتقرفي من الأنوثة وتعبيراتها، عايزة تكبتي النسوان وتكبسي على نفسهم زي ما انتي كابتة نفسك.

ـ والنبي بلاش كلام فارغ، مش ناقصاكي. لو كنت كده ماكنتش عرفت واحده زيك.

ـ طيب ماتسيبي الناس تعمل اللي هي عايزاه.

ـ شايفاني ماسكاهم؟ مايروحوا يعملوا اللي هم عايزينه! بس بعيد عن النقابة.

ـ ده إيه بقى؟ فجأة بقيتي عضوه في بوليس آداب النقابة؟ ماتضحكيش على نفسك يا داليا، انتي من زمان عندك مشكلة مع أنوثتك، مضايقاكي.

ـ أنوثتي ليَّ أنا، وللرجل اللي أحب أعيشها معاه، مش للترخص باسم النضال. هي شطارة إن الواحدة مننا تبقى قاعدة كده عبارة عن هدف للصيد؟ مش معقول أبدًا! جمالي جزء مني ومن الأنا الجوانية فيا، مش وقود للمجتمع الذكوري الغرائزي الحيواني الجهول.

ـ خليكي كده مدياها الكلام الكبير بتاعك ده، بس مش عليَّ انا وحياة المرحوم والدك. بعيد عن المرافعات بتاعتك، انتي في النهاية حابسة نفسك في القفص الحديد اللي انتي عايشة فيه ده وخالقة غطاء أيديولوجي عشان تبرري المأساة دي لنفسك يا مسكينة. أنا مش فاهمة جاي من ده عليكي بإيه؟ مالها العيشة والحرية والرجالة والروقان؟ ماتفكيها يا حاجة علينا شوية، هو فيه إيه؟

ـ غطاء أيديولوجي؟! بذمتك مين فينا اللي مديها كلام كبير؟

ـ أيوه! ميعاد التريقة جه!

لك الله يا سارة! كثيرا ما سألت نفسي لماذا احتفظت بعلاقتي بك كل هذه السنوات رغم جنونك البيّن ورغم اختلافنا الذي لا يمكن جسره.

كم من المرات تناقشنا بالساعات حتى نصل للطريق المسدود نفسه كل مرة؟ كم من مرة أعلنت يأسي من إصلاحك برغم روحك الطيبة الدفينة؟ حتى صارت مناقشاتنا ترديدًا آليًا لمواقفنا وكأننا نسجلها للتاريخ. تلوح كل منا بمجموعة الكلمات التي ترمز لمواقفنا المتباعدة ولاختلافنا النهائي، ثم ننتقل لموضوعٍ آخر. وأتساءل أحيانا إن كنا قد تناقشنا فعلا بجد ولو مرة واحدة! طبعا لامتني أمي على علاقتي بك التي ترمز في نظرها للانحطاط الكامل، وطبعا ألمحت أمي إلى أنك تثيرين مكامن الشر في نفسي. أي مكامن للشر يا ماما؟ سارة هي الوحيدة التي استبقيتها من عالم التوهان وغياب المعايير الذي كنت مرشحة له بحكم مولدي وتربيتي المتفرنجة، وقد كافحت وحدي ـ ضدك أنت شخصيًا ـ للابتعاد عن هذا العالم الذي بدا وكأنه لعنة ستصيبني مهما فعلت. وكنت تستنكرين ما أسميتِه تزمتي، أتذكرين كيف قاومت ارتدائي للحجاب؟ وكان رأيك أن الحجاب «للناس الأي كلام» وليس لبنات الناس المحترمة؟ وكيف قاومت عملي في الدفاع عن شباب الجماعات على أساس أن السيدات الفاضلات لا محل لهن في الأقسام ولا يحق لهن الاختلاط بما أسميتِه حثالة النظام الاجتماعي؟ أين تجدين هذه التسميات يا أماه؟ وهل كنت تقبلين لي أي عمل سوى التدريس في الجامعة؟ كيف أشرح لك أني لا أستطيع أن أعمل في نفس المكان الذي يعمل نشأت به؟ لم تفهميني ساعتها، ولم أستطع أن أشرح لك.

وصديقاتي؟ أتذكرين امتعاضك من صديقاتي كافة، بمن فيهم المدرسات في الجامعة؟ قلتِ إنهن مجموعة من الفلاحات اللواتي يحاولن الظهور بمظهر بنات الناس وإنهن متحذلقات ويفتقرن جميعًا للذوق. ووجدتِ في ارتدائهن الحجاب الدليل الدامغ على ضعة أصلهن المفترضة. ولكنك على الأقل قبلت وغامرت مرة بالذهاب معي لحضور عرس إحدى بنات صديقاتي: أتذكرين كيف راعتك طقوس الزواج الإسلامي ودق الدفوف؟ لماذا صدمتك الدفوف لهذه الدرجة؟ عبثا حاولت إقناعك أن الناس أحرار. قلتِ إنك أيضًا حرة فيمن تخالطينه. وأردت أن أقول إني أيضا حرة فيمن أخالطه، ولكني لزمت الصمت أدبًا.

لك الله يا ياسمين يا بنتي.

***

حين قرأت الخبر المنشور في الأهرام علمت أن مصيبة قد حلت عليّ. كان الخبر صغيرًا ومبتسرًا: «هاجمت قوة صغيرة من الشرطة وكرًا للمتطرفين في إحدى قرى أسيوط وقتلت أربعة وألقت القبض على

ثلاثة آخرين». وتذكرت «الرسالة» على الفور، ثم دق التليفون قبل أن تبدأ أفكاري في التسلسل، وفهمت حين دق أن إحساسي كان مصيبًا: هناك مصيبة.

حددوا لي موعدًا في نفس اليوم، ثم اتصلوا بي وأجلوه لليوم التالي. في اليوم التالي كانت الشرطة قد ألقت القبض على سبعة آخرين، وفي اليوم الثالث سقط تسعة آخرون من عناصر التنظيم في محافظات الصعيد، وخلال بقية الأسبوع كانت بكرة الخيط تكر في كل محافظات الدلتا. وعندما عقد الاجتماع أخيرًا كان مئة وخمسة وثلاثون قد ألقي القبض عليهم أو لقوا ربهم. في الاجتماع، قالوا لي إن ما حدث كارثة بكل المقاييس، وكان الغضب شديدًا إزاء ما وصفوه بـ«عدم تحملي للمسئولية» واتهامات بأن الكبر والغرور قد نالا مني وجعلاني أظن نفسي معصومة من الخطأ. وذكرني محدثي بأن الضوء والإعلام والغرور قد نالوا من الكثيرين قبلي، وأني لست في منأى عن هذا الخطر. وعندما استفسرت عما يقصده بذلك وإن كان هذا تهديدًا، نظر إليَّ نظرة لوم أبوي مصطنع وقال إن هذا الحديث لا مكان له بين الإخوة، وإنه ينقل لي نصيحة. قالوا لي إن الجماعة غاضبة جدًا، وإن هناك من يرى ضرورة دعوة المحكمة الشرعية للانعقاد والنظر في مسئوليتي عن مقتل الإخوة الذين سقطوا والقبض على من تم القبض عليه. ولاموني على عدم نقل الرسالة التي طلب مني نقلها، والتي كانت يمكن أن تمنع حدوث ما حدث. وقال أحد الحاضرين إن الامتناع عن نقل رسالة بهذه الخطورة يشكل خيانة للأمانة. وقيل لي فيما بعد إن الكبار الذين يعرفونني قد حموني من غضب الغاضبين ودافعوا عني وأكدوا حسن نيتي. أعدت على مسامع الحاضرين موقفي والذي أعلنته مرارًا وتكرارًا من معارضتي لحمل السلاح، وضرورة الفصل الكامل بين حمل السلاح والعمل القانوني، فنظروا إليّ تلك النظرة الأبوية اللائمة وأعادوا ما ذكروه من قبل. أخرج أحد الحاضرين من جيبه قائمة بمن قتلوا ومن «أسروا» وأسماء زوجاتهم وأبنائهم وأعدادهم وأعمارهم وشرع في قراءتها، سائلًا إياي عما إذا كنت أظن أن ياسمين وزياد أفضل منهم أو أن روحي أغلى على الجماعة من أرواح هؤلاء الذين سقطوا. ثرت، وكدت أفقد سيطرتي على ما أقول: «هل تهددونني الآن؟ هل فقدتم عقولكم؟ هل تعرفون من أنا وما يمكن أن أفعله؟». وما كان ينبغي أن أصرخ، فقد قدمت نفسي لقمة سائغة للمنهج الذي ابتغاه محدثي. «الغرور والكبر مثلما قلت لك، كلنا أعضاء في جماعة واحدة ذات رسالة نبيلة واحدة، وأمرهم شورى بينهم وقد قضت الأغلبية، ولا يجوز شرعًا الخروج على إجماع أمة الإسلام، وهل عملك في سبيل الله وأمته أم في سبيل

نفسك وأولادك وغرور اتباع فكرك أنت؟».

ثم نطق أبي الروحي، الذي تعهدني بالرعاية منذ بداية نشاطي وطالما رعى استقلالي وتفردي. نطق بعد أن ظل جالسًا قرابة الساعة يستمع لهذه الترهات في صمت، فقال إن الفارق بين المفكر وبين السياسي أن الأول متفرد في قراره، سيد، غير ملزم بشيء من خارج تفكيره، في حين ينخرط الأخير بالضرورة في جماعة ويتفاعل مع أقران وأتباع وقيادات، ويلتزم حينًا بما يراه وأحيانًا بما تجمع عليه الجماعة. واستطرد مطولًا في تاريخ الجماعة السياسي والموقف الذي تواجهه حاليًا والقمع الذي يهدد وجود الجماعة، وعاد إلى سجالات نظرية قديمة قتلت بحثًا عن مواقف الشيخين حسن البنا وسيد قطب، وكيف أن هناك أوقاتًا وأوقاتًا، وأن الوضع الآن قد أصبح كذا، وأن الموقف قد تطور إلى كذا، وأن الأغلبية قد خلصت إلى كذا، وهكذا وهكذا، حتى دارت بي الغرفة وسقطت من على مقعدي.

* * *

أفتح عيني شيئًا فشيئًا. أشعر بوهن يزحف عليَّ. لم أعد أشعر بذراعي اليمنى المحشورة تحت كتلة الأسمنت. ما زلت قادرة على تحريك ذراعي اليسرى وإن كنت قد أسقطت حقيبتي في مكان ما. لا أستطيع أن أدير رأسي للنظر. لا بد وأن هناك حفرة ما تحتي. جائعة. هذا هو الشعور المسيطر عليَّ الآن: جائعة ودائخة. وبصيص الضوء الذي يأتي من الأعلى ما زال هناك، ولكن أصوات سيارات الإسعاف ذهبت وحل محلها صمت عميق. صمت يثير القلق. هل كنت جالسة عندما وقع الانفجار؟ لا أذكر. لماذا لا أشعر بنصفي الأسفل؟ الرحمة يارب. ماذا أفعل الآن؟ ماذا يجب أن أفعل؟ هل أظل هكذا واقفة ومحشورة في انتظار الإسعاف الذي لا يجيء؟ كم الساعة الآن؟ لا بد وأن الخبر قد أذيع. هل الأولاد في المدرسة أم عادوا؟ وكيف وأين سيتلقون الخبر؟ ياسمين هي التي تشاهد الأخبار، ولكن زياد يكثر من مشاهدة التليفزيون وقد يأتي على الأخبار عرضًا ويسمع الخبر. يا رب معتز يسمع الخبر قبلهم ويمنع عنهم التليفزيون. ولكن ماذا سيحدث غدًا عندما يذهبون للمدرسة؟ إن شاء الله أكون بالمستشفى وأقدر أتصل بهم. ولكن ماذا يؤخر الإسعاف هكذا؟

* * *

كان اسمه ابراهيم معتز إبراهيم، وكان الجميع يناديه باسم أبيه معتز، وصرت أناديه هكذا أنا الأخرى، لا أعلم لماذا. كان هادئًا، وقورًا في غير

تجهم، قصيرًا بعض الشيء لكن متجانس القوام، يرتدي نظارة سميكة قليلًا، ينظر في الأرض معظم الوقت، يسير بسرعة وينجز حاجياته بسرعة ولا يطيل الحديث، يبتسم قليلًا، ويختفي فجأة مثلما يظهر. لم يكن له أصدقاء مقربون من المصريين أو العرب بالجامعة، وكانت علاقته بالفرنسيين متباعدة ولكن فيها احترام متبادل، وكذلك كان الأساتذة يحترمون عمله واجتهاده. سمعت أن أباه كان قد قبض عليه مع الإخوان المسلمين في مصر منذ عامين، ولكنه لم يكن يدع أحدًا يقترب منه لدرجة تمكنه من السؤال دون أن يبدو ذلك تطفلًا. قال لي عرضًا ذات مرة إن أهله في السعودية وإنه ربما لا يعود لمصر بعد إنهاء الدكتوراه حيث إن هناك عملًا ينتظره في جامعة بالرياض، ووجدت ذلك غريبًا بعض الشيء.

كنت منهكة، مجروحة، وقلبي يراوح بين الحياة والموت. كنت أشعر أني ساقطة، قذرة، وفارغة من الداخل، وأني هشة لدرجة يمكن للريح معها أن تحملني لأذوي بعيدًا. وربما كنت أتمنى أن تفعل الريح ذلك. قضيت شهرين أو أكثر في نقاهة لم تحدث، وعندما عدت لباريس كنت في نفس الحالة التي غادرت عليها. قابلت معتز في جلسة للأصدقاء، ومن يومها وهو حولي، بأكثر الطرق أدبًا، وتفانيًا ورعاية، دون تدخل ودون اقتحام. أخذ بيدي ووقف بجانبي وأوقفني على قدمي وجعلني أسير، وظل خلفي في صلابة وهدوء وأدب جم كأنه شجرة أو حائط أو دعامة من الحديد. لم يكن يتحدث كثيرًا، وأحيانًا لم يكن يتحدث مطلقًا، ولكنه كان يأخذني إلى حيث ينبغي أن أكون، ويجعلني أقوم بالأشياء التي يتعين عليَّ القيام بها. وكان جهله بما حدث لي وبأي شيء عني تقريبا نعمة. لم يكن يسأل أو يشجعني على الحديث حين كنت أقارب هذه الموضوعات. كان صمته رائعًا وشافيًا.

انكببت على دراستي، وما كنت لأنجز الماجستير دون مساعدته، وما كنت لأبقى لإتمام الدكتوراه لو لم يحدث ما حدث بعد ذلك. وتوقفت عن التجارب، وخفتت الضوضاء، ودخلت نفسي لأنظر فيها ولأفهم ما حدث لي وكيف حدث. ووجدت هدوءًا لم أعهده من قبل، ووجدت نفسًا لم أعرفها من قبل. كأن عقلي بدأ في التفتح والظهور، كوردة طال انحباسها تحت الركام ثم خرجت، بدأت أستعيد السيطرة التي فقدتها على نفسي وعلى حياتي، وبدأت رحلة استقلالي. وفي كل ذلك كان معتز واقفًا في الخلفية، مراقبًا في صمت. وعندما طلب الزواج مني بدا لي ذلك أمرًا طبيعيًا، ربما متأخر بعض الشيء. كنت قد أعددت العدة لذلك في ذهني، وقررت ألا أخفي عنه شيئًا إن طلب المعرفة، ولكني

لم أتطوع بمعرفة لم يطلبها. سألني إذا ما كان ما حدث لي منذ شهور ـ أيًا كانت التفاصيل ـ له تداعيات على مستقبلي. كان هذا هو سؤاله الوحيد، وأجبت بالنفي، وتزوجنا في مصر بعدها بثلاثة أشهر.

* * *

كنت أنظر إليهن وأفكر في أنهن جعلنني أشيخ قبل الأوان. لم أفكر في نفسي قبل الآن باعتباري «كبيرة»: كنت دائمًا أشعر أني ما زلت طالبة، حتى ذهبت ذلك العام لأدرِّس مادة التشريع الإسلامي في الجامعة الأمريكية لطلبة الدراسات العليا. حينها فقط أدركت أن هؤلاء الجالسين على الناحية الأخرى هم الطلبة، وأني كبرت. وبدوا لي صغارًا جدًا وبعيدين عني. لم أكن أضحك ضحكهم ولا أبدو مثلهم ولا حتى ملابسي عادت تشبه ملابسهم ـ حتى المحجبات منهن. وذكرت نفسي بأن هؤلاء هم طلبة الدراسات العليا، كيف يا ترى سأشعر لو كنت أدرس لطلبة السنة الأولى؟ لا أذكر شيئًا مما قلته لهم يومها عن القانون والتشريع الإسلامي، ولا بد أني بدوت تائهة تمامًا، وربما كان ذلك جزءًا من ظنهم ـ على الأقل في بداية الفصل الدراسي ـ أني متزمتة. ربما قصدوا تائهة. كلما تكلم أحدهم أمعنت النظر فيه كأنه هبط لتوه من الفضاء، وبعد أسبوعين أو ثلاثة بدأت أتعود على أني قد كبرت وأن هؤلاء هم الطلبة الحقيقيون. ولم أعد للتدريس بعد ذلك الفصل الدراسي أبدًا، رغم إلحاح الجامعة.

صرت «أم البنات» وصار مكتب المساعدة القضائية «مدرسة للبنات». لا يوجد به سوى ثلاثة ذكور إضافة للساعي والمحاسب، وبقية المحامين من الشابات اللواتي تخرجن حديثًا. لم أقصر التعيين على بنات الحركة الإسلامية وإنما ضممت كل من توسمت فيها الخير والقدرة وأبدت استعدادًا للعمل في مجال المساعدة القضائية، برواتبها الضعيفة ومتاعبها التي لا تتوقف مع الشرطة والمباحث وخلافه. في البداية اعترضت قيادات الحركة تخوفًا من دس عناصر من قبل الأمن، لكنهم اقتنعوا بأن دس العناصر لا مفر منه في كل الأحوال، وربما كان خيرًا لطمأنة الأمن أن المكتب لا يقوم بأعمال سرية أو منافية للقانون. ودارت الأيام وكبر المكتب واشتد ساعده وأصبح مدرسة حقيقية للمحاميات. كما انضمت بعض بنات المكتب من غير الملتزمات للحركة لاحقًا، والتزمت بعضهن دينيًا حتى وإن بقين خارج الإطار التنظيمي. صرت أمًا لهن، وصرن يشعرنني بأني قد هرمت.

* * *

دخل قاضي الاستئناف قاعة المحكمة وأخذنا كلنا أماكننا. سينطق الآن بالحكم في القضية التي شغلت مصر كلها على مدار عام وأكثر قليلًا. وأنا أرتعش في داخلي وأتماسك كيلا يبدو عليّ شيء أمام كل هذه الكاميرات ـ كيف يسمح القاضي بكل هذه الكاميرات داخل المحكمة؟ كأنها قضيتي الأولى، وكأن عمري لا يزال ثلاثين عامًا وأنتظر تأكيد قدراتي المهنية من فم القاضي. وكأني لا أدرك الأبعاد الأخرى المتداخلة في حكم القاضي. وكأني لم أقم مصر وأقعدها حول قضية الاحتساب هذه. اللهم لا فخر، ولكني صاحبة هذا الاتجاه الجديد. قلت عشرات المرات للإخوة إننا يجب أن نركز على النظام القانوني والقضائي والنضال من أجله وبشفافية و«عيني عينك» كي نثبت حقوق الله والناس. وهذه القضية ليست عن الزواج الذي أدعو القضاء لفضه، وإنما تأسيسًا لحق الفرد في الاحتساب ودفع القضاء للتدخل لإصلاح منكر حتى ولو لم يثبت وقوع ضرر مادي مباشر على المدعي. هذه ثورة في النظام القضائي ولم أكن أحسبها تتم، لم أكن أحسب الدولة تترك هذا السلاح لنا. أخذته بيدي، أخذت الدولة بكاملها للمحكمة كي يكون لي الحق في أن أغير المنكر بيدي، ليس بقوة السلاح والعصا مثلما يفعل الجهلاء، ولكن بقوة الحجة والقانون، بقوة الفكرة والرسالة. لنر ماذا سيقول قاضي الاستئناف الآن.

اتهمني أدعياء الحرية بأني أمارس وصاية كهنوتية على الناس وأني أسعى للفض بين زوجين ضد إرادتهما باسم الدين ـ وكأن أي اثنين يمكنهما الاقتران إن رغبا دون ضابط أو رابط اجتماعي! وماذا لو رغب اثنان من المحارم في الزواج؟ واتهمني أدعياء الدين بأني أضيع الوقت في «جدل»، وكأن الجدل في حد ذاته جريمة، وأرادوا بدلًا من ذلك عقد «المحكمة الشرعية» وإدانة الزوج بالردة، ثم تعذيره بخطاب، وإنزال الحد عليه إن لم يعلن توبته، ثم على زوجته باعتبارها متزوجة بكافر. قلت لهم إن هذا لا يجوز، وإنه لا يمكن للجماعة التصرف وكأن ليس هناك ولاة للأمر ولا قضاء ومحاكم ودون إعطاء المتهم الفرصة الكافية للدفاع عن نفسه. قلت لا للاثنين، لمدعي الدين ومدعي الحرية. نحن لسنا في غابة، نحن نعيش في مجتمع ودولة وهناك نظام وقانون وهذا ما ارتضاه الله لنا وارتضاه الناس لأنفسهم تمييزًا لهم عن بني الحيوان. لسنا في غابة بلا قانون يصنع فيها كل منا ما يحلو له دون رادع أو ضابط. وإن كان البعض قد أحل لنفسه هذه الحياة فهذا شأنه هو في حياته الخاصة، فلا يجب على المجتمع أن يسعى لمعرفة من يعاشر من وكيف. لكن أن يخرج الناس للعلن ويريدون استخدام روابط المجتمع بما يخالف قواعد هذه الروابط وضوابطها فهذا أمر يخص المجتمع وليس الفرد فقط. كون فلان يعاشر فلانة هو أمر يخصه

وحسابهما عند الله، أما حين يريد فلان وفلانة أن يعلنا ذلك باعتباره زواجًا فذلك أمر يخص المجتمع ككل، حيث إن الزواج له تعريفه وضوابطه ونتائجه على حياة المجتمع ككل.

على الجانب الآخر، لا يحق لمجموعة من الشباب المتدين أن تأخذ القانون بأيديها وتحل نفسها محل الدولة حتى وإن فشلت تلك في أداء واجباتها، وإلا تحول المجتمع إلى غابة يقوم فيها كل صاحب وجهة نظر بتنفيذ قانونه الخاص. ثار الشباب وبعض القيادات. تناقشنا وتحاججنا، ثم قرروا ـ على مضض ـ إعطائي فرصة «للتجربة». ولكن لماذا أكرر الآن كل هذه الحجج والمبررات؟ سينطق القاضي بالحكم الآن ويتبين ما إذا كنت أنا على صواب أم هؤلاء الشباب.

* * *

كان ذلك الصيف هو المناسبة الأخيرة التي رأيت فيها أبي. فبعد زواجي، قررنا ـ معتز وأنا ـ أن نقضي الصيف كله في مصر، متنقلين بين «البوسيت» في مرسى مطروح، وبيت العجمي، وبيتنا الجديد في روكسي. وكنت أرى أبي عندما نكون بالقاهرة حيث رفض الانضمام إلينا في الإسكندرية متعللًا بانشغاله بعمله، وإن كنت متأكدة أنه لم يستطع التأقلم على الحياة تحت سقف واحد مع رجل ينام مع ابنته، حتى لو كان زوجها. التقينا ثلاث أو أربع مرات على العشاء أو الغداء خلال هذا الصيف، ولا أذكر أننا تكلمنا أكثر من التعليقات العادية حول الطقس، والصحة، وتوسع الإرسال التليفزيوني والأثر المتوقع لذلك على الثقافة، والمقارنة بين الزمالك ومصر الجديدة وما آل إليه حال الزمالك برحيل معظم أهلها للخارج واحتلالها من قبل الطبقة الجديدة من ضباط الجيش السابقين ومسئولي الدولة. لم نتبادل حديثًا خاصًا واحدًا هذا الصيف، ولا قبله فيما أتذكر. ثم سافرت مع معتز إلى البوسيت في مطروح لقضاء آخر أيام شهر العسل، وعلى الإفطار في صباح اليوم التالي جاء رجل أسمر وانحنى أمامنا وقال إن لنا تليفونًا في الاستقبال. جاء صوت أمي آمرًا بأن نعود بأقصى سرعة للقاهرة لأن بابا تعبان، وعندما وصلنا إلى باب الحديد أدركت من نظرة عم عبده السائق أن بابا قد مات.

ورحلنا إلى فرنسا بعد الأربعين مباشرة، وظللنا هناك حتى أنهيت الدكتوراه. خمس سنوات جئت خلالها لمصر أربع مرات لحضور سنوية بابا، حتى لم أعد أذكر أمي إلا في سوادها الصارم وأوامرها للسفرجية والخدم وإيماءات صامتة ومكتومة الحزن للأقارب والمعزين. وفي الليل، بعد أن يرحل الجميع ويخفت صوت القرآن، كنت أتقلب

وحدي في فراشي في صمت. وحدي في هذا المنزل الكبير الخاوي، في هذا الصمت المطبق، أتمنى لو أن أبي تحدث معي ولو مرة قبل أن يرحل عنا إلى الأبد. أحاول أن أتذكر صوته فلا أستطيع.

* * *

«باريس، يونيو ١٩٧١

عزيزي نشأت

أتمنى من الله أن يصلك خطابي هذا قبل سفرك، وسأرسله فور إنهائي له بالبريد المستعجل. وصلني خطابك الأول والأخير مثلما أسميته، وشكرًا على إعادتك لكل خطاباتي السابقة. هل أفهم من هذا أنك ـ أخيرًا ـ ستدعني أذهب لحال سبيلي؟ وأنك تعيد خطاباتي كي أمضي قدمًا في حياتي دون ارتباطات؟ كي لا يكتشف زوج المستقبل أني كنت متيمة برجل آخر؟ رجل رفض أن يغير مبادئه ـ ولو مرة ـ من أجلي؟

طبعًا عرفت عنواني. كانت سذاجة مني أن أتصور أن أشرف فهمي سيحفظ السر، كان يجب أن أدرك أنه لن يبقي فمه الكبير مغلقًا لمدة طويلة ـ برافو أنه صمت كل هذه الشهور. تقول في خطابك إني ساذجة في ظني أنك لن تستطيع معرفة العنوان لو أردت، وأن كل الناس هنا تعرفني وتعرف أين أنا: الجامعة، المستشار الثقافي، الأصدقاء، وحتى بائعة الكستناء المشوي ستدلك أين تسكن المصرية السمراء في الحي السادس عشر بباريس! أنت وحدك الذي تظن أني مركز الكون، لا أحد هنا يعرفني أو يأبه بي (ولاحظ من العنوان ـ يا أستاذ ـ أني أسكن في الحي السادس، لا السادس عشر).

ولكن لماذا تأتي؟ ما الذي تريد أن تتحدث فيه معي؟ ليس عنا بالتأكيد ـ هل عاد هناك شيء اسمه «نا»؟ هل يمكن أن نستخدم نون الجماعة حين نتكلم عني وعنك؟ هل تذكر حين كنت تسألني ما إذا كان المصريون جماعة أم مجموعات تتجاور وتتعايش؟ اسمح لي أن أعيد السؤال إليك، ليس عن المسلمين والأقباط، بل عني وعنك.

ماذا لدينا لنتكلم عنه. ماذا بقي لنا سوى الألم والذكرى والألم مرة أخرى؟

أرجوك لا تأت، لا داعي.

أو قل لي الآن وفورًا إن هناك شيئا جديدًا يستحق مجيئك. أنا لا أريد أن أكون مي زيادة ولا أريدك أن تكون جبران. وأعتذر على خطاباتي التي أرسلتها. كنت أظنها ستعينني والآن أدرك أن ذلك كان عملًا أحمق من المرأة المستهترة بداخلي، وأعدك ألا أكتب إليك ثانية، أبدًا. ولكن من فضلك لا تأت. ليس بيننا ما يمكن الحديث عنه. لن أفعل ما تريد كي أكون زوجتك، ولن تفعل ما أريد كي تكون زوجي، وليس أمامنا إلا أن نمثل أدوارنا في فيلم الحب المستحيل ـ ولكني سئمت هذا الفيلم وسئمت الألم ولا أريد أن أمضي في هذا الطريق أكثر من ذلك.

لا تأت. لأني أحبك، و لأني لن أستطيع أن أكمل طريقي إن ظهرت مرة أخرى في حياتي. اذهب لمكان آخر، أكمل دراستك في سويسرا أو في بلجيكا أو اذهب لأمريكا. إنجليزيتك جيدة، فاذهب هناك. اذهب لأي مكان ولكن ابتعد عن الحدود الفرنسية، لعام واحد فقط كي أنهي ما بدأت. لا تأت وتهد عامًا كاملًا من مقاومة نفسي ومقاومتك. من أجلى، لا تأت، فأنا أحبك أكثر مما يمكنك أن تتصور، فلا تأت».

* * *

فراشي حديدي أخضر اللون، ذو أعمدة وتلفه ستائر رقيقة بيضاء شفافة تعلوها ناموسية واسعة تخفف درجة الضوء داخل الفراش. معتز هو الذي أصر على شرائه، وشعرت بالخجل منه أمام نظرات أمي. لم أكن متأكدة إن كانت تعارض لأنه يشبه «سراير الفلاحين» مثلما قالت، أو لأنه يشي بالرغبة بشكل فاضح. لكني أحببت الفراش فور أن رأيته، وتركت معتز يدافع عنه وحده حياءً مني لا أكثر. ولم أر عيبًا في أن يكون لي فراش مثير أرقد فيه مع زوجي. ومن قال إني لا امتلئ أنوثة تريد أن تتفجر على أعتاب رجلها؟ ومن جاهل أحمق قال إن الأخلاق والالتزام يعنيان أن تكون المرأة متحجرة وبلا مشاعر ولا رغبات؟

فراشي أخضر اللون تلفه غلالات رقيقة. شهد ضعفنا وشهوتنا، شهد عرينا، ولعبنا ولهاثنا وانكسارنا باللذة والتعب. شهد أيامنا ولياليبنا الحلوة، سهراتنا للفجر وجنوننا واكتشافنا لبعضنا. شهد مغامراتنا وامتلاءنا وانفجارنا. شهد هناءنا ووهننا ونومنا الحاني. شهد صبحياتنا وقهوتنا التي كنت آتي بها لنا في الفراش. وشهد فتورنا ورتابتنا وضجرنا وتهربنا وتجاهلنا بعضنا لبعضٍ، وشهد انقطاعنا.

فراشي أخضر اللون تلفه غلالات رقيقة. شهد وحدتي قبل وبعد انتقال معتز للغرفة الأخرى، وشهد تقلبي الذي لا ينتهي طوال الليل. شهد

بكائي وارتجاف جسدي بالحمى والوحدة والحنين. شهد صراخي برغبتي المكبوتة وبغضبي من ضعفي. شهد استسلامي المؤقت اليائس الغاضب وخجلي من نفسي ومن جسدي. فراشي أخضر اللون وهو ـ مثل فراشكم ـ رفيقي، يعرفني أكثر من أي شيء أو أحد.

أعلم كيف ينظرون إليّ. وأعرف ما يطلقون عليّ من أسماء، وأعرف أنهم لا يعرفون عني حقًا إلا أقل القليل. يقولون المرأة الحديدية، الساعة السويسرية، الأيدولوجيا تمشي على الأرض وقائدة سرايا التعصب، الشيخة داليا. وحاولت إفهامهم أن المرأة يمكن أن تكون مؤمنة ومسلمة دون أن تكون قدت من حجر، أن الالتزام في جوهره فهم للذات ومرشد لها لا قفص حديدي نحشرها فيه حتى نقتلها أو نكسرها. حاولت إفهامهم لكنهم لم يريدوا أن يفهموا سوى أوهامهم وأفكارهم المسبقة. رجال لا تسمعين منهم سوى اللغط أو الهراء أو الصراخ. ينظرون إليك ولا يروك، يستمعون إليك ولكنهم لا يسمعون، وكأن بينك وبينهم جدار. حتى نشأت، يقبع خلف جدرانه ولا يصله صوت، حتى لو صرخت. ينظر إليَّ في هدوء ويبدأ من جديد في الحديث، وكأن ما قلته من كلام مجرد رغاوي لا علاقة لها بالموضوع. حتى زملاء العمل والنضال والناشطين ـ بالذات الناشطين. ينظرون إليك وتكاد ترين التساؤل عن صحتك العقلية في رؤوسهم. ولم أعد أعرف أيهم أكثر خطرًا: أناس منحلون بلا قيد يلمهم ولا قيم تردعهم مثل أشرف فهمي، أم «إخوة» يقودهم الجهل وضيق الأفق مثل سلمان أحمد؟ يغرقك الإخوة الجاهلون في آيات للقرآن اقتطعت من سياقها اقتطاعًا. لا هم قرأوا تفسيراتها ولا يعلمون فيم أنزلت. ولكن زين لهم خوفهم من النساء ورغبتهم في إخضاعهن أن يستخدموا لفظها، وأحيانًا مجرد أجزاء منها. ويغرقك الجاهليون الذين يودون اتباع غرائزهم دون رادع في مصطلحات التحرر الكبيرة التي تؤله المخلوق وتمجد أخطاءه بدلًا من تقويمها. وكيف نقومها إذا لم يكن هناك قاعدة نحتكم إليها؟

في كل الحالات رجال يقودهم العمى والعناد الذي تحكمه رغبة طفولية في أن تصفق لهم أمهاتهم وأن يشعروا أنهم أفضل من بقية الرجال. ويجروننا جميعًا خلفهم في هذا الغباء. وعبثا تحاول إفهامهم أن الله نور للهداية، وأن الإنسان فيه من طين الأرض وفيه نفخ من روح الله، وأن القصة كلها تكمن في إعلاء الجانب الروحي من الإنسان وتمكينه من قيادة الجانب الآخر، وأن الغريزة طين، ولكنها أساس البشر، خلقنا منها وبها نعيش، هي مركبتنا التي نمتطيها. لكنهم خبل. ويستولي الخبل عليهم أكثر إذا ما سمعوا هذا، وكأنهم يخافون فقدان

السلاح الأكيد الذي وجدوه ـ فيما يبدو ـ لإخفاء النساء لا لتجميل الحياة وإصلاح الإنسان.

يا ابنتي، لا تسيري خلف هؤلاء الرجال. أحبي أنوثتك، أحبي جسدك وامتلكيه، ولكن قوديه ولا تجعليه قائدك.

يا ابنتي، اجعلي روحك حكمًا لك، واتبعي نور قلبك، اتبعي هدي الله في قلبك، ولو أفتاك الناس وأفتوك.

* * *

منذ ربحت قضية الاحتساب الأولى وأنا نجمة سلك المحاماة والأوساط الإسلامية في مصر. لم أكن أتصور أن يحدث كل ذلك بسبب قضية واحدة! كأن بابًا انفتح ودخل منه هواء كان محبوسًا منذ عقود. كأن سدًا انهار وغمرت المياه الضفتين من بعده. فجأة، انهارت مقاومة القيادات الإسلامية المتحفظة على نشاطي، وانهال عليّ التأييد والدعم في كل صوره، وتم توفير الكوادر الشابة التي كنت أطلبها منذ سنة، وتم استكمال تمويل المكتب وإزالة العقبات الأخرى التي كانت تعترضه، وأصبحت تلك القيادات المتحفظة نفسها ترسل لي قضايا جديدة واقتراحات بقضايا كل أسبوع تقريبًا، وبدا وكأن الإخوان قد قبلوا أخيرًا وجود سيدة في القيادة.

والمحامون.... تلك قصة أخرى. لم أكن أدري أن الناس يحبون النجاح لهذا الحد، كنت دائمًا أظن أن الناس يكرهون الناجحين، ولكن الذي حدث معي هو العكس تمامًا، إذ صرت بين عشية وضحاها نجمة الوسط، مثل مشاهير السينما. أدخل مبنى المحكمة فيأتي شباب المحامين للسلام علي، وتسير البنات معي وكأننا صديقات قدامى، ويتوقف كبار المحامين لتحيتي، ويهز لي القضاة رؤوسهم بالتحية من بعيد، وتأتيني أفواج من المحامين للمكتب للتعرف أو الثرثرة أو أداء التحية وإبداء الاحترام أو اقتراح مشروعات أو التوصية على محامي أو محامية شابة. وكثرت دعوتي للنقابة وجلساتي هناك (وبدأت محاولاتي «لتحرير» حديقة النقابة من المتلطعين والمترخصات)، وبدأت أصوات تقترح عليَّ الترشح لمجلس النقابة في الانتخابات التالية كمستقلة، ثم أخبرني أبي الروحي إن أغلبية القيادة تستحسن فكرة ترشيحي في انتخابات النقابة على القائمة المستقلة.

وفوق كل ذلك جاء الإعلام العالمي. لا أذكر أني تحدثت بلغة أجنبية كل هذا القدر منذ عدت من فرنسا! صرت خبيرة بالإعلام الدولي وأعرف

مراسلي وكالات الأنباء وكبريات الصحف معرفة شخصية، بل وأعرف معظم صحفيي وكتاب محطات التليفزيون والإذاعة الأجنبية بالاسم، وبطريقة ما حصلوا جميعًا على أرقام هواتفي في المنزل والمكتب، بل أصبحوا أحيانًا يطلبونني في النقابة في يوم لقائي الأسبوعي مع صديقاتي هناك. وبعد الصدمة الأولى، والتلعثم في البحث عن تلك الكلمة الفرنسية أو هذا التعبير الإنجليزي، واكتشاف أن المذيع يمكن أن يقطع الحديث قبل أن تنهي جملتك وقبل أن تقول ما تريد، وأنك تشعر بالضياع وبالخديعة فور قطع الإرسال، وبعد تعلم ألا تنفقي الوقت كله في نفي التهم الموجهة إليك وأن تركزي على ما تريدين إيصاله للمستمع وليس على ما تريدين دحضه، وبعد تعلم أن تكون جملك قصيرة، وأن تبتعدي عن المناقشات الأكاديمية والمحاجات التي يتجاوز طولها ٣٠ ثانية، وأن تتجنبي القضايا الخلافية التي لا تقع في صلب الموضوع، وألا تضيفي أعداء لا لزوم لهم، وأن تخففي من اللغة مرتين: مرة لإزالة أثر البلاغة العربية ومرة كي لا تبدي متطرفة في أحكامك، وبعد أن تتعلمي تفادي التنبؤ بما يحدث في المستقبل، وأن توردي الاتهامات والأحكام القاسية باعتبارها «وجهات نظر» يرددها البعض، والكوارث المحيقة باعتبارها «مخاطر»، وأن تشكري محدثك وتناديه باسمه الأول، عندما تقومين بذلك كله، تكونين قد بدأت تعلم كيفية الحديث مع الإعلام الأجنبي، وعندها تدمنك محطات التليفزيون والإذاعات والصحف.

* * *

ـ باقولك دي آخر محاولة، وديني لو فشلت ماحارجع إلا اما أقفلكم الجنينة دى.

ـ استهدي بالله يا دكتورة، أدينا قاعدين أهو، ودلوقت أصحابك المشايخ ييجوا يستولوا على القعدة.

ـ أنا عارفة هم اتأخروا كده ليه!

ـ إنتي خايفة الباقيين ياكلوكى؟ ده انتي عضو مجلس نقابة قد الدنيا.

ـ طيب بذمتك بصي حواليكى، بقى ده منظر؟

ـ حايعملولك إيه أنا مش فاهمة!

وبدأت «المشايخ» في الوصول. لم يكن كلهن من المحجبات ـ برغم

سخرية سارة التي تردد أنهن محجبات دون أن يعرفن. مجرد سيدات محترمات. هؤلاء هم من تبقى من صديقاتي، إضافة لسارة والتي أحبها مثل أخت ولكن لا أستطيع أن أكون مثلها، وأحيانا لا أستطيع حتى أن أجلس معها في مكان عام. قامت سارة بمجرد وصولهن وانتقلت لمنضدة أخرى في آخر الحديقة، وظلت تنظر إليَّ من بعيد وكأنها تشجعني على المضي قدما في مباراة ملاكمة خيالية. كانت صديقاتي مندهشات من اختيار المكان، فلم نلتق من قبل في حديقة النقابة وهن يعلمن جيدًا مدى كرهي للمكان، لكنهن وافقن على اقتراحي ـ فكرة سارة ـ أن نأتي ونحتل الحديقة مرة في الأسبوع بحيث نفرض وجودنا وإيقاعنا ولا نتركها للانحطاط الذي أشكو منه. كان لطيفًا من سارة أن تتآمر معي على عالمها، فهي لا ترى عيبًا في الحديقة ولا روادها ولا حالة الانفلات السائدة فيها، وقالت لي إنها تفضلها مكانا مفتوحًا ومن حق «المشايخ» أن يأتين «ويقرأن فيها إن أردن». وأعجبتني الفكرة ووافقت صديقاتي. وهانحن هنا، نرفع علمًا جديدًا في هذه الأرض الخربة.

ابتسمت الدكتورة شيرين وهي تقص علينا أحداث الأسبوع بكلية الحقوق حيث تدرس القانون الدستوري. شيرين محجبة، ممتلئة، حادة النظرات وصوتها رفيع ثاقب. كنت دائما أتعاطف مع طلابها الذين يتعين عليهم الاستماع لنبرة الصوت هذه لساعات لا بد وأنها تمر ببطء. قابلت شيرين أول مرة في فرنسا منذ عشر سنوات حيث كانت قد لحقت بزوجها الذي يعمل بالسفارة المصرية، وكانت شيرين محبطة وتشعر بالملل، كما كانت مجروحة بعد قصة حب فاشلة مع زميل لها بالجامعة غريب الأطوار اسمه فخر الدين أو شيء كهذا وانتهت القصة نهاية مأساوية ـ لا أذكر إن كان قد مات أو حاول الانتحار حين تركته شيرين، وهو ما أصابها بصدمة عنيفة زادت من أزمة فشل قصة الحب ذاتها. اقترحت عليها وقتها أن تكمل دراستها وبالفعل أتمت الدكتوراه في ثلاث سنوات وعادت مع زوجها وتم تعيينها بالكلية. كانت كأختي الصغيرة، ولكن سارة ـ التي ما زالت ترمقنا من بعيد وتبتسم وهي تحدث شخصًا مجهولًا ـ لم تكن تحبها. كان هناك أيضًا منى، طليقة الصحفي المعروف أشرف فهمي وأكثر من يكرهه في مصر. وقد تحجبت بعد طلاقها منه نكاية فيه لا إيمانًا بالحجاب، وتحرص على لقائنا الأسبوعي لتتابع أخبار أشرف وتحرضني ضده. كنا ثلاثتنا ـ هي وأنا وأشرف ـ أصدقاء وزملاء بالكلية، وظللنا أصدقاء بعد زواجهما. ثم انقطعت علاقتي بهما حتى طلاقهما، حيث توليت إجراءات الطلاق وكيلة عن منى بناء على إلحاحها. كلما نظرت إليها تذكرت عدم قدرتي على فهم الرجال: لماذا تركها أشرف؟ ماذا فعلت؟ فيم قصّرت؟ وهل

عجز عن احتمالها، مجرد احتمالها من أجل ابنته بينما يواصل نزواته التي تعرف بها مني وتتغاضى عنها؟ كانت منى وأشرف كنصفين نما سويًا وتداخلا حتى صار المرء يعجز عن تمييزهما بعضهما عن بعض. هل يقطع الرجل جزءًا منه بهذه البساطة ويمضي قدما غير عابئ؟ ومن أجل ماذا؟

قطعت الضحكات الصاخبة الآتية من منضدة مجاورة أفكاري وحديث منى، والتفتنا لمصدر الضحك ولمحت بطرف عيني سارة وهي تشير من آخر الحديقة إشارة التهدئة. لك الله يا سارة، إنها تظنني فعلا من شرطة الآداب! لا فائدة من الشرح، ستفهم سارة ما تريده، ولا بأس. رانيا، طبيبة أطفالي وأم لطفلين في مثل عمر أولادي، هي السيدة غير المحجبة الوحيدة في المجموعة. وهي تأتي للقائنا الأسبوعي «كفسحة» بعيدًا عن البيت والحياة الرتيبة لطبيبة متزوجة من رجل أعمال كبير وينتمي لعائلة ممتدة مليئة بالحموات والسلايف وبنات العم والخال وغير ذلك من مصادر التعذيب العائلي. هي بالكاد متدينة ولكنها ملتزمة وحلوة المعشر. وأخيرًا الشيخة الحقيقية ـ غيري ـ الدكتورة منال أستاذة الفقه الإسلامي وأم لثلاثة أطفال ومناضلة حقيقية دخلت السجن على الأقل مرتين. وحين نكف عن حديث الأطفال والبيوت والأمهات ونعود للسياسة والمجتمع ـ في مواجهة احتجاجات منى ورانيا ـ فإن النقاش بين منال وشيرين وبيني يسخن ويعلو صوتنا وننسى أين نحن. وعندما أنهت منى الجدال الحامي الوطيس بنكتة قتلت المناقشة، انتبهنا إلى أن الحديقة قد خلت تمامًا من روادها. نظرت لسارة فابتسمت ورفعت إبهامها لأعلى، علامة النصر.

* * *

ثم جاءت قضية الاحتساب الكبرى ضد أشرف فهمي. بدأت هذه القضية بإيعاز من بعض القيادات، ورفضت في البداية بسبب العلاقة الشخصية القديمة التي كانت تربطني بأشرف. صحيح أننا تحولنا لأعداء منذ سنوات طويلة، وأني اكتشفت منذ زمن أني لم أكن له أي احترام في يوم من الأيام، إلا أني لم أرد أن يتهمني أحد ـ أو أن يظن أشرف نفسه ـ أني أدخل في هذه القضية لأسباب شخصية.

ثم كان هناك نشأت، وهو محامي أشرف فهمي، واحتمال أن يتولى الدفاع عنه إذا رفعت أنا هذه القضية. وإن كان من الوارد أن يلجأ أشرف لمحام آخر نظرًا للبعد الديني للقضية، فإن مجرد احتمال أن أواجه نشأت في المحكمة كان كاف لامتناعي عن تولي هذه القضية. لا

شيء هناك، لا شيء سوى رغبتي في عدم الاحتكاك. أعلم أني تجاوزت تلك القصة منذ زمن بعيد، ماتت هذه القصة وما كان قد بقي منها على يد كلود إيميه، ولكني لا أريد اختبارات أخرى ولا أريد أن أثبت شيئًا، لا لي ولا للآخرين. كل ما أريده هو بعض الراحة وقدر من السيطرة على الأمور من حولي.

رفضت الفكرة وقاومتها، وحاولت إحالتها على محامين آخرين، لكن الإلحاح كان شديدًا. قلت إن القضية غير مضمونة، فما قاله أشرف عن الدين والدولة أمر كرره الكثيرون من قبل، ويمكن لأي محام شاطر إدخاله في باب التعبير عن الرأي ولا يتضمن بالضرورة ما يثبت أنه قد كفر بالله سبحانه وتعالى. لكنهم أصروا أن ذلك سبب أدعى لأن أتناول القضية بنفسي وأنها تحتاج لحنكتي أنا. قلت إن هناك كثيرين من أساتذة الجامعة قالوا وكتبوا أشياء أكثر تعريضًا بالعقيدة، فقالوا إن أشرف شخصية عامة وإن نجاحنا في فصله من رئاسة تحرير المجلة على خلفية خروجه عن العقيدة سيكون له أثر مدوٍ وسيجعل الباقين يحسبون ألف حساب قبل التفوه بما يخالف العقيدة. قلت إن القضية صعبة فعلًا وغير مضمونة. قالوا سنساعدك. قلت كيف؟ فابتسموا وقالوا لا تقلقي يا دكتورة، سنساعدك.

واصلت الرفض. كنت أشك في أنهم يريدون توريطي في قضية يعلمون مسبقًا أنها خاسرة كي أخسر معها الشعبية التي حققتها. كانت القيادات التي تلح عليَّ هي نفسها التي طالما قللت من شأني وعارضت نشاطي باعتباره «شغل نسوان»، نفس القيادات التي ترى في القوة وحدها لغة للتعامل السياسي. لماذا يريدون مني الآن أن أرفع هذه القضية؟ وهل يستطيعون تحمل نصر كبير آخر لي؟ أم إنها محاولة لتدبيسي في قضية خاسرة وتقليص دوري في الحركة؟

أصررت على الرفض، فاستخدموا السلاح الثقيل ضدي. ذات يوم، دعوا لاجتماع صغير حضره عدد مختار من القيادات وحضرته أنا باعتباري مستشارة قانونية. كان موضوع الاجتماع هو أشرف فهمي، وظننت أنه مخصص لإقناعي برفع القضية وأعددت نفسي للدفاع عن موقفي. لكن تبين فور بدء الاجتماع، وسط الابتسامات الأبوية للإخوة، أن الموضوع مختلف تمامًا. كانوا ثلاثة من قيادات الصف الأول، ومخولون باتخاذ قرارات تنفيذية، أما أنا فقد طلب تعقيبي القانوني فقط. في البداية، أحيط المجتمعون علمًا بأن معلومة وصلت بنية خلية صغيرة لإحدى الجماعات المستقلة اغتيال أشرف فهمي، وطرحوا السؤال عن كيفية التصرف في ضوء هذه المعلومة وما إذا كان يجوز شرعًا

إبلاغ الشرطة، أو إبلاغ الشخص المعني، أم يجب التغاضي عن المعلومة. وأسقط في يدي. فهمت على التو أي لعبة يلعبونها معي. وتساءلت في تهكم عن معنى دعوتي لهذا الاجتماع وماهية «الرأي القانوني» الذي يمكن إبداؤه حول هذا الأمر. كانوا ببساطة يفهمونني أنني إن كنت أرفض الإذعان «للتعليمات» وأريد المشاركة في القرار فعليَّ أن أقبل التورط فيما هو أكبر. قال لي أحد المشاركين في الاجتماع ـ قبلها بعدة أيام ـ إنني أحاول جني ثمار عمل لا أشارك فيه بل وأتعالى عليه وأنتقده. وإنني ساذجة إذ أظن أن قوة الحركة تأتي فقط من العمل السياسي السلمي الهادئ الذي أدعو إليه، وأن استمرار ذلك أمر غير مقبول وعليَّ أن أختار: إما أن أكون في القيادة وأتحمل مسئولية عمل الجماعة ككل بما في ذلك الأشياء التي لا تعجبني، أو أن أعود لدوري كعضو يتلقى التعليمات وينفذها دون مناقشة ولغط لا لزوم له.

* * *

عدنا إلى مصر بعد أن أنهينا الدكتوراه، كلانا، في منتصف السبعينيات، على عكس خطط معتز الأصلية، وذلك لعدم رغبتي في الإقامة بالسعودية حيث يقيم أهله منذ منتصف الستينيات هربًا من وطأة الاضطهاد الأمني وقتها. كان لأهل معتز إمبراطورية حقيقية من الأعمال والمعارف في السعودية، وفي المرات القليلة التي زرناهم فيها، كنت أشعر أنهم سعوديون بالكامل، ومرات عديدة ظننت بعض أفراد عائلته ضيوفًا من الزوار القادمين للتحية ـ وكان هؤلاء كثر، ورأيت في منزلهم شيوخًا كبارًا وأفرادًا من العائلة المالكة. كانت حياتهم هناك مستقرة وتخلو من أي من مصادر الشكوى التي نسمعها عادة من المغتربين المصريين في بلدان الخليج، ولكني كنت أريد العودة لمصر، ووافق معتز بكرمه المعتاد.

لم نكن قد أنجبنا، بالاتفاق بيننا، حتى نتفرغ لإنهاء الدكتوراه، ولكننا لم نتمكن من الإنجاب بعد ذلك عندما أردنا. ومع فشل المحاولات المتكررة، ومع مشهد الدم الشهري المحبط، كان قلبي يغوص أكثر في اعتقادي بأن الله يعاقبني على جريمتي القديمة. هل يمكن لغلطة واحدة، زلة واحدة، أن تخنق حياتك إلى الأبد مهما ندمت عليها؟ وكلما حاولنا، كان وجه كلود إيمييه يأتي لزيارتي في المنام ويقض مضجعي. كم مرة صحوت مذعورة أصرخ، ومعتز النبيل يصحو ويضمني غير فاهم، غير راغب في السؤال. شهر بعد شهر، والصمت يكبر بيننا، ومحاولاتنا تستمر في الفراش، وتتحول شيئًا فشيئًا لمحاولات،

لتجارب، بيأس. وفراشي الأخضر يرى الصمت يستحيل بيننا فتورًا، واللذة ترحل ويحل محلها ممارسة أشبه بالرياضة، نحو الهدف، برقة وبتصميم لكن دونما رغبة. ثلاث سنوات طوال من الانحدار نحو الفتور الكامل. ثم حبلت. كما الوردة صرت. كالشجرة التي طرحت فواكه ووردًا. أسير في البيت والشارع أتهادى فخرًا. صرت أكثر حرارة، وأكثر أنوثة، وأكثر مرحًا، وأكثر عنفوانًا، وأكثر كل شيء، صرت امرأةً أكثر، وكأن الدم في عروقي قد اختلف. وسرت موسيقى خفية من جديد في البيت وعلى وجه معتز الذي انفرجت خلجاته عن ابتسامات كنت أجهل وجودها. صار وجهه مختلفًا، كأن وجوهًا جديدة نمت له، وأصبح تواجده في البيت أطول، وعينه عليَّ أكثر، وحين أنحني لألتقط شيئًا أجد يده تسبقني. وعاد اشتياقنا بعضنا لبعض، وعاد لعبنا في الفراش، وصرنا أشقى، وصرت أجن كل ليلة بجسمه وبجسمي الذي يتفجر تحته وفوقه وحوله، صرت عاصفة من الأنوثة أجتاحه كل ليلة، ويطلق صواعقي كل ليلة. وقالت الطبيبة إن كل شيء يبدو طبيعيًا. ثم نزفت ذات يوم أثناء قيلولتي، ومات الجنين في نفس الليلة.

*** * ***

لا شيء أحب إلى قلبي من مشهد النيل، وأحب مكتبي لأنه يطل على النيل. جالسة، في الشرفة، وأصوات الشارع تأتي من أسفل وتصعد حتى الطابق العاشر، أنظر إلى ورد النيل المنتشر على سطح الماء: ورود خضراء زاهية لكنها تكاد تكون قاتلة. دخلت عليَّ السكرتيرة:

ـ شفتي اللي حصل يا أستاذة؟

ـ إيه اللي حصل؟

ـ أشرف فهمي اتضرب بالنار.

ـ إيه؟

ـ طلعوا عليه ناس قدام مبني الأهرام وضربوا نار عليه، هو نجا ومات اثنين.

ـ مين اللي مات؟

ـ اثنين، بيقولوا كانوا معديين هناك بالصدفة.

في اليوم التالي جاءني مندوب من القيادة يطلب مني رفع قضية الاحتساب ضد أشرف فهمي. بلعت غصتي، وقبلت.

* * *

كلود إيميه يبتسم لي. يحمل المولود بين ذراعيه ويميل عليَّ ليريني وجهه. أنظر فلا أرى شيئا. يبتسم أكثر، ويميل عليَّ أكثر. أنظر فأرى مسخًا. أصرخ وهو يضحك ويقربه من وجهي أكثر. أصوات تأتي من الخارج، كأنها سيارات شرطة أو إسعاف، وأصوات شجار، وأمي يعلو صوتها. الضوء يخفت، والأصوات تعلو ولكني لا أميزها، والحر يشتد عليَّ، والعرق يغمرني، وخدر في ذراعي اليمنى يؤلمني. والهواء.... أين الهواء؟ أحتاج لمزيد من الهواء، ولكن شفاطة الهواء في صدري لا تعمل. يد تمتد وتمسح على جبيني، وأصوات هرولة وصراخ. والهواء يقل أكثر. وأغوص. أسقط في بئر يسحبني لأسفل بسرعة جنونية حتى لا أرى سوى ومضات من الألوان، ومضات زاهية ومتسارعة تصبح خطوطًا متصلة متشابكة ملتوية كأنها عناقيد من الضوء الملون. وأغوص أكثر في هذه الخيوط التي تستحيل كرات ملونة. وصوت الإسعاف البعيد الملح ويد تمسك بيدي وماء يقطر على جبهتي. ثم دفعة فجائية من الهواء تأتي كأنها مظلة تنتزعني لأعلى. ثم قفزة أخرى لأعلى. ثم قفزة شاسعة تأخذني خارج البئر مرة واحدة لسماء زرقاء يغمرني فيها الهواء. ويحملني ويتغلغل فيَّ ويأخذني لأعلى، ويملأ الهواء رئتي.

* * *

شكل موت الجنين ضربة قاصمة لي ولمعتز، لم ننج من آثارها بعد ذلك أبدًا. قضيت حوالي أسبوعين في المستشفى غير قادرة على الحديث لأحد، وقالت لي الطبيبة بعد ذلك إن النزيف استمر أربعة أيام كاملة وإن حياتي كانت في خطر. وقالت لي الممرضات إن معتز كان يأتي كل يوم ومعه ورد ويظل جالسًا على باب غرفتي وأنا غائبة عن الوعي. وقالت أمي إن العوض على الله وإنه لا يجب علينا أن نكبر الأشياء ونعطيها أكبر من حجمها. وقالت سارة إنها لم ترني هكذا من قبل وإنها لأول مرة تقلق على حياتي بجد. وظللت ساكتة، أستمع لهذه الأصوات وأرى شفاهًا تتحرك، وأرقب معتز ووجهه الصامت الخالي من التعبيرات، وهو يغير اتجاه نظرته بسرعة للأرض ويغير مجرى الحديث/الصمت. وطفقت أفكر: هل كان يعرف ما جرى في فرنسا؟ لم نتحدث عن هذا الأمر منذ سألني سؤاله الغامض قبل أن يطلب يدي للزواج، وظننت أنه يعرف أو يخمن ولا يريد معرفة التفاصيل، ومن يريد معرفة

هذه التفاصيل؟ ظننت أني تجاوزت تلك القصة، ولكن الله لم يصفح عنّي، وعاقبني، وما زال جرمي يطاردني، وسيظل يطاردني حتى يقضي عليّ. يا ربي، هل يمكن لخطئي أن يقتفي أثري أينما ذهبت هكذا؟ ألا توجد وسيلة، شيء ما أفعله، كي أمحو هذا الخطأ؟ وأين الصفح والمغفرة؟ أم إني لم أتطهر تمامًا بعد؟

انهارت قواى. لم أستطع مواصلة احتمال ذلك الأمر وحدي. حكيت كل شيء لمعتز، كل التفاصيل، كل شيء: نشأت، هربي لفرنسا، مجيئه لفرنسا بعد ذلك بعام رغم توسلاتي، فقداني السيطرة لأول وآخر مرة في حياتي واستسلامي لعاطفتي وسقوطي المدوي، حملي وعودة الوعي لي، كلود إيمييه ومستشفى «بيت الرب» وثورة نشأت الذي لم يعلم إلا بعدها، كل شيء، بالتفصيل، ومعتز جالس يستمع إلى دموعي الصامتة وبكائي المكتوم ونشيجي وإجهاشي ونحيبي المتقطع، ولا تعبير يبدو على وجهه، ونظرته بعيدة، بعيدة. وبعد أن توقفت عن الكلام وعن النحيب، مد ذراعه وضمني إليه فأجهشت بالبكاء من جديد. بعدها بسنتين أنجبت ياسمين، وبعدها بسنتين أنجبت زياد، ولكن الصمت بيني وبين معتز لم ينقطع.

* * *

ربحت قضية الاحتساب. جلس القاضي على المنصة وسط كاميرات وكالات الأنباء العالمية ونطق بالحكم لصالح دعوى الاحتساب المرفوعة من الدكتورة داليا الشناوي ضد الأستاذ أشرف فهمي. ولمحت بطرف عيني ـ وسط تهليل وتكبير مساعديّ واحتضان بعضهن لي ـ أشرف فهمي جالسًا في الناحية الأخرى ساهمًا تمامًا وكأنه لم يسمع الحكم. كان نشأت واقفًا بجواره، يهز رأسه في أسى ويقول كلمة أو كلمتين لأحد مندوبي الإعلام، ثم يميل على أشرف ويهمس في أذنه بشيء ما، ولا يبدو على أشرف أنه يسمعه. مجرد حكم ابتدائي، لا بد وأن هذا ما يقوله. لقد أدار معركة جيدة، نشأت، واستخدم فيها كل الأسلحة، من الإعلام للضغط السياسي، للتعاون مع أجهزة الأمن، وكذلك فعلنا. دخلنا كلنا في حلبة مصارعة رومانية بلا قواعد. لطخنا بعضنا بعضًا بالطين وبكل ما استطعنا، وخرجنا نحن منتصرين في الجولة الأولى، ولكني كنت بائسة. سنواصل المصارعة وتلطيخ بعضنا بعضًا بالطين لجولة أخرى أو جولتين، لستة أشهر أو ربما عاما آخر، وسأواصل القتال حيث لم يعد لي مخرج إلا بالنصر.

* * *

كانت المكالمة التليفونية مع العميد أحمد كمال قاسية، كسكين تشق ملابسي ولحمي. شعرت أكثر ما شعرت أني أسير عارية في الشارع وفي حديقة النقابة حيث ذهبت للقائه. لم تكن المرة الأولى التي يحاول فيها التحدث معي. وفي كل مرة كان ردي أشبه بالصفعة، ولكنه لم يكن يكل أو يمل. هذا الصفيق العاجز الذي يعوض رجولته المفقودة بالتسلط على خلق الله. ولكن هذه المرة أصابني في مقتل. كان صوته باردًا كقطعة حادة من الجليد. قال ببساطة قاتلة إن لديه ما يدينني أخلاقيًا وسياسيًا وإنه يريد أن أتعاون معه. أنا أتعاون معه؟ هل فقد عقله؟ المظروف الأصفر الذي يحتوي على «أدلته» ملقى على المنضدة بيننا وأنا أنظر إليه ولا أراه. نظرت إليه محاولة السيطرة على غضبي المكتوم. أتصبب عرقًا وأحاول التماسك. المظروف أمامي ولا أقوى على لمسه. أعلم ما بداخله ولا أريد أن أراه. نظرت للعميد أحمد كمال وراعني أن أراه يبتسم:

ـ أنا آسف، حضرتك اللي اضطرتينا لكده.

ما أنت إلا مجرد ترس في آلة من العنف المنظم. وما لا تعلمه هو أنك تدفعني دفعًا لحماية نفسي بعنف منظم مضاد! كان رأسي على وشك الانفجار وأنا أتخيل الابتسامة الأبوية للإخوان وهم يهزون رؤوسهم ويقولون: «ألم نقل لك؟ لا حماية لأحد ضد الجبروت إلا بالتعاضد بيننا جميعًا، بكل عناصرنا وأسلحتنا». مر أحد معارفي وقال شيئًا، وقال العميد أحمد كمال شيئًا آخر، وكانت الأصوات تختلط وأنا جالسة أنظر إلى هذا المظروف على هذه المنضدة بيننا ولا أنبس بكلمة. قام واقفًا وسوى قميصه بيده وقال شيئًا ومضى. مددت يدي للمظروف وسحبته وفتحته. كانت الأوراق بالفرنسية. مستشفى «بيت الرب»، باريس، ١٩٧١. نظرت إلى اسمي المدون عليها وإلى توقيع الطبيب المختص: كلود إيمييه. ياه، كدت أن أنسى اسمه! الضوء يخفت، والأصوات تعلو ولكني لا أميزها. رائحة كولونيا نفاذة ووجه مألوف يبتسم لى:

ـ سلامتك يا دكتورة. إنتي دختي ولا إيه؟

سويت جلستي في مقعد الحديقة وشربت كوب الماء الذي أعطته لي.

ـ أنا شفت راسك خبطت الترابيزة فجأة افتكرت أغمى عليكي.

ـ لا بسيطة، دي دوخة بتجيلي لما الضغط يوطى، أصلي ماكلتش من

الصبح.

ـ أجيبلك حاجة من البوفيه؟

ـ لا، أنا قايمة رايحة المكتب، السواق واقف برة.

في المكتب تناولت بعض الساندوتشات والقرفة لرفع ضغطي قليلًا. وضعت المظروف في خزانتي الخاصة وجلست أفكر فيما يجب عمله. لا بد من أن أتحدث مع أبي الروحي، وسأشرح له الوضع ولا بد أننا سنجد طريقة للتعامل مع الموضوع. وبينما كنت أفكر في الطريقة التي سأروي له بها المشكلة، دخل عليَّ من الباب. دهشت لمقدمه بدون موعد، ربت على يدي وابتسم وقال إنه جاء لوداعي. نظرت إليه غير فاهمة. فقال إنه سيسافر إلى قطر وسيستقر هناك لبعض الوقت، وإن الظروف في مصر قد تغيرت ولم يعد يشعر أنه يجب أن يستمر هنا. صعقت، وضغطت عليه كي يفصح أكثر. كان يبتسم ابتسامته الأبوية، العارفة ببواطن الأمور، وقال لي إنه لم يعد في وضع يمكنه من تسيير الأمور في الاتجاه الذي يراه صوابًا، ومن ثم يحسن به الاعتزال لفترة وترك الأمور للآخرين. ربت على يدي ثانية وقال إن الأيام القادمة ستكون صعبة عليَّ، ولكنه يعلم مدي فطنتي وقدرتي على المزج بين الصلابة والمرونة، وسلم عليَّ وذهب.

هل أحلم؟ هل هذا اليوم يحدث فعلا؟

ثم جاء الآخران، بعدها بساعة، ونظرا مطولًا في عيني وقالا أشياء كثيرة، منها أن الظروف قد تغيرت ـ نعم، أعلم ذلك، وأن الخناق يضيق على الجماعة، والمعركة تشتد، ولم يعد هناك مجال للاجتهاد والخلاف في مواجهة الطاغوت، وأنه يجب على الجميع من الآن فصاعدًا الالتزام بخط الجماعة وعدم شق صفها، وأن الجماعة لن تسمح لأحد مهما كان قدره أن يخرج على إجماع الأمة، وأن عقوبة الخارج ستكون شديدة، مدوية. نظرا إليَّ مطولًا، وقالا لي وعيونهما لا تبارح عيني إن عليَّ أن أبلغ رسالة لشخص ما بالخرطوم أثناء تواجدي بها لحضور مؤتمر الأمم المتحدة لحقوق الإنسان. لشخص باكستاني اسمه سلمان أحمد، من جماعة تسمي نفسها «جماعة خير». وأن الرسالة في مظروف مغلق. مد أحدهما يده بمظروف أصفر كبير وضعه أمامي على المكتب. كان المظروف الأصفر ملقى على المنضدة بيننا وأنا أنظر إليه ولا أراه. نظرت إليهما وكلي غضب مكتوم. أتصبب عرقا، وأحاول أن أتماسك. المظروف أمامي ولا أقوى على لمسه. كانت الأصوات تختلط وأنا جالسة أنظر لهذا المظروف على هذه المنضدة بيننا ولا أنبس بكلمة.

قاما واقفين وقالا شيئًا ومضيا. الأصوات تعلو ولكني لا أميزها، والعرق يشتد عليَّ، وخدر في ذراعي اليمنى يؤلمني. والهواء....أين الهواء؟ أحتاج لمزيد من الهواء، ولكن شفاطة الهواء في صدري لا تعمل. يد تمتد وتمسح على جبيني، وأصوات هرولة وصراخ. والهواء يقل أكثر. صوت سيارة الإسعاف يتردد في عناد أمام لا مبالاة السيارات الأخرى، صوت سائق يأتي خشنا عبر ميكروفون السيارة الخارجي، غير مفهوم، ينهر سائقي السيارات في يأس. السيارة تتأرجح، تقف فجأة لتسير فجأة وأنا أترنح على نقالتي البائسة ويغوص قلبي أكثر، يد صغيرة تمسك بيدي. أبحث عن الهواء فلا أجده. أبحث ثانية فلا يستجيب صدري، كأن شفاطة الهواء في صدري توقفت عن العمل، يد الممرضة تلمس جبهتي وتمسحها بقطعة من القطن المبلل، تفتح زر قميصي المهلهل وتمسح رقبتي، ممرض آخر يعبث بشيء يصدر صفيرًا متقطعًا ثم يأتي الهواء ويغمرني فجأة. يملأ رئتي وصدري وقلبي ويحملني بعيدًا عن السيارة والطريق. كأني أطير في هواء بارد ورطيب. وتزرق السماء أكثر وأطير ويملأ الهواء رئتي فأطير أبعد. ثم يتناقص الهواء سريعا وأهوي نحو الأرض كصخرة. يزداد الصفير في أذني وأنا أهوي أسرع وأسرع وأسقط في بئر وأسمع ارتطام جسمي بالماء وأظل أهوي والبئر يضيق عليّ حتى يحشرني وأنا أهوي سريعا محتكة بجدران البئر وتشتعل الحرارة في جسمي وأدوخ. أتشبث باليد الصغيرة كيلا أسقط أكثر. ويتوقف الهواء تمامًا، تمامًا. ثم أبدأ الدخول في الألوان. كرات صغيرة ملونة غزيرة تغمرني وتنهمر فوقي وتترابط وتنفك من حولي، وأدخل في دوائر ألوانها وهي تتلوى من حولي، كرات ثم كرات من الألوان. ثم يأتي ذلك الصفير المتقطع وصوت طفلة باكية: «ماما». ثم الهواء مرة أخرى، يغمرني فجأة، ويد صغيرة تمسك بيدي، والهواء يحملني، وأنا أترنح، وصوت سيارة الإسعاف يأتي ويغيب.

(٤)
جدار لا ينكسر

سقط الجدار.

أخيرًا سقط الجدار.

سقط الجدار، وانتهى الأمر.

هاليلويا.

سقط الجدار و- يا للمفاجأة - لم يحدث شيء. لم يحدث لي شيء. حتى سقوط الجدار الذي كنت أعول عليه لم يمسني، لا بسوء ولا بخير، وها أنا ذا، مرة أخرى، أجلس وسط الخرائب أرقبها دون أن تصل إليَّ، دون أن تمسني، وكأنني أشاهد فيلمًا، مأساويًا دون شك، وربما تتحرك مشاعري وربما أبكي وتنهمر الدموع من عيني، ولكن لا شيء يمسني. لا شيء يحدث لي. لا شيء يحدث داخلي.

والآن ماذا؟ ماذا سيحدث؟ سأجلس هنا في هذه الغرفة التي صارت بلا مخارج ولا مداخل كزنزانة محكمة الإغلاق، وأنتظر؟ سيأتون ولا ريب. عمال الإنقاذ سيصلون إليَّ، فنحن في الطابق الأرضي، والقنصلية من طابقين، والجدران متماسكة لم تتفتت وإنما هوت بكاملها تقريبًا. سيأخذون وقتًا طويلًا حتى يصلوا، ثم وقتًا آخر ليقرروا ماذا سيفعلون بالضبط، ووقتًا آخر حتى يخلوا الجرحى ويسحبون من يستطيعون سحبه من تحت الأنقاض المتحركة. وبعد أن يفرغوا من كل هذا سيبدأون في تحريك الكتل الأسمنتية الكبرى، وعندها سيصلون إليّ. كم سيستغرق هذا؟ ربما يومًا، ربما يأتون الليلة أو غدًا صباحًا، أو بعد ذلك بقليل.

أمامي إذًا أربع وعشرون ساعة في هذه المساحة الضيقة المحكمة الإغلاق. ولديَّ زجاجة المياه المعدنية التي أحملها في حقيبتي دائمًا - شكرًا لاستحالة الشرب من الصنابير في مدينة الخرطوم الشقيقة - وقطعة الحبوب بالمكسرات والعسل التي أحملها كوجبة سريعة صحية حتى أعود للفندق في المساء. ولدي الكمبيوتر الشخصي في حقيبتي وبعض الأوراق والأقلام، ولديَّ بعض الضوء المتسرب من تشققات في الجدران، وهذا المقعد الذي كان جزءًا من صالة الاستقبال بالقنصلية. لا بأس إذًا، يمكنني الصمود هنا أربع وعشرين ساعة حتى يصل عمال الإنقاذ.

ماذا سأفعل الآن؟ أريد قهوة، يا إلهي كم أريد قهوة! خرجت هذا الصباح

على عجل. صحوت متأخرًا قليلًا وتلكأت في الفراش، فكان عليَّ أن أركض حتى أصل قاعة المؤتمر في موعدي، ومن ثم لم يتسع الوقت كي أنتظر البطء والبرود الذي لا يصدق للنادل في مقهى الهيلتون. غادرت الفندق دون تناول قهوتي الصباحية على أمل أن أجد قهوة في قاعة المؤتمر. كان ذلك خطأ. في كل مرة لم أتناول فيها قهوتي قبل الخروج من المنزل ـ أو الفندق الذي أقيم فيه ـ لا بد أن تحدث لي أشياء تحول دون عثوري على قهوة. وأنا لا أستطيع أن أمضي في يومي دون قهوة، يقتلني الصداع وسوء المزاج وشعور عام بالغضب ـ على نفسي في أغلب الأحوال. أصحو متأخرًا قليلًا، وأهرع إلى المطار على أمل أن أجد القهوة هناك، ثم أفاجأ أنهم أخذوني لقاعة كبار الزوار حيث لا يقدمون قهوة بالحليب أو حتى إسبرسو وإنما لديهم «نسكافيه». كيف يمكن لأحد أن يشرب هذا الشيء؟ فأعتذر ـ متعكر المزاج، على أمل أن أجد قهوة في الطائرة، فهذه رحلة في الدرجة الأولى، ولكن المضيفة الممتلئة والمتململة في رداء مصر للطيران غير المتناسق الألوان تعتذر، لديهم نسكافيه. خمس ساعات أخرى، وفي مطار شارل ديجول، حين يكون الصداع قد فتك برأسي وحصل ما حصل، أجد «كافيه كريم» فقط، لا يوجد إسبرسو مزدوج بالحليب. وحينها يبلغ غضبي على نفسي مداه: ما دمت مزعجًا وتطلب شيئًا خاصًا لا يتوفر في مطارين في قارتين مختلفتين، فالأحرى بك أن تعده لنفسك قبل أن تغادر منزلك. وأعد نفسي ألا أكرر هذا الخطأ وأنا واقف في الصيدلية أغلي من الغضب على تقصيري وأتفاوض مع الصيدلي على إعطائي جرعة من الحبوب الطبية المعالجة للصداع دون وصفة من طبيب.

واليوم، ارتكبت نفس الخطأ. ولن يمر وقت طويل حتى يصل الصداع، أما سوء المزاج فقد حل بالفعل، وبعض الغضب على نفسي. سوء المزاج؟ أحقًا أفكر في سوء المزاج الناتج عن عدم تناولي لقهوتي الصباحية وأنا جالس هنا تحت أنقاض مبنى تم تفجيره؟ شيء لا يصدق! صحيح إذًا أني بلا قلب مثلما يدعي أشرف فهمي. ولكن لم؟ نقص القهوة سيحطم رأسي، ويطلق غضبي على نفسي ويحبطني حتى الغد. أما الانفجار فلم يصبني بخدش واحد، لم يصبني حتى بصدمة. أكاد أكون لم أفاجأ به، بل أخذت أشاهد تداعي السقف والجدران من حولي، ورأيت هذا الجدار يتحرك نحوي فتحركت بسرعة كيلا يسقط عليَّ، ورأيت بعض الأشياء تطير في الهواء، وكنت هادئًا وأنا أفكر أين سيذهب السقف وما إذا كانت هذه هي نهايتي. ودار بخاطري على الفور تداعيات موتي وكيف ستتلقى أمي الخبر وما سيحدث للمكتب من بعدي. ثم توقف السقف في منتصف الطريق،

فعلمت أني قد نجوت مؤقتًا، وبدأت أفكر فيما سيحدث بعد ذلك.

سأقسم زجاجة المياه على الأربع والعشرين ساعة، أو من الأفضل أن أقسمها على ست وثلاثين ساعة، لعلهم أقل كفاءة مما أظن. كانت الساعة العاشرة عندما انفجر المبنى، والزجاجة البلاستيكية مقسمة بعلامات إلى اثني عشر قسمًا، وإن كان القسم الأخير أكبر من بقية الأقسام. سأشرب إذًا قسمًا كل ثلاث ساعات، وسأتناول قطعة الحبوب ذات المكسرات على أربع مرات، في الظهيرة، وفي السابعة مساء، وفي الصباح، ثم عند الظهيرة غدًا. ولن أحتاج للتبول كثيرًا بما أني لن أشرب ماءً كثيرًا، ويمكنني التبول عند نهاية الجدار الساقط على الجدران الأصلية، عند نهايته، حيث يوجد شق بين الجدران.

خلعت جاكيت البدلة وابتسمت وأنا أفكر «ستحتاج إلى تنظيف، هذا إن لم تتلف كلية»، ووضعتها على ظهر الكرسي الوحيد المتبقي. ففككت ربطة العنق وأرحت ياقة القميص وشمرت الساعدين. لا بد وأن الحرارة ستشتد مع تقدم النهار وغياب تكييف الهواء، وإن كان مبنى القنصلية قديمًا وغالبًا ما سيكون أقل اعتمادًا على التكييف. سنرى ذلك في حينه. ولكن ماذا سأفعل الآن؟ لن آكل، ولن أشرب الآن. ماذا أفعل؟ بحثت عن الكمبيوتر وأخرجته من الحقيبة، بحثت عن علبة الكهرباء. هل يمكن أن تكون هناك كهرباء سارية في المبنى؟ أكيد لا، أكيد سيفصلونها إن كانت ما زالت تعمل. أبحث عن علبة الكهرباء، لا يوجد هنا. بطارية الكمبيوتر لا تعمل أكثر من ساعة. هل لديَّ شيء على الكمبيوتر أريد قراءته أو كتابته؟ لا، ليس الآن. ماذا أفعل إذًا؟ لا شيء سوى التفكير. أفكاري لا تجري أمامي كشريط سينمائي مثلما يحدث في الروايات عندما يجد البطل نفسه وحيدًا في وضع للتأمل، وإنما تأتي كومضات سريعة، تضيء وتختفي قبل أن أتمكن من الإمساك بها، يمكنني أن أفعل ذلك الآن: لديَّ أوراق وأقلام ووقت وكرسي ولا شيء آخر يمكنني فعله. يمكن إذًا أن أطارد هذه الومضات وأكتب بعضًا منها، لعل هذه الإقامة الجبرية تحت جدار القنصلية المصرية المفجرة في الخرطوم تكون ذات فائدة. وإذا لم يأت عمال الإنقاذ لأي سبب ما؟ هل أترك هذه الأوراق أم أمزقها؟

سأقرر ذلك فيما بعد. أما الآن، فهذه هي الأوراق، وهذا هو القلم الأسود «اليونيبول» مقاس سبعة من عشرة، وهاهي الحقيبة نحيتها جانبًا، والكمبيوتر الذي كلفني شراؤه ثلاثة آلاف دولار حولناه إلى لوح للكتابة أسند عليه أوراقي الصغيرة. من أين نبدأ؟

وإن مت، ونجا الباقون، ماذا سيحدث؟

ستكتب الجرائد المصرية عناوين ميلودرامية حول العمل الإرهابي الإجرامي الجبان الذي استهدف النيل من مصر ومواقفها، وستنشر تصريحات لوزراء يؤكدون أن مصر ماضية في طريقها ولن تؤثر فيها هذه الأعمال، وستشير العناوين إلى الضحايا بالعدد وليس بالأسماء، فلن يكتبوا مثلاً مقتل نشأت غالب ومحمد إبراهيم والسعيد نور وخليل إسحق، وإنما سيقولون مقتل أربعة مصريين وجرح العشرات. ربما تكون قد فقدت عينًا وساقًا وذراعًا، ولكنك تظل واحدًا من هؤلاء العشرات المجهولين، ولن يأبه بك أحد، أيضًا لأنك لم تقتل. ستذكر الجرائد ـ ربما في الصفحة الأولى في مكان أقل بروزًا ـ شيئًا عن الشخصيات الشهيرة التي لقيت حتفها في الحادث، وربما صورة من يتيسر للمحرر غير المحترف والجريدة التي لا تملك أرشيفًا العثور عليها في الوقت الضيق السابق على الطباعة. في اليوم التالي، ستذكر الصحف أشياء أكثر تفصيلية عن القتلى والجرحى، وتبدأ سلسلة من شهادات الناجين ومن التحقيقات حول الشهداء، وربما يصور التليفزيون عودة البعض إلى المطار، مرهقين وغاضبين ولكن التليفزيون يجتهد في العثور على زاوية لتصويرهم كأبطال واقتطاع أجزاء إيجابية أو درامية من ردودهم العنيفة أو الغاضبة والمقتضبة على أسئلة المذيعين المستفزة. هل ستذكر الصحف أني قبطي أم سيلجأون للتعمية على هذه المسألة لتفادي الحرج؟ نشأت غالب، يمكن أن يكون مسلمًا أو قبطيًا، ربما ستنشر الصحف القومية الاسم دون تعليق، وربما تلجأ بعض الصحف التجارية إلى نشر الاسم كاملًا: نشأت جورج صليب غالب ـ ليس هناك فرصة للبس مع اسم كهذا. وستنشر الصحيفة الأكثر إثارة تحقيقًا عن ردود الفعل لدى كبار الأقباط على مقتل نشأت غالب في التفجير الذي قام به أصوليون مسلمون، ولكنهم ـ كالعادة ـ سيلجأون لبعض رموز الكنيسة باعتبارهم يمثلون الأقباط، ولما كانت علاقتي بالكنيسة على ما هي عليه، فربما يقول القسيس الضيف للمذيع قبل بدء التسجيل «أحسن انه مات، غار في داهية، ياريت تموتوا الباقيين من أمثاله وتخلصونا»، ثم يقول في التسجيل إن «هناك قلقا على أمن وسلامة الشعب المصري كله، الذي يتعرض لهجمة من قبل الإرهاب، وأن الأقباط شأنهم في ذلك شأن إخوانهم المسلمين، ضحية لهذا الإرهاب الذي لا يميز بين المواطنين على أساس الدين، وإنما يضرب بيد عمياء قلب الشعب كله».

ثم تنشر الجرائد صورًا لضحايا الانفجار من العاملين بالقنصلية، وربما تقام لهم مراسم خاصة للدفن، أو تسمي قاعات أو شوارع بأسمائهم. وستغطي الجرائد كل ذلك باقتدار، ولكن هل ستوضح الجرائد ما حدث

بالضبط؟ هل سيشرح أحد ـ أو حتى يفهم كيف وقع الانفجار ولماذا؟ لماذا تستهدف جماعة ـ أغلب الظن أنها أصولية إسلامية ـ قنصلية مصر في الخرطوم؟ هل تقوم القنصلية بعمل استخباراتي يقض مضاجع الأصوليين لدرجة تستدعي تفجيرها؟ أم إنها انتقام من عمل ما قامت به الحكومة ضد هذه الجماعات؟ لا أذكر أن الحكومة قامت بشيء محدد ضد الجماعات مؤخرًا، بل على العكس، هناك حوارات وأحاديث عن عفو وتوبة وإفراج عن سجناء ومصالحات ومبادرات لإنهاء العنف وغير ذلك. هل هي رسالة من هذه الجماعات؟ أم هو نوع جديد من الجماعات؟ أم خطأ؟ هل يمكن أن يكون التفجير تم عن طريق الخطأ؟ يكون من قام بالتنفيذ قد ظن أن هذه هي القنصلية الأمريكية مثلًا أو الباكستانية؟ ونكون نحن ـ القتلى وعشرات الجرحى بدون أسماء ـ ضحايا خطأ؟

ولكن، ألم يكن العميد أحمد كمال يبحث عن خيط ما في الأيام الأخيرة قال إنه قد يكون له علاقة بعمل إرهابي كبير في الخرطوم؟ هل كان يعرف؟ ولكن العميد أحمد كمال كان هنا في القنصلية عند وقوع الانفجار، لقد رأيته قبلها بعشر دقائق أو شيء كهذا وأنا جالس أنتظر تخليص أوراقي الثبوتية كي أقدمها لسكرتارية المؤتمر. هل كان يعرف؟ وكيف يمكن أن يعرف ولا يستطيع إيقاف الانفجار؟ أليس هو ضابط المخابرات هنا والمسئول عن الأمن؟ على الأقل كان يمكنه التوجيه بتفتيش الداخلين لمبنى القنصلية! أم إنها سيارة مفخخة انفجرت عند المدخل؟ ربما يكون ذلك هو الأرجح، وهذا هو تفسير عدم تدمير المبني بالكامل. قد تكون سيارة محملة بالمتفجرات، تم تفجيرها عند باب القنصلية في اللحظة التي يقترب فيها رجال الأمن للتفتيش. وربما يكون تفجيرًا مزدوجًا بسيارتين: تنفجر الأولى عند المدخل في لحظة التفتيش ثم تندفع الثانية في الفوضى والدمار الناتجين عن الانفجار الأول فتقتحم المبني وتنفجر داخله. هذا ما فعلته منظمة الجهاد الإسلامي هذا العام في تفجيراتها بإسرائيل، وربما يكون من فجروا هذه القنصلية قد استعاروا نفس الطريقة.

فيم كان يفكر ضحايا هذه التفجيرات المزدوجة في إسرائيل؟ هل كان هناك من ظل واعيًا هكذا مثلي يفكر ويكتب ملاحظاته في غرفة مغلقة منتظرًا رجال الإنقاذ؟ ولماذا لا نسمع أبدًا عن هؤلاء الضحايا؟ هل لأنهم إسرائيليون وبالتالي مذنبون بالمطلق؟ وهل يمكن أن يكونوا كلهم مذنبين؟ أوليس من الممكن أن يكون بينهم شخص مثلي؟ أستاذ مثلًا بجامعة حيفا من المؤرخين الذين أعادوا كتابة تاريخ الحركة الصهيونية بشكل نقدي؟ أو ربما شخص متعاطف مع الفلسطينيين؟ أو

حتى فلسطيني دخل إسرائيل للعمل؟ أو ربما أي شيء، ما الفائدة من هذه الأفكار؟ كلا، بل هناك فائدة، لأني حين أتحدث عن عالمية حقوق الإنسان، عن حق كل إنسان في الحياة وفي الحرية فإني أتحدث عن كل الناس، وليس عن فئة دون الأخرى، وبالتالي فليس هناك فرق بين تفجير هذه القنصلية على رأسي وتفجير حافلة في شمال إسرائيل على رأس ركابها. لو قلت ذلك لاتهموني بالهرطقة. لكنهم يتهمونك بالهرطقة من زمان فلم لا؟ نعم، لم لا؟ إن نجوت، سأكتب مقالاً للأهرام ـ أو أدلي بحديث للتليفزيون باعتباري من الناجين، أقول فيه ألا فرق بين ضحايا هذا التفجير والتفجيرات التي تستهدف المدنيين في إسرائيل، ولنر ما إذا كانوا سينشرون هذا الكلام! سيقول أشرف فهمى:

ـ يا أخي وهي حبكت؟ يعني انت خلصت قضايا حقوق الإنسان في مصر ودلوقت بتدافع عن حقوق الإنسان في إسرائيل؟ إنت اتجننت؟ مش تخليك في المهم ولا هو جر شكل؟ ما تركز في حقوق الفقراء في عشوائيات القاهرة، اللي مش لاقيين مية نضيفة يشربوها. ولا حقوق أطفال الشوارع اللي بتضيع حياتهم منهم في الإجرام والتسول والجهل. ولا حياة البنات اللي بيشتغلوا في المحلات الصغيرة وبيتعرضوا للتحرش كل يوم. ولا حقوق الزوجات اللي بينضربوا وبيتقتلوا في حوادث وحكايات متعلقة بالشرف أو بقلته؟ ولا يا أخي في حقوقي أنا اللي بادفعلك قد كده كل سنة علشان تحميني من داليا الشناوي وأمثالها؟

وسيقول أحمد كمال:

ـ الإسرائيليين يا دكتور؟ احنا دلوقت حندافع عن الإسرائيليين؟ انت عارف يعني إيه الإسرائيليين؟ إنت دخلت الجيش ولا مؤاخذة؟ حاربت يعني ولا كنت سعادتك في باريس أيام الحرب؟

وستقلق أمي، وتقول إن هذه شجاعة تحترمها فيّ، وإنه عليّ ألا آبه بما يقول المتخلفون والمتعصبون، ثم ستضيف وهي تنظر إليَّ من تحت نظارتها:

ـ لكن الحقيقه أنا مش متأكده إن دي فكرة كويسة. ماتنساش يا نشأت المجتمع اللي احنا فيه ودرجة تقبله للأمور.

ثم تنظر لكتابها، ثم تنظر لي مرة أخرى وتضيف:

ـ «ومتنساش إن احنا أقلية في البلد دي».

وستتابع القراءة دون أن توضح من المقصود بكلمة «إحنا»: المثقفون؟ الليبراليون؟ أم المسيحيون؟ ولن يكون هناك داع لسؤالها. وربما تكون أمي على حق، وربما يكون الجميع على حق، ربما من الأفضل أن يكون المرء أكثر دبلوماسية في اختياره لمواقفه، وأن يركز على الأولويات التي تهمه وليس على المبادئ العامة، من أجل أن ينجح في تحقيق أهدافه ويتفادى المعارك التي لا طائل ولا مصلحة من ورائها. لكني لو فعلت ذلك لكنت سياسيًا وليس رجل قانون، ولكنت شخصًا آخر. أحيانًا أود لو أني كنت كذلك، وربما يكتبون جزءًا من هذا في نعيي: كان دائمًا يدخل في معارك لا طائل من ورائها.

* * *

أين عمال الإنقاذ؟ مرت ساعتان منذ الانفجار ولا أسمع شيئًا بعد. لا أصوات سيارات إسعاف ولا صياح على الناجين ولا أصوات تحريك للأنقاض المنهارة. ما تفسير هذا الصمت؟ أين الباقون؟ أين داليا؟ وأشرف وأحمد كمال؟ هل أصيبوا؟ هل..؟هل يمكن أن يكون أحد منهم قريبًا منى؟ لا، لا أعتقد وإلا كنت قد سمعت صوتًا. هل أنادي عليهم؟ لكن أين سيكونون وكيف سيسمعونني وهذا الجدار يسد كل شيء عنى؟

* * *

ماذا ستقول داليا الآن ـ إن نجونا؟ هل ستشعر بالذنب؟ هل ستعترف أن هذا هو آخر الطريق الذي تسير فيه؟ هل ستقر أنه لا يمكن للعقل أن يسيطر على جهلاء لديهم إيمان مطلق بصحة ما يفعلون؟ هل ستقتنع أن الجهل والتطرف أقوى من المواقف الوسط؟ وأن الوسط مجرد مرحلة في طريق انتصار التطرف؟ وأن كل التنظيمات الدينية والأيديولوجية يبدأها معتدلون يكون دورهم مجرد مرحلة تؤدي بالضرورة إلى التطرف والجهل والإرهاب؟ هل ستفهم أخيرًا أنها أصبحت أداة في يد الإرهاب والإظلام؟ أم إنها ستواصل التماس الأعذار لنفسها ولهذا الشباب «المتحمس» وتقول لنفسها إن هذه غلطة في طريق النضال من أجل استعادة هوية المجتمع المشوهة؟ سأكون ميتًا حينئذ، ممددًا في تابوت من الخشب الجيد ومرتديًا بدلة سوداء، يحملونني في سيارة سوداء كبيرة، ثم يوقفونني أمام مستقري الأخير ويبدأون المراسم. هل ستأتي داليا لتعزي أمى؟ وهل سترى الدم الذي يقطر من يديها؟ هل يمكن لداليا، تلك التي عرفتها، التي

أحببتها وعانقتها وسكنتها وسكنتني، تلك الساحرة اللطيفة الراقية ذات الحس الفكاهي الملكي، تلك العاقلة الذكية المثقفة، هل يمكن ألا ترى مسئوليتها الشخصية عن هذا التفجير الأعمى؟ وأيًا كان التبرير الذي ستعطيه لموتي، فهل سيمكنها مواصلة العمل في خدمة هذا الإظلام؟ هل ستستطيع أن تصحو من نومها في اليوم التالي وتذهب إلى مكتبها كي تساعد شباب الجماعات الأصولية ـ وربما بعض من شارك في هذه العملية تحديدًا ـ في التحايل على القانون واصطناع البراءة؟ وهل ستدلي بتصريحات لوكالات الأنباء العالمية ـ وهي في فراشها الطبي في المستشفى تتعافى من أثر الحادث ـ تبرر هذا التفجير وتلقي باللوم على النظم الديكتاتورية في المنطقة وعلى حالة الغضب الشعبي في المنطقة إزاء ضلوع الغرب في استلاب فلسطين؟

أم ستقول لنفسها إن ما حدث جريمة، وإن هناك مشكلة حقيقية في التيار الأصولي، وإن الجهل والتخلف الذي يعتري بعض أعضاء التنظيمات الأصولية يشكل خطرًا على هوية الأمة لا يقل عن خطر التغريب والاستلاب. ربما ستقول ذلك في اجتماع عاجل تدعو إليه مع قيادات الحركة، وسيبتسم رجال عجائز في الحركة، ويمتعض شباب، ويؤيدها بعض الأعضاء من السجن، ثم ينتحي بها أحد قادة الحركة الكبار ويشرح لها أهمية الحفاظ على التوازنات داخل الحركة ومن ثم ضرورة الحفاظ على وجود هؤلاء الذين تصفهم هي بالجهل من أجل الحفاظ على قوة الحركة ككل، وسيشرح لها أن ذلك أفضل من فصلهم أو من دفعهم للانشقاق، «وماذا نستفيد إذا ذهبوا وشكلوا تنظيمات مستقلة أكثر عدوانية وشراسة ودون أي تعقيل سياسي وتنويري من جانبنا؟». وستتردد داليا. ستقول لنفسها إن هذا المنطق له وجاهته، وإنها يمكن أن تستقيل من منصبها وأن تعتزل العمل العام وتترك الحركة، ولكن ذلك سيؤدي لنقصان الأصوات العاقلة صوتًا، وألا خير يرتجى من ذلك. هذا ما ستقوله داليا، وما ستفعله. عقلها، ذلك الجهاز المركب داخل رأسها، سيقمع قلبها ويسيطر على عواطفها، حتى وإن كنت أنا الضحية، حتى وإن كانت هي الضحية. أوَلم يكن ذلك هو منطقها من قبل؟ وهل هذه أول جريمة قتل تشارك فيها داليا؟ خسارة.

*** * ***

وماري آن، هل سيبلغها الخبر؟ ومتى؟ ستحزن ولا ريب، وتشعر بصدمة عميقة، وستبكي. ثم ستخلص في هدوء إلى أنها كانت محقة حين رفضت أن تعيش في مصر، حين رفضت أن تقرن حياتها بأحد أبناء

هذه البلاد المضطربة. ثم ماذا؟ ثم لا شيء. لن تأتي ماري آن إلى مصر بحثًا عن جثتي، ولن تهاتف أمي لتعزيها. لن تفعل أي شيء، سوى أن تحزن، ثم ستقوم من أمام الجريدة في مطبخها الممتلئ بضوء الشمس، وتذهب للاطمئنان على الطفل الذي لا بد وأنها أنجبته، وعندما تلتقي زوجها في المساء، سيسألها عما بها، وستقول إنها متضايقة بعض الشيء، فقد سمعت خبرًا سيئًا عن صديق، ثم لا شيء. هكذا، ستكون متضايقة بعض الشيء.

* * *

كنت أحب هذه المرأة، لا أستطيع أن أتغلب على هذه الحقيقة، وعلى أني ربما لم أشفى من حبها. بعد أكثر من عشرين عامًا من فراقنا النهائي، ما زالت داليا في أفكاري، وما زالت تأتيني في أحلامي. لم أعترف بذلك لأحد، ولكني حين أنام، لا أحلم بامرأة سواها: كل امرأة أحببتها أو رغبتها وجاءتني في المنام، كانت تتحول في الحلم إلى داليا الشناوي. كنت أفيق في بعض الليالي مذعورًا: امرأة ما نائمة بجواري، وأنا أحلم بداليا. تستولي على نسائي وتحل محلهن. داليا هي هي، مثلما عرفتها منذ عشرين عامًا، مثلما أحببنا بعضنا بعضًا منذ عشرين عامًا. وأضطرب: كيف الخلاص منك؟

أحيانًا تختلط عليّ الأمور ولا أذكر ما جرى بالضبط. أحاول استعادة السبب الذي من أجله تركتني داليا. أحاول استعادة مناقشاتنا المطولة حول إمكانية زواجنا وتتداخل عليَّ الحجج والدفوع والمرافعات والمناورات. هل كنت أنا السبب مثلما قالت وقتها؟ قالت لأشرف فهمي وقتها إني لم أكن مرنًا بما يكفي، وإني اتخذت موقفًا مثاليًا متعنتًا ورفضت أي حل وسط. ولكني أذكر جيدًا أن ذلك كان في البداية فقط، وكان الحديث افتراضيًا، فلم نكن قد تخرجنا بعد وكان موضوع زواجنا ما زال مجرد فكرة للمستقبل. في هذا الوقت قلت كلامًا مما يقوله الشباب وهم في العشرين من عمرهم، وخاصة في أواخر الستينيات حين كان شباب فرنسا يقود شبه ثورة ضد النظم الاجتماعية والسياسية السائدة هناك، وكان الشباب الأمريكي يقود الحملة ضد فيتنام، والسود يقودون حركة الحقوق المدنية، وعبد الناصر ـ رغم كل شيء ـ ونكروما ونهرو وعدم الانحياز والاتحاد السوفيتي والعالم الجديد، والبيتلز يغنون من لندن. في هذا الجو، قلت كلامًا من قبيل إن الزواج مؤسسة برجوازية، وأننا أفضل وأسعد وأكثر حرية وأكثر حبًا لو اخترنا الحياة سويًا ويوميًا دون إلزام. في مرة أخرى قلت شيئًا عن تحدي التدخل الاجتماعي في شئون الفرد، وأني

كمسيحي وهي كمسلمة من حقنا أن نتزوج إن شئنا دون أن يغير أحد ديانته لأن الدين شأن فردي وليس من شأن المجتمع. دخلنا وقتها في جدال قانوني ـ وكنا مجموعة من أربعة أو خمسة طلبة ـ حول التكييف القانوني لزواج مسيحي من مسلمة في النظام القانوني الدستوري المصري، وقلت إن عقد الزواج نفسه سليم قانونًا وإن القانون لا يوجب تغيير عقيدة الرجل غير المسلم للزواج من امرأة مسلمة ولكن المشكلة هي رفض المجتمع من الجانبين المسيحي والمسلم للزواج المختلط، وإن هذه مشكلة مهمة ولكنها مشكلة لا تتعلق بالقانون وإنما بأهل العروسين ومدى قبولهم أو رفضهم للزواج. وأذكر في هذا اليوم أنها بدأت معي في المناقشة ثم ـ شيئًا فشيئًا ـ ركنت إلى الصمت، ثم وقفت واجمة تمامًا ترقب الجدل بيني وبين الثلاثة الآخرين. أذكرها جيدًا في التايير الرمادي الأنيق وعقد من الفضة حول رقبتها، وشعرها الأسود ملموم في ضفيرة واحدة سميكة مستقرة خلف رأسها. وعندما تركنا الأصدقاء ومشينا سألتني إن كنت أعني فعلًا ما قلته أم إني أجادل فقط لأزعج الزملاء الثلاثة الآخرين، وقلت إني أعني ما قلته، فانفجرت في البكاء وأشارت لتاكسي ورحلت مسرعة.

لكني لم أقل إني أرفض تغيير ديانتي من أجل الزواج بها هي، لم أقل ذلك أبدًا، بل إنني عندما طرحت موضوع الزواج قبيل تخرجنا مباشرة أوضحت استعدادي لتغيير الديانة من أجل إتمام الزواج دون مشاكل، فالأمر بالنسبة لي لا يتعدى كونه إجراء إداريًا صعب نفسيًا لكنه ضروري، مثلما جواز سفر يحصل عليه المرء ليتمكن من الدراسة أو العمل في بلد ما. لكنها انفعلت ورفضت بشدة، وقالت إن ذلك يكون خداعًا وتزييفًا ويظل حرامًا ويكون في عرف الدين زنا وليس زواجًا. قالت لي هذا، زنا وليس زواجًا. بهت، ثم غضبت، وظللنا صامتين فترة، وكانت تلك هي الفترة التي بدأت داليا فيها تقول إن دوام حبنا مستحيل، وهي ذات الفترة التي بدأت فيها انفجاراتها العصبية وفقدت القدرة على فهمها.

أتذكر أني سألتها، مرارًا، عما تريد مني فعله كي نظل سويًا، بزواج أو بدون زواج. هل تريد الهجرة والاستقرار في باريس ـ ونحن على وشك الانتقال لفرنسا للدراسة؟ هل تريد أن أغير ديني وأتزوجها؟ أم تريد أن نتزوج دون تغيير للدين؟ وكانت تقول كلامًا طويلًا عن مدى حبها لى، يتخلله بكاء وتشنجات وانفجارات عصبية، ثم تهدأ وتقول ـ وكأنها تلخص أمرًا جليًا اجتهدت في تفسيره لشخص لا يفهم ـ إن استمرارنا في أي علاقة مستحيل، لأنها لا تستطيع أن تعيش مع رجل دون زواج، ولا تستطيع أن تتزوج بغير مسلم، قلت: «وما المطلوب مني أنا إذًا؟ أن

أؤمن من أعماق قلبي بالدين الإسلامي؟ وهل يمكن لشخص أن يؤمن هكذا بالأمر؟ وكيف؟ هل هناك حبوب تخلق الإيمان؟». أتذكر أني وقتها انتابني هذا الشعور أني أمثل دورًا في فيلم، وأن هناك جدارًا من زجاج بيني وبين الواقع، وكنت أكاد أرى نفسي من الخارج وأنا أقول ما أقوله، وفشلت تمامًا في أن أشعر بأي شيء، وكأن هذه المناقشة العبثية لا تخص مستقبلي. وقد انفجرت هي بالكامل عندما ذكرت مسألة حبوب الإيمان هذه. علّها شعرت بأني أسخر من عواطفها، وربما كان معها حق، فكفت فجأة عن الحديث وانهالت دموعها على خديها، وقامت دون أي كلمة وذهبت. أعتقد أن هذه كانت آخر مرة تحدثنا فيها عن هذا الموضوع.

* * *

مرت ساعتان أخريان، وما زال هذا الصمت الغريب سائدًا. ماذا يمكن أن يكون سبب هذا الصمت؟ هل انهار الطابق الأرضي لدرجة أني صرت الآن في جوف الأرض ولا أسمع ما يدور فوقها؟ صعب، لأن أرض الغرفة تكاد تكون سليمة. هل رجال الإنقاذ لم يصلوا بعد؟ مستحيل فقد مرت أربع ساعات منذ الانفجار، ولو كان الدفاع المدني يوظف سلاحف لكانوا وصلوا! هل الحكومة السودانية متواطئة ولا تريد أن ترسل الإنقاذ؟ ما هذا الهراء؟ حتى لو كانت متواطئة لأرسلتهم. ربما أمن القنصلية هو الذي يرفض دخولهم أرض القنصلية باعتبارها أرض مصرية. ربما قرروا أن يرسلوا لاستدعاء فريق إنقاذ من مصر! لو كان الأمر هكذا، فأنا ميت لا محالة. لأتناول بعض الطعام: قضمة من ذلك الشيء الذي أحمله، ورشفة ماء أخرى.

* * *

أذكر جيدًا ما حدث في تلك الليلة. لم يكن قد مضى على وصولي لباريس أكثر من أسبوع، وكانت داليا مقيمة في باريس منذ حوالي العام حيث بدأت الدراسة للماجستير. خلال هذا العام أرسلت لي عدة خطابات من خلال أشرف فهمي دون أن تخبرني عن عنوانها. وطبعًا لم يصمد أشرف طويلًا تحت الضغط وأخبرني بعنوانها، وكتبت لها مرة واحدة أطلب لقاءها كي نتحدث على الأقل لمرة أخيرة ونرى ما إذا كان هناك حل، ولكنها رفضت. واحترمت قرارها، ولم أرد الاتصال بها ضد إرادتها. لكني عندما وصلت لباريس لم أستطع مقاومة رغبتي في رؤيتها. كنت أبحث في كل الوجوه عنها. عندما أركب المترو أو أسير في الطريق أو أذهب للجامعة، أظل أتفرس فيمن أقابلهم علها تكون بينهم. أفكر في اللحظة التي سألتقي بها، وكيف سنقف مشدوهين، ثم

سترتمي في أحضاني وأعانقها. كنت شبه موقن أني سأراها، وكانت المسافة التي أقطعها من خطوة للخطوة التي تليها مليئة بالترقب. يكاد توتر التوقع الدائم يقتلني. كل يوم يمضي يشكل عبئًا إضافيًا فوق قلبي حتى لم أعد أحتمل، فقررت أن أذهب إلى بيتها وأدق الباب وأراها. وفي نهاية هذا اليوم، وأنا جالس أشرب القهوة بجوار مبنى الكلية أفكر كيف سأفعل ذلك وماذا سأقول لها وكيف ستقابلني، وماذا لو غضبت، وماذا لو وجدت لديها أصدقاء أو أقارب، وماذا لو وجدتها مع شخص آخر تحبه، أو لو صفقت الباب في وجهي، رأيتها. بالصدفة.

كنا في الخريف، في الأسبوع الثاني من سبتمبر، وكانت ترتدي تايير كحلي وقرطًا وعقدًا من الفضة المشغولة التي تحبها، وحذاء جلديًا رفيعًا وشرابًا بلون بشرتها، وشعرها متهدل على ظهرها، تلمع بعض شعيراته وهي تهتز، وكانت تسير في هدوء وثقة. ظللت أنظر إليها وهي تسير باتجاهي حتى كادت تتجاوز المقعد الذي أجلس عليه وهي تنظر إلى الأمام دون التفات، فهمست بصوت لم أسمعه أنا نفسي: داليا! التفتت ورأتني. لا أذكر ملامح وجهي أنا ولكني أذكر جيدًا نظرتها التي تغيرت من المباغتة ـ لأن شخصًا ما أوقفها في الطريق، إلى التعرف على وجهي والمفاجأة الشديدة، ثم إلى الفرحة في عينيها اللتين انفرجتا بشكل لم أره منذ سنوات الحب الأولى على السلم الخلفي لقبة جامعة القاهرة، إلى الارتباك، إلى التحفظ مرة أخرى والابتسام بقدر مسيطر عليه، ثم أومأت ولم تمد يدها أو تقترب مني كي أعانقها، أومأت وقالت:

ـ آه، إنت هنا!

ظللنا واقفين دون حديث لفترة، وأنا أنظر إليها، وهي مبتسمة، وعيناها تتجول عليَّ. أشرت لها في اضطراب كي تجلس في المقعد المواجه لي، وجلست. بعد عدة ساعات، ربما أربع أو خمس، كنا أمام بيتها. مشينا من المقهى، ثم بجانب النهر، ثم توقفنا وأخذنا ساندوتشًا في الحي اللاتيني من باعة الشاورما اليونانيين، ثم مشينا حتى شارع مونبارناس، وأخذنا شايًا في مقهى هناك، وانتهى بنا الأمر أمام باب بيتها. الساعة تقارب العاشرة مساءً وليس لدى أي منا رغبة في ترك الآخر. ابتسامتها اتسعت وتخلت عن محاولة السيطرة على فرحتها. كانت تشع انطلاقًا وحيوية لم أرهما فيها منذ سنواتنا الأولى. وتحدثنا عن كل شيء، عدا علاقتنا وكيف انتهت، عن الأهل والأقارب والدراسة وفرنسا ومصر والتطورات السياسية والحياة والناس والقانون وكل شيء. وقفنا أمام البيت ثم قالت فجأة وأنا أهم بالرحيل: «مش عايز

تشرب قهوه من إيدي؟» فدخلت، وجلست على أريكة صغيرة في صالة صغيرة بها أريكة وكرسي وراديو ومكتب وأشياء أخرى. بدأت تضع حاجياتها على المكتب والأريكة والمنضدة وتذهب لإعداد القهوة وأنا لا أعرف هل أقف أم أجلس، وعيناي لا تفارقان هذه المرأة التي امتلكت قلبي ومشاعري وخيالي منذ تعرفت عليها من خمس سنوات. ثم جاءت بألبوم للصور تريني شيئًا وهي تعد أن تبدأ بعد ذلك فورًا في إعداد القهوة. اقتربت مني ومعها الصورة، لم نكن قد لمسنا بعضنا بعضا، لم نتبادل السلام وكأن منع تلامس أيدينا قرار تم اتخاذه. اقتربت بالصورة أكثر فتلامسنا. وقفت بجانبي أمام صدري، ثم تلامس جانبها وصدري، ثم اقتربنا أكثر، واحتضنتها، ولم نقل شيئًا، كلانا، وظللنا في هذا الحضن صامتين، ثم بدأت دموعي في السيل على خدي دون أن أحاول إيقافها. هذا الشعور، احتضانها، لا يعرفه إلا من أحب وافتقد احتضان حبيبته طويلًا حتى يصبح هذا الافتقاد ألمًا في جسمه وفي روحه، حتى يصبح حفرة توجعه وتقضم صدره وتتسع فراغًا يهوي فيه دون توقف. ثم فجأة وعلى غير توقع، أجدها، بكاملها، وأحتضنها، وأقبل شعرها وعينيها وخديها ورقبتها وأسفل ذقنها، هي، بكاملها، أحتضنها، ولم أكن لأتركها، ولم أستطع أن أتركها حين فكرت أنه يجب أن أتركها. ولم تحاول هي أن تتركني، وذبنا بعضنا في بعض، شيئًا فشيئًا، دون كلمة واحدة، وكأننا تمثالان من الجليد يذوبان في حرارة انبعثت فجأة، وكأننا مياه تنساب بلا إرادة. انساب كل شيء في هدوء وفي عشق وفي تتيم وفي وجد، وكنت أعبدها، وأعبد كل جزء من جسمها، وكنت أموت وأصحو بها وفيها، وكنت ما لم أكنه من قبل ولا من بعد سوى في حلمي المتكرر بها، ونمنا طويلًا على تلك الأريكة، واستيقظنا في عتمة الليل وكان النور ما زال مضيئًا، فأغلقت النور وحملتها إلى غرفة النوم، ونمنا مرة أخرى، ثم استيقظنا، واحتضنتها واحتضنتني، وسكنتها وسكنتني، ونمنا حتى الصباح.

* * *

الساعة السادسة.

ظلام يخيم في الغرفة كلها، وصمت مطبق. لا بد وأن أحاول النوم قليلًا. لا أستطيع أن أظل يقظًا هكذا حتى الصباح. لكن كيف أنام؟ وماذا لو وصل رجال الإنقاذ وأنا نائم ولم يدركوا أني هنا؟ أكح، تأتي كحتي مبحوحة. أنادى: «يا زول!». ما جمع زول؟ «يا جماعة ياللي هنا!». لا أحب المناداة، ولا يوجد من يسمعني على أي حال. جائع، ويجب أن أنام. ولكن كيف؟

* * *

الشهور الثلاثة التي تلت كانت أسعد أيام حياتي. والأسبوع الذي تلاهم كان أسوأ أيام حياتي، ثم تلا ذلك بقية حياتي.

افتتحت داليا أسبوع الآلام بأن اختفت تمامًا. بلا أثر. لا في الجامعة ولا بيتها أو لدى أي من الأصدقاء. وبعد يومين من القلق الشديد، والبحث في المستشفيات ولدى الشرطة، ظهرت. لكنها كانت قد تحولت إلى إنسانة أخرى غير التي عرفتها على مدى الشهور الثلاثة الفائتة. باردة وصلبة كالصخر، جافة كأنها إسفنجة ناشفة تعصرها فلا تنزل منها قطرة ماء واحدة، وبعيدة. ظهرت في بيتها، وكانت تبدو مريضة، وعيناها غائرتان مما ولا شك أنه نتيجة البكاء المتواصل. فتحت لي باب بيتها وكأن شيئًا لم يكن، وكأنها لم تكن مختفية لأسبوع كامل. وجدت حقيبة صغيرة على الأرض دفعتها داليا ناحيتي ففهمت أن بها أشيائي التي كانت في شقتها. طلبت مني أن أتركها وحدها بعض الوقت لأنها بحاجة لتفكر. حاولت أن أفهم ما يجري لكنها لم تقل شيئًا، لم تقل شيئًا بتاتًا. لم تقل إنها تحمل في بطنها طفلًا لنا، ولم تقل إنها أمضت اليومين الماضيين في بكاء واختبارات طبية، ولم تقل إنها قد قررت، وحدها، ودون إشراكي معها، أن تقتل هذا الجنين. لم تقل شيئًا، ولم يخطر على بالي أن يكون هذا هو الأمر، ظللت أطيل جلستي على تلك الأريكة في بيتها علها تفك قليلًا وتخبرني بما يدور في ذهنها، حاولت أن أحتضنها فقفزت وكأن ثعبان لدغها، فابتعدت. كانت مصمتة، ولم أر بد من الرحيل حتى تهدأ قليلًا. لم يخطر ببالي أبدًا ـ أقسم بشرفي إني لم يخطر ببالي للحظة واحدة ـ أن تكون على وشك قتل طفلنا.

لو خطر الأمر ببالي لما رحلت. لما غادرت تلك الشقة الصغيرة. لما ابتعدت عنها لحظة واحدة. ولتزوجتها ولو بالإكراه. ولمنعتها بكل السبل الممكنة من قتل هذا الطفل الذي كان سيكون لنا سويًا، الذي كان آتيًا ليكون أنا وهي معًا، هذا الجنين الخارق الذي تغلب على احتياطيات منع الحمل، هذا الجنين الذي هو حياتنا معًا، حبنا ومستقبلنا الذي يؤكد أننا نستطيع، أننا يجب أن نظل سويًا ونقتسم هذه الحياة. هذه الإشارة من السماء إن كنت مؤمنة بالسماء، يا قاتلة. لو كنت أعلم، لوضعتها تحت الحراسة حتى تلد هذا الطفل، لغيرت الديانة فورًا واتصلت بأمها لأخبرها أني أريد الزواج بابنتها المجنونة وأني غيرت ديني من أجلها وأنها حامل في طفل لنا ولكنها تأبى. لو كنت أعلم لادعيت أني آمنت من أعماق قلبي بأي شيء تريدينه، كي تظلي معي، كي نحيا هذه الحياة الأولى التي سيختبرنا الله على أساسها، يا قاتلة.

كيف استطعت؟ كيف؟ ماذا فعلت؟ هل ذهبت إلى الطبيب وقلت له من فضلك أجهضني؟ ثم دخلت المستشفى ونمت وتنشقت البنج وأنت تعلمين أنك حين تفيقين سيكون الطبيب قد شفط الجنين من رحمك وكأنه بلغم وأخذ «ينظف» الرحم من بقايا الجنين الذي يتعلق بهذا الرحم ولا يريد أن يغادره ليجد نفسه ينقطع به الغذاء والأكسجين ثم يلقي به في قمامة المستشفى؟ هل يلقون به في القمامة؟ في الحوض؟ أم يحتفظون به في متحف يقيمونه للأجنة القتلى؟ لمشروعات الأطفال التي لم تكتمل؟ أم يضعونه في وعاء زجاجي ويعطونه للأم القاتلة كي تدفنه في فناء منزلها مع قط العائلة الأخير؟ وماذا تكتب على شاهد هذا القبر: مشروع طفل لم نعطه اسمًا؟

كيف فعلت ذلك بي؟ ألم تفكري فيَّ أنا؟ عندما علمت، وبعد أن أفقت من الصدمة ومن الصمت المطبق الذي حل عليَّ لأيام، عندما تمكنت من النظر إليها ثانيةً سألتها. قالت كلامًا مقتضبًا ذكرني بحواراتنا السابقة في آخر أيامنا بالجامعة. وأدركت وقتها أني لم أكن قادرًا على التواصل معها أبدًا من خلال الكلام، وأن المناقشات بيننا كانت دائما تأتي كترجمة لحالتنا النفسية. حين نكون متواصلين نفسيًا وعاطفيًا تأتي مناقشاتنا إيجابية، أما حين تكون هي في واد آخر، حينما ترحل إلى الكوكب الآخر، كوكب النظام والأصول والسيطرة والأحكام النهائية، فإن خيط الاتصال ينقطع تمامًا. كأنها خارج نطاق الجاذبية. قالت كلامًا وقلت كلاما. وقلت لها إنها قاتلة، وإن الله الذي تخافه كل هذا الخوف لا يمكن أن يقبل القتل. وإنها قتلت مرتين، الجنين وأنا، وتعدت على حقى، وقتلت طفلي، وإنها مجرمة وغير بشرية. قلت كلامًا كثيرًا وكانت جالسة بلا حراك في أريكتها، وقمت وغادرت الشقة وأنا أغلي من الغضب، ولم أرها بعد ذلك في باريس سوى صدفة، وأشحت بوجهي عندما رأيتها.

هل كنت أنا بلا خطيئة في ذلك كله؟ هذا ما سألته لنفسي طيلة هذه السنوات، وما زلت أسأله الآن. هل كان يجب أن أعلم أنها حامل؟ هل كان يجب أن أتحسب لذلك وأفكر فيه؟ هل كنت أستطيع؟ هل كان يجب أن أفهمها هي أكثر وأحاول أن أعرفها هي أكثر وأحاول أن أفهم منطقها؟ لماذا لم أحاول العبور لكوكبها وأحاول تفهم مدى احتياجها للسيطرة وللأصول والنظام والقواعد الحديدية بدلًا من أن أسخر من كل ذلك وأحاول إبقاءها على كوكبي؟ هذا الكوكب الذي كانت تصفه بكوكب الفوضى والغرائز وكان ذلك يثير غضبي وكنت أرى أن هذا الاتهام يعني أنها لا تفهمني البتة. ألم يكن من الأجدى أن أتجاوز الغضب وأحاول أن أفهمها أكثر؟ هل كان يجب أن أقرأ الإشارات في

الهواء؟ أن أحاول حقًا أن أراها هي وليس أن أراها كما أحبها وكما أريدها أن تكون؟ هل خلقت وهمًا وأحببته وقاومتها حين كانت نفسها الحقيقية تطفو على سطح الوهم؟ هل أحببتها هي أم أحببت ما أريد منها؟

ولكن، كيف كان يمكن لي أن أفعل أيًا من هذا وأنا في الرابعة والعشرين من عمري؟ ولكن ماذا عن الأعوام العشرين أو أكثر التي تلت؟ هل كنت خالي الذنب تمامًا؟ هل كنت أنا فعلًا الضحية مثلما اعتقدت طوال هذه الأعوام؟ أم إني شاركت في قتل هذا الطفل الذي لم ير النور؟ نفس الأسئلة، ونفس الحلم: وداليا الشناوي لا تغادرني قط.

* * *

ظلام. وصمت. ولا أستطيع النوم، الساعة ما زالت التاسعة، وأنا مجهد، وجائع، وقلق، ولا أستطيع النوم.

أين رجال الإنقاذ يا جبهة الإنقاذ؟ هذا ليس وقت الدعابات. أين الجميع؟ أين أنا؟ أصرخ، وأركض في المساحة الضيقة المحاصرة بالجدران، وأدق على الجدار حتى تؤلمني يدى. أين أنتم؟ أين ذهب الجميع؟

لا، لا يمكن أن يختفي الجميع هكذا، لا يمكن أن تكون هذه هي النهاية. هذا ليس وقت الغباء وسوء الإدارة. أين رجال الإنقاذ؟ هل يوجد مدينة واحدة في العالم ليس بها فريق إنقاذ؟ وأين أحمد كمال والقنصلية؟ ألم يكن يعلم أن هناك متفجرات في الخرطوم؟ هكذا قال، فماذا فعل؟ ألا تعلم حكومته أن مصالحها مستهدفة؟ ماذا فعلوا؟ يا داليا! يا قاتلة، ماذا تقولين الآن؟ هل تحبين شريعتهم الآن أكثر؟ أين أنت؟ أم إنك التي حملت المتفجرات بنفسك إلى هنا، يا قاتلة! داليا يا قاتلة!

صمت، لا أحد يرد. صمت وظلام، وإعياء يستولي عليّ.

* * *

إذا مت هنا، ماذا ستفعل أمي؟ هل ستظل في مصر أم تغادرها؟ بالتأكيد ستغادرها. هي التي أتت إليها متأففة ومتشككة وغير مصدقة أنها ستعيش في هذا البلد. لكنها أحبت مصر، وقعت في غرامها بعد شهر أو أقل، هكذا كان والدي يقول. قال إنها في الأسبوعين الأولين كانت متأففة، تخاف أن تشرب المياه وتصر على شراء مياه «إيفيان»،

ولا تأكل أي منتج محلي إلا مضطرة، ولا تقرب الخضراوات الطازجة أو الفاكهة التي لا يمكن تقشيرها، وأصرت على الإقامة في فندق لحين انتهاء أعمال السباكة والدهان في منزلنا القديم بالزمالك. وكانت تجلس في سيارات التاكسي وكأن عقربًا سيلدغها لو تحركت. وظلت تنظر بامتعاض مهذب إلى فوضى المرور وفوضى الشارع وفوضى نادي الجزيرة (الذي قالت عنه إنه أكثر تواضعًا مما تصورته) وبقية أنواع الفوضى، وتحاول ألا يبدو عليها ما تفكر فيه. وفي الأسبوع الثالث بدأت تتنبأ بسلوك الناس، فأصبحت تبتهج لقدرتها على المناورة في وسط تجهله تمامًا، وشيئًا فشيئًا أصبح الأمر وكأنه لعبة تلعبها مع المجتمع المصري. ولأنها امرأة، وجميلة، وبشوشة ونظرتها حانية وطيبة، فقد أحبها كل من تعامل معها وساعدها، وأصبحت تشعر وكأنها طفلة يدللها الجميع. ثم وصلت سيارة أبي من الميناء وبدأ عم سيد سائقنا القديم في العمل عليها، ومن ثم تحسنت حياتها في القاهرة تمامًا، وأصبحت تستطيع الذهاب لأي مكان بحرية، وأصبح عم سيد يقوم بالأعمال المزعجة نيابة عنها، بل وتحول إلى دليل سياحي لها، بإنجليزيته المحدودة جدًا. يعلم الله أي قصص رواها لها عن مصر، وعن العائلة التي عاش عمره يرقبها من مرآة السائق.

قالت لي أمي إنها شعرت بالاندماج في المجتمع المصري عندما بدأت تتعلم العربية، وعندما بدأت التدريس في الجامعة الأمريكية. وقال أبي إن أمي أحبت القاهرة حين تعلمت كيف تتعامل مع فوضاها، بل وأصبحت تجد في هذه الفوضى حرية أكبر من تلك التي وجداها في باريس حيث كان أبي يدرس الطب والتقاها وهي تعد الدكتوراه في الأدب الفرنسي. وشرح لي أبي نظريته في القاهرة التي أسماها «نظرية الجمل». قال إنه يمكنك أن تفعل أي شيء تريده في القاهرة ولن يوقفك أحد. لا توجد هنا تلك اللائحة الطويلة من التعليمات واللوائح والقوانين المقيدة لسلوك البشر مثلما هو الحال في باريس. الناس في الغرب أصبحوا كأنهم نيترونات أو كواكب صغيرة: يدورون في أفلاك لا يمكنهم الفكاك منها. في نيويورك أو واشنطن مثلًا، لو تركت سيارتك في مكان غير مخصص لك، لأخذها البوليس في أقل من نصف ساعة، أو أوقع عليك غرامة باهظة، وربما يتطور الأمر إلى قضية في المحكمة، ولو رفضت الدفع لحكم عليك بالسجن، ويمكن فعلًا أن تذهب للسجن بسبب هذا! في القاهرة، لو اشتريت جملًا وركبته وأوقفته أمام بيتك لما عارضك أحد. أقصى ما يمكن أن يحدث أن يأتي إليك شرطي المرور ويقول لك بأدب شديد: «من فضلك طلع الجمل قدام شويه علشان الطريق»!!

ماذا ستفعل أمي؟ وماذا ستقول؟ غالبًا ستغضب. أقول «تغضب» وليس «تحزن». طبعًا ستحزن، ولكن ذلك سيأتي فيما بعد. في البداية ستغضب، على الجماعات الأصولية التي قتلتني بلا ذنب اقترفته، بل على العكس، برغم كوني من الذين وقفوا مع حقوق أعضائها حين كانت الحكومة تنتهك هذه الحقوق. وستغضب على الحكومة لأنها في رأيها مسئولة عن نشأة واستفحال الأصولية، وعن عدم حمايتي ومن مثلي، وعن التقصير في حماية سفاراتها لدرجة تتعرض فيها لمثل هذا التفجير. وستغضب عليَّ أيضًا، لأني تصرفت بغير مسئولية وسافرت لبلد غير آمن. وستغضب مني لأني لم أستمع لها وأتزوج وأترك طفلين ورائي. ثم ستغضب على أوروبا التي لا تفعل شيئًا لمساعدة هذه البلاد التي تمر بأوقات عصيبة رغم الرخاء الذي تنعم به والذي يضع عليها مسئولية أكبر. وستغضب على أمريكا التي تشعل سياستها الحمقاء نيران الأصولية في العالم كله. وستعبر عن غضبها، للجميع، لمن سيأتي من قبل الحكومة ليعزيها، وللصحفي الذي سيجري حوارات معها، وللسفراء الغربيين، وربما كتبت خطابًا للمحرر في الهيرالد تريبيون.

ثم يأتي الحزن. وسيكون حزنها عميقًا ولكن برفعة. ذهب ابنها، بعد أن ذهب زوجها من قبل. وماذا يبقى لها في هذا البلد؟ بعض الصديقات، وبعض تلامذتها القدامى، وبعض من عملوا مع زوجها حين كان وزيرًا، ثم لا أحد. لا شيء يبقيها هي في مصر. لا شيء يبقيها في الحياة سوى ذكريات. لن تبكي، ولن تتحدث عن ألمها. ستبدو متماسكة للجميع، وستتماسك أيضًا في المنزل. ستبكي في هدوء. ستكون الأرملة الصامتة، المتماسكة، التي تنتبه إلى تفاصيل العزاء والاعتناء بالضيوف، دون أن يقلل ذلك من حزنها، هي التي ترفض كل أشكال الهستيريا والمبالغة في إظهار المشاعر.

ثم ماذا؟ سترحل. ربما تذهب إلى فرنسا، إلى ذلك البيت الصيفي في الجنوب الذي اشتراه أبي قبل وفاته بشهرين ولم نذهب إليه سوى مرة واحدة ـ في الشتاء! ستترك التدريس القليل الذي ما زالت تقوم به في الجامعة، وتقلل ارتباطاتها في القاهرة، عدا بعض المتعلقات التي ستبقيها كرمز لعودتها المحتملة، كأنها ليست مغادرة للأبد، ثم ترحل، ولن تعود، بالطبع. سترحل أمي عن مصر، وستصفي ما بقي مني، بقية حياتي، ذلك الجزء الذي يتمنى المرء أن يتركه من بعده.

وأصدقائي؟ راحوا جميعًا في زحمة الطريق. ما بين سفري وعودتي اكتملت دوائر حياتهم بدوني. تزوجوا وأنجبوا وصادقوا ودخلوا في

تجارب واكتملت حياتهم بدوني. وحين عدت اكتشفت أني لم يعد لي مكان فيها. بقي من الصداقة الود، والسؤال عند الشدائد ـ عندما نعلم بها، أما أصل الصداقة ـ الصحبة اليومية والتسكع في الشوارع والمقاهي والمناقشات والشكوى والإفضاء ـ فقد ذهبت. بقي ود قدامى الأصدقاء حين يلتقون في عزاء صديق مشترك، والانشغال الاجتماعي اليومي مع زملاء العمل، مع أشرف فهمي وقضاياه التي لا تنتهي، وأحمد كمال الموزع بين إنسانيته ووظيفته، وعدد قليل جدًا من البشر ألقاه، ويمضي عادة، راحلًا إلى بلاد الشمال من حيث أتى.

لن يبقى بعد موتي شيء يذكّر بي. لن يتبقى مني سوى عدد من المقالات، وثلاث كتب في القانون لا يستحق أي منهم القراءة من قبل أحد غير تلاميذي. ومكتب للمساعدة القانونية في قضايا حقوق الإنسان غالبًا ما ستغلقه الحكومة أو تورثه لمحامٍ قريب من الأمن. ومنزلنا القديم في الزمالك، وعم سيد المتهالك بلا أحد يقود له، وعدة تحقيقات صحفية عن موتي في الانفجار الذي وقع بالخرطوم عام ١٩٩٥.

* * *

ضوء باهت يتسلل من بعيد ويوقظني. هل نمت؟ هل كنت أحلم أم كنت يقظًا أفكر؟ الضوء ينمو ويغمر الغرفة شيئًا فشيئًا. هذه هي القطعة الأخيرة من وجبة الحبوب، ورشفة ماء.

* * *

في أول العام الدراسي الثالث لي بالجامعة، قابلت «ماري آن». كنت واقفًا أنتظر المصعد الصغير الذي يقود للطابق الثالث حيث مكتبي بقسم الدراسات العليا، حين جاءت فتاة لا تتجاوز الثانية والعشرين ووقفت بجواري في انتظار المصعد. كانت نحيفة، ذات شعر كستنائي طويل وناعم، وعينين خضراوين كالفيروز، وملامح وجه دقيقة، بيضاء، ذات شفتين رفيعتين، وبعض المرح يطل من عينيها، وترتدي جاكت أخضر شتوي ما زال مبكرًا ارتداؤه، له ياقة من القطيفة البنية المخططة، وتحمل بعض الكتب على صدرها مثلما تفعل سعاد حسني. قلت لها صباح الخير فردت مع ابتسامة ودودة. دخلنا المصعد وسألتها أي طابق، قالت الثالث فضغطت عليه وصمتنا. أزيز المصعد يزيد من التوتر والحرج الملازم لرجل وامرأة في مصعد صغير. وصلنا الطابق الثالث وتوجهنا للممر، ظللت أمشي وهي تمشي في نفس الاتجاه حتى وصلنا لباب مكتبي، نظرت لها فنظرت لي وضحكت

وقالت: «إنت نشأت غالب؟»

وماري آن كيبيكية، هكذا تحب أن تعرف نفسها. قلت لها ألا أحد خارج كندا يعرف معنى هذه الكلمة، فردت ساخرة إن ذلك قد يكون صحيحًا في مصر، ولكن بقية العالم يعرف ما هي كيبيك. لو قلت إنها فرنسية ـ كندية لاعترضت وقالت إن هذه التسمية لا معنى لها، فهناك كنديون كثيرون ناطقون بالفرنسية، في كيبيك وخارجها، والكيبيكيون يشكلون أمة متميزة ليس فقط عن بقية كندا وإنما أيضًا عن الناطقين بالفرنسية في بقية أنحاء كندا، كما أن هناك ناطقين بالإنجليزية من أبناء كيبيك، ومن ثم فهي كيبيكية، ولا شيء آخر. ماري آن الكيبيكية تعد رسالة الدكتوراه بإشراف مشترك بين أحد أساتذة القانون بالسربون وأحد أساتذة العلوم السياسية بجامعة مونتريال حول المفاوضات العالمية الرامية لوضع قوانين دولية تحكم موضوعات حماية البيئة والعلاقة بين دول الشمال والجنوب في هذه المفاوضات، وهو مجال بحثي جديد، بدأ الاهتمام به مع عقد مؤتمر كبير للبيئة في استكهولم قبلها بعام. قالت لي ماري آن إنها ذهبت لاستكهولم لمراقبة المؤتمر في إطار البحث الذي تقوم به. وأعجبني هذا المزج بين القانون والعلوم السياسية، وهذه الجرأة التي تدفع بفتاة في الواحدة والعشرين (مثلما تبين) للسفر للمشاركة في مؤتمر ليست مدعوة له، ثم الاستقرار في باريس لإنهاء رسالة الدكتوراه بإشراف من جامعتين وقسمين في بلدين مختلفين.

جاءت ماري آن لتساعدني في تدريس مادة تدور حول كيفية تحويل قواعد القانون الدولي إلى قوانين في التشريعات الوطنية المختلفة، باعتبار أن هذه المادة تتماس هي ورسالة الدكتوراه التي تعدها. وكان القسم قد أبلغني بأنهم سيرسلون «شخصًا» ليعمل كمساعد لي. وسرني أن تكون هذه البنت الرقيقة هي هذا «الشخص». ونمت بيننا سريعًا صداقة حميمة، تجمع بين الشراكة في العمل والتفاهم الشخصي. وحكيت لها عن قصصي في مصر، وعن داليا. وحكت لي عن حياتها وعن كندا (وكيبيك) وعن «شريكها» مارك، الذي تحبه ويحبها، والذي قرر البقاء في مونتريال.

* * *

الثانية ظهرًا.

ثمان وعشرون ساعة منذ الانفجار.

نفد الطعام منذ الصباح. أكلت كل فتافيت الحبوب التي أمكنني العثور عليها في الكيس. ولم يأت أحد بعد. لا يهم، فلن أموت من الجوع. الماء هو المهم، ولكن الإعياء، الإعياء....

* * *

أحب أن أراها، وأشعر بالسكينة في وجودها، وأحب أن أسمعها تتكلم: أحب صوتها ولكنتها الكيبيكية، وأحب ملابسها البسيطة التي أراها وحدي أنيقة، وأحب طريقتها في رؤية الأمور وعرضها: بسيطة دون تعقيدات، منطقية، وإيجابية. أحب بشاشتها وقدرتها على جعل من حولها يبتسمون، لطفها مع الباعة في المحلات والجرسونات في المقاهي، الوحيدة التي رأيت سائقي الحافلات الفرنسيين يقولون لها «نهارك سعيد» حين تصعد للحافلة! أحب جديتها في العمل مع الطلبة دون مبالغة ولا سلطوية أو عقد. أحب قلقها وشكها في قدرتها على التدريس وعلى الدراسة وعلى إنهاء الدكتوراه، ثم قيامها بكل ذلك باقتدار. أحب طيبتها وإحساسها الفطري بالحق وبغضها للظلم على أي مستوى وبأي مقدار كان. أحب صدقها، واحتقارها للكذب والمراوغة. أحب تعاطفها مع الضعفاء، وقوتها. أحب رقتها المتناهية، ونظرة عينيها. وأحب نفسي حين أكون معها. وأشتاق لها حين تغيب. وأنتظر يوم الثلاثاء حين تأتي للتدريس. وأخترع مناسبات للتحضير المشترك أو التنسيق ـ فقط كي أراها يومًا إضافيًا. وأستمع بلا ملل لحكاياتها عن نفسها وعن شريكها مارك، ولا أفهم كيف قرر أن يتركها ترحل وحيدة وأن يبقى بدونها في مونتريال. وأسعد حين تتصل بي باكية لتشكو لي أمرًا، سواء شعورها بالجرح لأن طالبًا إفريقيًا اتهمها بالعنصرية ظلمًا أو لأن مارك لم يتصل بها في مناسبة ما مهمة لها.

أصبحت ماري آن المعين النفسي لي على اجتياز محنتي في باريس، وعلى محاولة تجاوز ما فعلته داليا بي. كانت دائمًا تحاول أن تجعلني أرى الأمور من وجهة نظر داليا، ليس من باب الدفاع عنها وإنما إقرارًا لاختلاف الرؤى بين الرجال والنساء. وكانت ماري آن أول من لفت نظري لحقيقة أن الرجال والنساء يرون الأمور بشكل مختلف جذريًا، وهي وجهة النظر التي تطورت فيما بعد إلى كتاب «الرجال من المريخ والنساء من الزهرة». وكنت قبلها أؤمن فعليًا بأن الرجال والنساء متطابقان، وأن الفروق بينهم بيولوجية وليست فكرية أو عقلية، وعلمتني ماري آن أن المساواة لا تعني التطابق، وأن ذلك لا يعني أن تصرفات المرأة عاطفية أو غير عقلانية، وإنما أن هناك عقلانية أخرى تفسر هذه التصرفات.

ـ العقلانية ليست مرادفًا للتفكير الخطي الذي يركز على الانتقال من النقطة أ إلى النقطة ب بأقصر طريق ممكن، واستخلاص النتائج من المقدمات الظاهرة والانتقال لتنفيذ توصيات تتعامل مع هذه المقدمات. هذا تفكير عقلاني ولا شك، ولكنه ليس التفكير العقلاني الوحيد. هناك عقلانية أخرى، تقوم على التواصل بين الأفراد وأخذ حساسياتهم في الاعتبار، تقوم على الاستكشاف والاستماع لوجهات النظر المختلفة، تجميع الرؤى المختلفة، إدماج الحساسيات العقلية والنفسية التي تقف خلف هذه الرؤى بحيث تتطور تدريجيًا لنسق واحد جديد ينشأ عن هذه الرؤى، بحيث تجد المكونات الأصلية لهذه الرؤية جميعها مكانًا لها في الرؤية النهائية المنبثقة عنها. هذا ليس أقل عقلانية، وفي الحقيقة، فهذه الطريقة توفر إجماعًا أكبر على الرؤية النهائية، في حين أن العقلية الرجولية، الخطية، هي بطبيعتها عقلية تصادمية تقوم على فرض رؤية واحدة و«إقناع» الرؤى الأخرى بالانسحاب أو قمعها.

من أحاديثي المطولة مع ماري آن، أدركت كيف أن الرجل والمرأة يتحدثان بلغتين مختلفتين، وأنه برغم استخدامهما نفس المفردات فإن كلًا منهما يعني شيئًا مختلفًا بهذه المفردات، وهو مصدر الخلط والتصادم في كثير من الأحيان بينهما. وصرت المستشار الرجولي لها، أشرح لها كيف يمكن لمارك أن يفسر كلامها وأفعالها، وأفسر لها ما يمكن أن يقصده مارك بأفعاله وكلماته، وهي تشرح لي الرؤية النسوية للأمور من خلال إعادة مناقشة ما حدث مع داليا أو من خلال قصصها هي مع مارك. ولكن مشورتي، مع إخلاصها، لم تفلح في تحسين الأمور بينها وبين مارك.

بعد نهاية الفصل الدراسي والتدريس المشترك، بدأنا في العمل سويًا. هي تحضر مشروع رسالة الدكتوراه وأنا أواصل البحث اللازم لكتابة رسالة الدكتوراه الخاصة بي. لم نكن نعمل كفريق، بل كنا نجلس سويًا في مكتب صغير حصلنا عليه من القسم ونعمل كلًا على حدة. نأتي للمكتب في الصباح ونبدأ العمل مع القهوة، ثم نذهب في الظهيرة لتناول غداء سريع في كافتيريا الكلية أو في أحد المطاعم أو المقاهي بجوار الجامعة، ونعود للمكتب لمواصلة العمل حتى السادسة مساء تقريبًا، ثم يذهب كل منا في حال سبيله. لم أكن من اقترح هذه الخطة، لم أكن لأجرؤ على ذلك. هي التي اقترحتها، في بساطة وعفوية شديدة. وتلقفت الاقتراح ثم خاطبنا رئيس القسم الذي منحنا هذا المكتب. صرت أراها كل يوم، وتحسنت أحوالي النفسية، واستطعت ألا أفكر في داليا وفيما حدث طول الوقت مثلما كنت أفعل، وأن أعمل بجدية أكبر وأنجز أسرع. كنت أرفع عيني عن الأوراق وأرى ماري آن

جالسة تكتب، أو تفكر وهي تضع القلم الرصاص بين شفتيها، أو تعد قهوة وخصلات من شعرها الكستنائي تهبط على ماكينة القهوة، وأدرك أني أقع في حبها. هل كانت تبادلني الحب؟ فيما بعد ـ حين سألتها ـ أنكرت. وقالت إنها لم تكن تفكر إلا في مارك، وأنها تجد فيّ صديقًا مقربًا لا أكثر. ولكن.

ولكن كان هناك شيء ما في طريقتها، في بقائها المستمر معي، في الطاقة المنبعثة منها تجاهي، في قربها، تقول لي إن هناك ما هو أكثر من الصداقة. حرصت على عدم إظهار مشاعري إزاءها، ولكنها كانت ولا ريب تدرك، بحسها الأنثوي وحدس بنات برج العذراء الذي قلما يخطئ، أني أحبها. ولم نتحدث في هذا الأمر آنذاك. كانت علاقتها بمارك تسوء تدريجيًا منذ سفرها. وصبيحة ذات يوم من أيام أكتوبر، أبلغتني في منتصف حديث عابر أنها ستسافر إلى مونتريال وتعود قرب نهاية العام، بعد أعياد الميلاد مباشرة، وذلك لترتيب الأمور مع مارك وإصلاح ما أفسده البعد والوقت، وقضاء عيد الميلاد مع أسرتها ثم العودة لباريس كي نواصل العمل سويًا. وقع الخبر عليّ كالصاعقة، وحاولت أن أجد حججًا يمكن أن تمنعها من السفر دون أن تفصح عما يدور بقلبي: الدكتوراه، التقدم الذي أحرزناه، ألا تخشين لو سافرت أن ينقطع حبل عملك وتضيعين وقتًا ثمينًا للعودة مرة أخرى لهذه النقطة؟ وحتى الجو البارد بمونتريال، وألم تقولي إن والديك أرادا القدوم لباريس لعيد الميلاد؟ وهل يمكنك إصلاح ذات البين بقضاء شهرين هناك؟ ثم ماذا يحدث عندما تسافرين مرة أخرى؟ ولماذا لا يأت مارك إلى باريس؟ ألم تقولي يجب أن يشعر الرجل أن امرأته غير متاحة كي يريدها؟ وأستاذك هنا: ماذا سيقول؟ وكتبك وأوراقك: هل تأخذينها أم تتركينها؟ وماذا لو فقدتِها في المطار؟ وربما يأخذون منا هذا المكتب إن رحلت وصرت أنا وحدي، ثم كيف تتركين صديقك الذي اتفقت معه على العمل وحده؟ أليس هذا تخلي عن الأصدقاء؟

لم يجد شيئًا من هذا نفعًا. رحلت ماري آن إلى مارك على أن تعود. ثم أرسلت لي خطابًا تقول فيه إنها لن تعود في نهاية ديسمبر مثلما قالت، ثم قالت إنها لن تعود، وستعمل من جامعتها بمونتريال وتظل بجانب مارك لأنها تدرك أن البعاد سيقضي على علاقتهما دون شك. غضبت. وعبرت عن هذا الغضب، وقلت لها إن هذا كلام عيال، وإن بيننا عملًا واتفاقًا، وإني اعتمدت عليها، ولم أفصح عما أعنيه بذلك، ولكني كنت أعرف أنها تفهم. اعتذَرت مطولًا، وعبَّرت عن التعاطف الشديد، ولكنها لا تستطيع ـ قالت ـ العودة لأسباب عديدة. قالت إن هذا هو الحل الوحيد إذا أرادت إنقاذ علاقتها بمارك وإعطاءه فرصة حقيقية، وإنها لو

تركته فيجب أن يكون ذلك نابعًا من رغبة لديها أو لديه بألا يكملا معًا، وليس نتيجة لبعدهما بعضهما عن بعض. كلام منطقي وسليم، ولكن هذا الكلام تركني وحيدًا في باريس، أواجه عالمًا غير ودود، ودكتوراه لا تنتهي، ووحدة مطبقة، في الجامعة وفي الحياة، ودااليا مؤلمة، وطفل مجهض، وحزن يعتصرني. حين قالت ماري آن إنها لن تعود فهمت إلى أي مدى أصبحت سندي النفسي، الخيط الذي يربطني بالحياة، الذي يمنحني الطاقة اللازمة لأستيقظ في الصباح وأخرج من فراشي، لأرتدي ملابسي وأذهب للجامعة، لأجلس في هذا المكتب المعتم وأعمل لمدة تسع ساعات كل يوم لا يقطعهم سوى فنجانين من القهوة وغداء معها. وعندما سحبت هذا الخيط، هويت، دون تمهيد، في وحدة مطلقة.

الجوع لن يقتلني، ولكنه سيفتك برأسي. يقلل الجوع من قدرتي على التركيز، يجعلني عصبيًا، ويصيبني بصداع. سيحل ظلام آخر، قريبًا. وما زال الصمت الغريب مطبقًا وبلا تفسير. أأكون أحلم؟ هل مت؟ هل فقدت الوعي مثلًا وأنا الآن أحلم في حين أن عمال الإنقاذ قد جاءوا بالفعل وأخرجوني؟ أأكون الآن في طريقي للمستشفى، أو على مائدة الجراحة. في الخرطوم؟ لا، لا أرجوك، لا جراحة في الخرطوم. ربما أكون في حالة فقدان للوعي وعلى متن طائرة تحملني إلى باريس للعلاج. ولذا لا أسمع شيئًا. كثيرًا ما كنت أحلم وأدرك في وسط الحلم أني أحلم، وأحاول أن أمد الحلم لكني أصحو غصبًا عني. إن كان هذا حلمًا، فهل يتوقف؟ كيف أخرج منه؟ وإن كان هذا حلمًا فلن أموت، لا من الجوع ولا من العطش. ولكني أكتب، وألمس الورق والقلم بيدي، وألمس هذا الجدار الذي يحيط بي، وأسير في هذه المساحة الضيقة، وأجرح يدي بالدق على الجدران. ولا ينتهي الحلم. أأكون قد مت وهذا هو المطهر؟ بدون ملائكة، ربما رفض الملائكة القدوم للخرطوم، أو لمسيحي لا ترضى الكنيسة عنه. ربما يكون هذا هو عذابي، أن أظل هكذا في هذا القبر بلا شيء أفعله، أراجع حياتي وما فعلته من صواب ومن خطأ، وأفكر، وأشعر بالجوع والعطش والصداع والملل والخوف والقلق والترقب حتى يوم القيامة. ربما.

* * *

عندما انفتح باب المصعد الصغير الذي يقود للطابق الثالث حيث مكتبي بقسم الدراسات العليا، رأيت فيه فتاة لا تتجاوز الثانية والعشرين، نحيفة، ذات شعر كستنائي طويل وناعم، وعينين خضراوين كالفيروز، وملامح وجه دقيقة، بيضاء، ذات شفتين رفيعتين،

وبعض المرح يطل من عينيها، وترتدي جاكت أخضر شتوي مازال مبكرًا ارتداؤه، له ياقة من القطيفة البنية المخططة، وتحمل بعض الكتب على صدرها مثلما تفعل سعاد حسني. عندما انفتح باب المصعد ورأيتها ذهلت، ونظرت إليها غير مصدق، فابتسمت وألقت بنفسها بين ذراعي وعانقتني. خرجنا من المصعد، ووقفنا أمامه متلعثمين. قلت ماذا تفعلين هنا؟ هل عدت؟ وقالت وأنت ماذا تفعل هنا؟ خلتك عدت إلى مصر؟ قلت كنت ذاهبًا إلى كذا وقالت كنت في طريقي إلى كذا، واتفقنا أن نلتقي على قهوة في الخامسة من مساء ذلك اليوم.

كانت منهارة. انتهت علاقتها بمارك منذ شهور، اكتشفت بعد عدة شهور من عودتها أنه كان قد ارتبط بفتاة أخرى ولم تواته الشجاعة ليعترف لها بذلك فظل على علاقة بالاثنتين (ويعلم الله ماذا كان يقول للفتاة الأخرى)، ثم واتته الشجاعة واعترف، وقطع علاقته بالأخرى. حاولا أن يعيدا بناء حياتهما ولكن شيئًا ما كان قد تغير بينهما. لم يعد حريصًا عليها مثلما كان، لم تعد تجد في عينيه نظرة الإعجاب نفسها، وإنما نفاد صبر وتوتر وتهكم، وشكوى من شكواها المستمرة. وبدأ يرى في حبها «مطالب عاطفية» إزاءه، وكانت تلك هي علامة النهاية، واتفقا على الفراق، لكنها كانت منهارة.

ـ هذا اتفاق في الشكل فقط، ولكن الحقيقة أنه هو الذي تركني، تركني من داخله، ولم يبق أمامي إلا أن أتركه أو أقبل أن أعيش مع رجل لم يعد في داخله يريدني، وهو طبعًا ـ مثل أي رجل ـ لم تواته الشجاعة لتركي، بل ظل يترك الحياة بيننا تتدهور على أمل أن تصل لدرجة لا أستطيع تحملها فأتركه ويشعر هو براحة الضمير لأنه لم يتركني. جبان.

ـ ....

ـ ولكني ما زلت أحبه.

ثم نوبة طويلة من البكاء، يعقبها استئذان، ودخول حمام لفترة تطول، ربما يتخللها نوبة بكاء وتشنج أطول وأكثر حرية، ثم عودة من الحمام محمرة العينين والأنف، وابتسامة مغتصبة وجلوس شاحب. تركا بعضهما بعضًا، وجمعت حاجياتها ووضعتها في بيت أهلها بمدينة كيبيك، وقررت عدم استكمال الدكتوراه وجاءت إلى باريس لتسحب أوراقها وتجمع بقية حاجياتها.

ـ ولماذا لم تتصلي بي؟

ـ كنت أظنك قد عدت لمصر، كما أني خشيت ألا ترد عليَّ. آخر مرة تحدثنا كنت شديد الغضب علي.

وابتسمت، وانفتح قلبي على الفور ودون انتظار ودون مساومة ودون وعود منها. وبعد مناقشة طويلة أقنعتها بالبقاء واستكمال الدكتوراه. قالت إنها لم يعد لديها فكرة عما حدث في موضوع دراستها منذ حوالي عام، وإنه سيتعين عليها البدء تقريبًا من جديد، وإنها لم يعد لديها خطة للعمل أو البحث أو تصور للكتابة، ولم تقرأ كتابًا واحدًا منذ ستة أشهر، ولا تجد في نفسها طاقة للقراءة أو البحث أو العمل، وليس لديها سكن في باريس ولا موارد مالية تكفي للحصول على سكن يشبه ذلك الذي كانت قد حصلت عليه من الجامعة وفقدته بسبب سفرها، ولا تستطيع أن تذهب للإقامة في الضواحي البعيدة، وإنها ستموت من الاكتئاب في قطار الضواحي لو اضطرت لركوبه لمدة ساعة مرتين في اليوم، وإنها تبكي طوال اليوم في نوبات متصلة، وتراودها أفكار في الانتحار ولولا حرصها على مشاعر أمها لفعلتها، وغير ذلك مما يقوله المحبون بعد الفراق.

وحملتها. حملتها في قلبي وعلى كتفيّ. وضعنا سويًا خطة للعمل والكتابة ضيقت من نطاق البحث قليلًا ولكنها جعلته أكثر واقعية وأكثر قابلية للتنفيذ دون أن تفقده قيمته العلمية. وصرت أبحث لها عن الكتب وأجلبها من المكتبات المختلفة، وآخذها إلى مكتبات أخرى لتشترك فيها وتطلع على ما عندهم. وعرفتها على رفاق لي في جامعات أخرى ليساعدوها أيضًا. وساعدتها في قراءة بعض الكتب، بل وقمت بتلخيص بعض الكتب لها، وكانت تضحك وتقول إني أكثر مساعد باحث خبرة وتأهلًا، وكنت أبتسم ولا أعلق. ودبرت لها شقة على مقربة من الجامعة تقطنها زميلة مصرية كانت مسافرة لشهور، ولم تطلب الزميلة نقودًا لأنها كانت تحتفظ بالشقة في كل الأحوال، وتركتها لماري آن ريثما تستقر أمورها مقابل أن تعتني بالنباتات وتدفع فواتير المياه والكهرباء والتليفون.

في الصباح، أمّر عليها لآخذها إلى المكتب، ونظل نعمل طوال النهار مثلما كنا نفعل منذ أكثر من عام. كانت نوبات البكاء تأتي في وسط العمل، فنتوقف ونتحدث قليلًا، وأؤكد لها أنها جميلة، وأنها امرأة رائعة، وأن الجميع يقدرها ويحبها، وأنها ستنسى هذه القصة. وتقول لى: «أعتبر هذا وعد؟» وأقول نعم ونضحك، وتعود للعمل، ثم للبكاء. كتبت هذه العبارات بخط كبير على لافتات ووضعتها بجانبي، وكلما بدأت أعراض نوبة البكاء رفعت هذه اللافتات الواحدة تلو الأخرى: «أنت

جميلة»، «أنت أفضل طالبة دكتوراه على الإطلاق»، «كلنا نحبك»، «ستكونين بخير»، ثم: «اعتبري هذا وعدًا». وتضحك وهي تبكي، وأبتسم أحيانًا وأزجرها أحيانًا، وتعتذر وتنصاع وتعود للعمل، ثم تتوقف وتسألني عن كيفية تفكير الرجال، ثم نعود للعمل، ثم نذهب للغداء، ثم نعود للعمل، ثم آخذها لمنزلها وأتركها تستريح، وأعود إليها في المساء لأصطحبها إلى السينما، أو لمعرض فني، أو لزيارة أثر ما، أو لحضور حفل موسيقي، أو للرقص، أو لتمشية على النهر، ثم أعيدها في الليل وأقبلها على وجنتيها وأتركها تنام.

تحسنت. وصارت نوبات البكاء أكثر تباعدًا ثم توقفت، وقلّت توقفاتها المفاجئة عن العمل وأسئلتها عن طبيعة الرجل في وسط النهار، وعاودت الاتصال بأصدقائها القدامى، وتعرفت على أصدقاء جدد، ثم بدأت تدعوني للمنزل وتعد لنا العشاء أحيانًا، وتدعو زملاء معنا في أحيان أخرى، واستأنفت التقدم في العمل، وحين عدنا للتشاجر حول تكييفات القانون الدولي مرة أخرى. تأكدت أنها عادت لحياتها الطبيعية.

عادت بعض الحمرة إلى وجنتيها، وعادت عيناها تلتمعان في شقاوة ودلع من وقت لآخر، وصارت تبقى بجواري لفترات أطول، لصيقة بي، ويطول عناقها لي لحظة زائدة، وأحيانا تخفض عينيها في خجل بعدها، وبدأت تقول إنه خسارة أني سأعود لمصر قريبًا. وذات مساء، أوصلتها لشقتها في الواحدة صباحًا بعد أمسية قضيناها في المسرح. سألتني إن كنت أود البقاء لشراب أو لقهوة، فشكرتها وقلت إن الوقت تأخر ويجب أن نكون في المكتب في الصباح. وربتت على كتفي وابتسمت، ثم شبّت قليلًا وطبعت قبلة سريعة على وجنتي. قبلتها بمثلها، وتمنيت لها نومًا هادئًا، ورحلت عائدًا لبيتي.

في الصباح، وبينما كنت أعد القهوة في المكتب أثناء استراحتنا الأولى من العمل، نظرت إليَّ وقالت إنها كانت تود لو أني قد بقيت معها تلك الليلة ولم أعد لمنزلي. شعرت وكأن صاعقة هبطت عليّ. انعقد لساني، وظللت أنظر إليها ولا أستطيع الرد. لا يعلو وجهي أي تعبير. أنظر إليها وأحاول النهوض من على الأرض التي كومتني عليها المفاجأة. ثم قلت شيئًا لا أعتقد أنها سمعته، فهزت رأسها مستفهمة ـ وكانت كل هذا الوقت تنظر إليَّ في ابتسام وترقب لرد فعل من جانبي ـ فغمغمت شيئًا، ثم قلت لها إني أحبها، وإني أحببتها منذ كنا نشترك في التدريس، ومنذ أيام المكتب العام المنصرم، وإني وإني، فصمتت تمامًا، ولم تعلق. ثم قامت ووضعت يدها على كتفي وقالت إني شخص عذب للغاية، وإنها تحبني كثيرًا، ولكنها ليست في حالة حب

معي، وإني أقرب إنسان لها، ولكن ذلك ليس الحب، وقالت إنها آسفة، وإنها تشعر بأنها استغلتني، ولكنها قد خرجت لتوها من تجربة مريرة وليست مستعدة لتقع في الحب من جديد. أجهز ذلك على ما تبقي فيّ من قوة، وشعرت بأن الأرض تميد بي، حرفيًا، وأن يدها الموضوعة على كتفي تحرقه، ودوار لا يتوقف.

غمغمت شيئًا لم أسمعه أنا نفسي، وابتسمت مرتبكًا، ثم أكملت صنع القهوة. جمعت بعض الشجاعة، وقلت لها إن ما تقوله غير حقيقي، لا تقولي لي إن مشاعرك ناحيتي هي مجرد صداقة! هل كان من باب الصداقة أن نقضي كل هذا الوقت معًا في العام الماضي؟ إننا لم نكن نرى بعضنا غير بعض، لم نكن نتحدث مع أحد غيرنا، لم نكن نفعل شيئًا دون وجود الآخر. وهذا القرب، هذه الحميمية، هذا الانجذاب، وهذه الطاقة التي لا ينكرها إلا مكابر، هل كانت من باب الصداقة؟ ظلّت صامتة، وتلعثمت، ثم قالت إنها تعترف أنها تكن لي مشاعر تفوق الصداقة، ولكن رؤيتها لنفسها ومستقبلها لا تتضمن أن تكون مع عربي، وقطعًا لا تتضمن أن تعيش في بلد كمصر. ومن ثم فقد قررت ألا تترك أي فرصة لهذه المشاعر كي تتطور إلى الحب. توقفت عن صنع القهوة، ولم أستطع النظر إليها. صمت لبرهة، ثم قلت لها إني لا أستطيع أن أواصل. قالت إن اليوم ما زال في أوله، فقلت إن ما عنيته هو أني لا أستطيع أن أواصل معها عامةً وليس اليوم فقط. بدت عليها الصدمة، وأخذت تتمتم ببعض الكلمات بينما جمعت أشيائي من المكتب، ورحلت، وقطعت الاتصال بها كليةً.

* * *

كيف انهارت الأمور في مصر إلى هذه الدرجة؟ كيف ضربت الفوضى والإهمال والتسيب وانحدار الكفاءة في كل شيء هكذا وبهذه السرعة؟ من الرقابة على الغذاء إلى فشل الطب، وتلوث الهواء، والإشعاع في الأغذية، وانهيار التعليم من المدرسة إلى الجامعة والبحث العلمي، والاستبداد السياسي، والتمييز الديني، والتعذيب، وسيطرة الأمن على الجامعة وبقية مؤسسات المجتمع والدولة، وسيطرة التخلف على عقول الطلبة، والنخبة، والإرهاب الفكري، وتدهور مستوى الثقافة، الشعبية منها والرسمية والنخبوية، وانتشار الهبل في الصحف والراديو والتليفزيون، وإعلاء قيمة المال حتى أصبح المعيار الأول لتحديد الأولويات للفرد والمجتمع والدولة، والكسب السريع، والانفتاح الاستهلاكي، وانهيار دور الدولة في إدارة الشئون العامة من تنظيم المرور إلى تنفيذ أحكام القضاء، واستيراد أسوأ ما

في الغرب والوقوف ضد أفضل ما فيه، وانحطاط المهنية في سائر المهن من السباكة إلى التدريس بالجامعة، واختفاء الجمال، من تصميم البيوت والمباني والشوارع والحدائق إلى مظهر الرجال والنساء والأطفال، والصخب، والتفاهة، والميلودرامية، وطفولية البالغين، وإدمان النكد والشقاء، والوقوف بالعرض في كل شيء. كيف؟

أبي وأمي والجيل الذي يمثلونه يلومون الثورة واستيلاء الضباط على السلطة في المجتمع ككل والإطاحة بالطبقة الوسطى العليا والقيادة الاجتماعية التي أنشأت جامعة القاهرة وقادت حركة التنوير. وزملائي بالجامعة ممن درسوا معي يلومون السادات والانفتاح وسقوط المشروع القومي وتفكك المؤسسات الاجتماعية الذي نتج عن الانهيار المفاجئ للقوانين والمعايير، وطبعًا نعلم ما ستقوله داليا وأعوانها، وعشرات من المؤلفين والكتاب ممن وضعوا كتبًا في هذا، وأنا منهم. ولكن هذا ليس السؤال الذي أطرحه الآن. أنا لا أتحدث عن النظرية، ولكني أسأل كيف حدث هذا الانهيار بهذا الحجم وبهذه السرعة وفي كل مناحي الحياة؟ أحيانا أفكر أننا لو أردنا أن ننظم انهيارًا لمجتمع ووضعنا كل قدراتنا في هذا الأمر لما نجحنا في إحداث انهيار مماثل لما جرى في مصر بهذه السرعة.

ثم إن هذا الانهيار جرى تحت سمع وبصر النخبة التي كانت قائمة قبل ذلك والتي نتباكى الآن على غيابها. فكيف تركت هذه النخبة الأمور تتدهور لهذا الحد؟ وكيف تعطل المشروع القومي ثم اختفى تمامًا هكذا تحت سمع وبصر أصحاب المشروع؟ كيف انهارت الجامعة مثلًا؟ كيف انتقلنا من كلية الحقوق القديمة التي تخرجت أنا فيها إلى هذا المكان الذي أعمل فيه؟ ولا أتحدث فقط عن الطلبة، ولكن عن الأساتذة قبلهم؟ لا يمكن أن يكون هذا التحول قد حدث فجأة. لم ننم ونستيقظ فوجدنا البلد في هذه الحالة. لقد وقع هذا الانهيار شيئًا فشيئًا وتحت بصرنا جميعًا، فكيف لم نفعل شيئًا لوقفه؟ أين كنا نحن حين حدث هذا؟

* * *

عندما انفتح باب المصعد الصغير الذي يقود للطابق الثالث حيث مكتبي بقسم الدراسات العليا، رأيت فيه فتاة لا تتجاوز الثانية والعشرين، نحيفة، ذات شعر كستنائي طويل وناعم، وعينين خضراوين كالفيروز، وملامح وجه دقيقة، بيضاء، ذات شفتين رفيعتين، وبعض المرح يطل من عينيها، وترتدي جاكت أخضر شتوي مازال مبكرًا

ارتداؤه، له ياقة من القطيفة البنية المخططة، وتحمل بعض الكتب على صدرها مثلما تفعل سعاد حسني. عندما انفتح باب المصعد ورأيتها هززت رأسي مستنكرًا وقلت لا، ليس للمرة الثالثة. ابتسمت، ونظرت إليّ في حذر وكأنها لا تدري هل سأعانقها أم سأصفعها. ابتسمت لها وأنا ما زلت أهز رأسي وطبعت على وجنتيها قبلة باردة، وقاومت مشاعر تتحرك في قلبي لرؤيتها وللشعور بقرب وجهها. قالت إنها قادمة من استكهولم حيث كانت تجري بعض المقابلات البحثية، ومارة من خلال باريس لمدة يوم واحد للقاء أستاذها المشرف على الرسالة، وستسافر في الغد إلى مونتريال للقاء أستاذها المشرف الآخر وإجراء بعض البحوث في المكتبات الكندية، «حتي إني تركت حقيبة سفري في المطار لدى شركة الطيران، وليس معي غير أشياء بسيطة لقضاء الليلة»، وأشارت لحقيبة يدها الكبيرة. وقفنا متلعثمين لحظات بعد انتهاء هذا الحوار القصير، ثم قالت إنها ستلتقي بمشرفها الفرنسي في الثالثة، وليس لديها ارتباطات بعد ذلك، وسألتني إن كنت أحب أن نلتقي، ربما من أجل تناول «العشاء الأخير»، فضحكت وقلت أتمنى ألا أكون أنا من سيلعب دور المسيح، فنحن نعرف كيف ينتهي الأمر بصاحب هذا الدور.

والتقينا، للمرة الألف، على قهوة في الخامسة. وتحدثنا عما دار بيننا، وأعادت على مسامعي قصة مشاعرها إزائي التي تتجاوز الصداقة ولكنها تمنعها من بلوغ درجة الحب لأنني عربي ولأنها لا يمكن أن تعيش في مصر، وقلت لها لأي مدى أجد حديثها منفرًا وعنصريًا، بل وغير قابل للتصديق، وقالت إن الأمر لا علاقة له بالعنصرية، ولكنه يتعلق برؤيتها لنفسها ولحياتها ومستقبلها ونوع الحياة الذي تريده، وقلت إني لا أريد الإطالة في هذا الموضوع، وإني لا أريد أن أرتبط بامرأة لا تريدني، أيًا كانت أسبابها، ولكنها تخطئ إذ تحاول التحكم في مشاعرها بهذا الشكل، فابتسمت وقالت ألا حيلة لها في ذلك لأنها من مواليد برج العذراء، وابتسمت وانتقلنا لموضوع آخر. تحدثنا عن عملها والبحث الذي تقوم به، وإلى أين وصلت في كتابة رسالتها وما فعلته منذ افترقنا، وعن رسالة الدكتوراه الخاصة بي التي أنهيتها وسلمتها للقسم، وموعد سفري القريب للقاهرة، وأني أفكر أن أؤجل عودتي عدة شهور لحين مناقشة الرسالة بحيث لا أضطر للعودة لباريس بعد عدة شهور، وربما أتمكن من اللحاق بنصف العام الثاني بحيث أبدأ التدريس في جامعة القاهرة في يناير. وسألتني عما إذا كنت قد فكرت في الاستجابة للعرض الذي قدمه لي القسم بالبقاء في باريس والتدريس بصفة دائمة هنا. فقلت إني فكرت مليًا في ذلك وقررت الاعتذار، وإن جامعة القاهرة أولى بي، وبخاصة أنهم أعطوني هذه

المنحة الدراسية طيلة هذه السنوات، فقالت إن السربون سيسدد قيمة المنحة في حالة قبولي الوظيفة، فقلت إني أعرف، ولكني ملتزم بالعودة، وإني أريد أن أكون وسط أهلي وفي بلدي، وأن أدرّس في الكلية التي تعلمت فيها، وإن وجودي في مصر له معني أكبر بكثير لي من أن أصبح أستاذ قانون مشهور في جامعة فرنسية. وشرحت لها أني أنوي فتح مكتب للمحاماة يتخصص في قضايا حقوق الإنسان وتقديم المساعدة القانونية للضحايا. طال الحديث وانتقلنا للعشاء. وقالت لي إنها ما زالت لا تدري ماذا ستفعل بعد أن تنهي الدكتوراه، وإنه من الممكن أن تدرس بجامعة مونتريال ولكنها لا تريد التدريس كمهنة، ولا ترى نفسها إلا في عمل يتضمن التعامل المباشر مع الناس والعمل في فريق، وإنها سئمت من أن تعمل وحدها في البحث والكتابة وتريد أن تقوم بشيء ملموس. اقترحت عليها العمل في البرنامج الجديد الذي أنشأته الأمم المتحدة لحماية البيئة، وهو مجال تخصصها، فقالت إن مقره نيروبي بكينيا وهي لا تريد الحياة هناك. فابتسمت ولم أعلق وفهمت صمتي، فضحكت وغيرنا الموضوع. تحدثنا عن آخر أفلام فيلليني، وعن المخرج الياباني كيروساوا، وتأخر الوقت، وجاء الجرسون بالحساب فأبت أن تتركني أدفع، وقالت إن قيامها بالدفع أمر يتعلق بحقوق المرأة، وشرحت لي كيف أن هذه هي الموضة الجديدة في كندا، وأن النساء الآن يرفضن قيام الرجال بالدفع نيابة عنهن، فابتسمت وقلت ربما يجب أن أذهب للحياة في كندا إذا كان الأمر هكذا، فسرحت وقالت يا ريت، ولم لا؟ فنظرت إليها وابتسمت، وقلت «انظر المرجع السابق». وقالت اعتبر العشاء هديتي بمناسبة سفرك، وخرجنا من المطعم وسرنا طويلًا في مساء خريف باريس اللطيف، حتى وصلنا لباب منزلي. وتلعثمنا مرة أخرى، وسألتها إن كانت تحب أن تصعد لتناول مشروب أخير، فأومأت وصعدنا.

كانت تلك هي المرة الأولى التي ننفرد فيها بعضنا ببعض منذ سهرت في شقتها وقالت لي في اليوم التالي إنها أرادت أن أقضي الليلة معها. كانت مرتبكة، وكنت غير فاهم بالضبط لما هي بصدده. دخلت إلى الحمام لتغسل وجهها وعادت وجلست على الأريكة ويديها معقودتين على ركبتيها. ذهبت لإعداد الشاي وتركتها جالسة، الساعة تشارف على الثانية صباحًا، وأنا مرهق ولكن حواسي كلها مستيقظة. كانت هنا، في بيتي، معي. تعلم أني أحبها وأني أريدها، أتت بمحض إرادتها. وهي التي قالت إنها أرادتني، وإني أقرب إنسان إلى قلبها. في الروايات، كثيرًا ما نرى المرأة تقول شيئًا ثم تفعل عكسه، وهي نفسها قد اعترفت لي خلال مناقشاتنا السابقة بأن ذلك من عادات المرأة وأن على الرجل العاقل أن «يقرأ» المرأة ولا يركز فقط على ما

تقوله، لأنها لا تستطيع أن تقول كل ما تريده، وأحيانا لا تعرف أن كانت تريده. سألتها، وقتها، ألا يصبح ذلك اعتداء على إرادة المرأة أن ـ مثلًا ـ يقبلها رجل دون أن يستأذنها. فضحكت وقالت باستهزاء: يستأذنها؟ أكيد أننا لن نخرج سويًا، إياك أن تستأذن امرأة في هذا الأمر أبدًا، ماذا تنتظر منها أن تقول؟ نعم، من فضلك قبلني؟ قلت، ولكن وما الحال إذا كانت المرأة لا تريد؟ قالت وهل أنت أعمى؟ ألا يمكنك أن ترى ما إذا كانت تريد أم لا؟ إذًا، هل أضيع وقتي في هذه المناقشات حول أني أحبها وأنها تحبني وتكابر؟ أليس من الأفضل أن أذهب الآن وأقبلها؟ أعددت الشاي، وقلت لنفسي وأنا أحمله عائدًا إلى الأريكة التي تجلس عليها إني لن أقبلها دون أن تأذن لي هي بوضوح، ولتقل إني أعمى مثلما شاءت.

عندما عدت للأريكة وجدتها مستغرقة في النوم. وضعت الشاي على المنضدة ووقفت أرقبها لحظات. تأسرني. هذه هي الكلمة. وكنت أظن أن قلبي لن يخفق ثانية هكذا. وأني لن ينقطع نفسي وأنا أنظر لامرأة مرة أخرى. ولكن ها هي، تأسرني وتأخذ أنفاسي بعيدًا عنّي. وأشعر أني إن لمستها ستحترق أصابعي، وإن احتضنتها سأذوب. وقفت أنظر إليها، وأصدرت بعض الضوضاء فاستيقظت، واعتذرت، وقالت إنها بدأت نهارها منذ الخامسة صباحًا ولم تنم جيدًا في الطائرة. نظرت لساعتها ووجدتها الثانية، فقالت إنها يجب أن تعود إلى فندقها لتنال قسطًا من الراحة قبل أن تلحق بطائرتها التي تقلع في الحادية عشر ظهر الغد، سألتها أين الفندق؟ فقالت إنه قرب المطار. فقلت لا يمكن أن تعود إلى هناك في هذا الوقت، وعرضت عليها المبيت في منزلي. فترددت، وقالت لا أريد أن أثقل عليك. فقلت لها ألا تكون سخيفة وأنه بالتأكيد يمكنها النوم في سلام هنا حتى التاسعة صباحًا وبعدها يمكن أن أوصلها إلى المطار. ابتسمت وشكرتني وقالت إنها ستنام على الأريكة. عرضت عليها أن تنام في فراشي وأنام أنا على الأريكة فرفضت بإصرار، وهكذا. توجهت أنا لفراشي في غرفة نومي، وتركت لها الصالة لتنام فيها.

بعد حوالي نصف الساعة، وأنا يقظ في الفراش، كنت ما زلت أسمع صوت تقلبها على الأريكة في الخارج. قمت، وناديت: «ماري آن؟ لماذا ما زلت مستيقظة؟». قالت: «أريكتك ليست مريحة في النوم إطلاقًا يا سيد غالب». وبعد لحظة رأيتها أمامي، بملابس النوم، وقالت:

ـ معذرة، سوف أذهب إلى الفندق، فلا أستطيع النوم على هذه الأريكة.

ـ قلت لكِ أن تنامي هنا، سأنام أنا على الأريكة.

ـ مستحيل، لن آتي إلى منزلك هكذا بدون دعوة وأطردك من فراشك، سأذهب.

ـ لا يمكن أن تذهبي الآن، هل أنت مجنونة؟ الساعة الثانية والنصف، كيف تذهبين وحدك لفندق ناء بجوار المطار، ومتى تصلين، وأمامك غدًا رحلة عبر الأطلنطي.

ـ ليس هناك حل آخر.

ـ بل هناك حل آخر، تعالي نامي هنا وسأنام في الخارج.

ـ مستحيل أن أدعك تغادر فراشك.

ـ بسيطة، تعالي نامي هنا في الفراش، كل منا يأخذ نصفًا.

ـ ....

ـ أنا جاد، لا تخافي.

ـ أنا لست خائفة، أنا فقط لا أريد أن أضايقك.

ـ لن أتضايق.

ـ هل أنت متأكد؟

ـ نعم.

وهكذا جاءت ماري آن ونامت في فراشي. استلقت إلى جواري، ونظرت إليَّ وقالت: «أنا آسفة، ولكني حقًا متعبة، هل أنت متأكد أنك ستكون على ما يرام؟»، قلت، وأنا أغالب قلبي الذي يهفو لاحتضانها، «أنا على أشد ما يكون المرء على ما يرام»، ولم أستطع منع يدي من أن تلمس جبهتها وبداية شعرها، وأضفت: «ليتك تكوني هنا دائمًا»، وشعرت بسخف ما أقوله فصمت وسحبت يدي من على وجنتها. أغمضت عينيها، وبعد دقيقتين كانت قد استغرقت في نوم عميق. استلقيت على ظهري وأنا حريص أن أظل بعيدًا عنها قدر الإمكان، واستدرت لأنام على جانبي وأظل أنظر إليها، وظللت هكذا حتى غلبني النوم.

(أذكر أني حين قصصت هذه القصة على صديقة لي بعد ذلك بسنوات، لم تصدقني في بداية الأمر، ثم سألتني إن كنت طبيعيًا، ولما أجبت بأني أعتقد أني طبيعي، قالت إنه لا يوجد رجل طبيعي يمكنه أن ينام بجوار امرأة في فراش واحد ولا يلمسها، فما بالك بما إذا كان يحبها؟ وحاولت أن أشرح لها إن الدنيا ليست بالعافية، وإني أريدها بمعنى أني أريد أن تعطيني نفسها بإرادتها وأن ترغب في ذلك، لا أن آخذها بالقوة، فمطت شفتيها ولم تعلق. هل ما زالت تظن أني غير طبيعي؟).

في الصباح، كانت ماري آن منتعشة ومبتسمة. وجدتها قد استيقظت قبلي واستحمت وأخذت تسرح شعرها الكستنائي الطويل وتشرب القهوة حين خرجت من غرفتي. تبادلنا التحية وقالت إن هناك قهوة لي في البراد، وكرواسان وجبنة وبعض العنب في الطبق بجواره. أعجبتني هذه الحالة الزواجية، هذه الحميمية البسيطة، هذا الاعتياد. بعد قليل كنا في الطريق إلى المطار. في السيارة، قالت فجأة إنها تريد أن تشكرني. أومأت. صمتت. ثم أضافت إن الليلة الفائتة جعلتها تشعر بأمان معي لم تشعره من قبل، وأن ذلك يعني الكثير لها. نظرت إليها وأنا غير فاهم لما ترمي إليه بالضبط، ثم أعدت التركيز على الطريق وقدت السيارة في صمت. وعندما وصلت إلى فندقها بجوار المطار، أوقفت السيارة وقلت إني سأتركها هناك وأعود إلى باريس وسألتها عما إذا كانت تريد شيئًا. تلعثمت، وأبطأت قليلًا وهي تخرج حقيبة يدها الكبيرة من السيارة، وقالت: «لماذا لا تضع السيارة في المرآب وتأتي معي للفندق؟ سآخذ حقيبتي ونذهب للمطار؟ لن تستغرق الإجراءات سوى عشر دقائق وبعدها يمكننا الذهاب لتناول قهوة أخرى في صالة المطار حتى موعد الطائرة». كنت أريد أن أجعل هذا الوداع قصيرًا، بل لم أكن أريد هذا الوداع أصلًا، وكنت أتمزق من داخلي رغم الصلابة التي تبدو عليّ. لم أكن أريد أن أفارقها، فقلت حسنًا. قدت السيارة للمرآب، وعدت مسرعًا لها.

لم تأخذ الإجراءات أكثر من عشر دقائق فعلًا. نظرت إليّ وقالت: «أرأيت؟ هيا بنا نتناول القهوة»، قالتها ووضعت ذراعها في ذراعي دون انتظار وسارت بجواري تتحدث عن المطار وتعلق على المسافرين. وأنا أذوب في داخلي من ألم يعتصرني. وأعلم أن هذه هي النهاية وأني أفقدها وأني لن أراها مرة أخرى، وأشعر بالأسى أني فقدت المرأتين اللتين أحببتهما بسبب أو بدون سبب. فجأة توقفت ونظرت إليها وقلت: «ماري آن، يجب أن أذهب الآن، لا أستطيع البقاء أكثر». صمتت، وكأنها لم تكن تتوقع رحيلي، وكأننا لسنا في مطار وكأني لست هنا كي أودعها وكأنها ليست مسافرة إلى كندا وأنا للقاهرة بعد عدة شهور.

قالت: «ماذا تعني؟ هذا هو إذًا؟ تلك هي النهاية؟». أومأتُ، وقلتُ «أخشى أن الأمر هو ذلك بعينه». ألقت بنفسها بين ذراعي، ووقفت متفاجئًا ومتصلبًا. ها هي، المرأة التي طالما حلمت بأن أحتضنها، بين ذراعي، ولكني بوغت ولم أحتضنها، ووقفتُ مرتبكًا، فتراجعَت، وشبَّت قليلًا حتى صارت في مستوى رأسي، وقبلتني على شفتي. جاءت القبلة سريعة، وجافة، ثم ركضت باتجاه بوابة السفر، ورحلت أنا باتجاه المرآب.

* * *

أين هؤلاء الحمقى؟ هل انفجروا هم أيضًا؟ الساعة الآن السادسة. نفد الماء منذ أربع ساعات، وحل الظلام لليلة ثانية، وما زالوا لم يجدوني؟ مبنى القنصلية ليس بهذه الضخامة! الموضوع كله دورين من الحجر والأسمنت. هذا ليس مفاعل تشرنوبيل، فأين هم بحق المسيح؟ عطش يجرح حلقي، وسيطرتي على جسدي تتهاوى. إن كانوا يظنون أنهم سيقتلونني هكذا فهم واهمون. لا داليا ولا الأمن ولا الجماعات الأصولية ولا أحد. أنا لن أموت هنا. سأنتظر. ولن يقهر العطش ولا الجوع ولا الإعياء روحي. ما زال أمامي بقية حياتي لأحياها، وما زال لديَّ أشياء لأراها وأشياء أقولها وحب لم يأخذه أحد. سوف أخرج من هنا عليكم اللعنة، سأخرج.

* * *

حين وقفت في المحكمة أمام المنصة، ووقفت داليا الشناوي بجواري وكلانا نتحدث للقاضي عن قضية أشرف فهمي، شعرت بالدوار. كأني رأيت هذا المشهد من قبل. كأني أكمل دائرة وأنهي مشوارًا بدأته منذ عمر طويل. داليا وأشرف وأنا، وكلمات كثيرة نقولها بهدف شرح وجهة نظرنا، أو تبرير موقفنا، أو إقناع الطرف الآخر بأن يتغير، أو بأن يتفهم ظروفنا ويدعنا في حالنا. والآن، مثلما في السابق، أحاول الدفاع عن حياتي ضد داليا التي تقوم بتدميرها. لكني الآن، عكس الحال في السابق، لا أستطيع الحديث معها مباشرة، بل أخاطبها من خلال القاضي، ذلك الرجل المشهور بتعاطفه مع الجماعات الأصولية والذي «تصادف» تكليفه بقضية الاحتساب. قال لي أشرف قبل بدء المحاكمة إنه مذهول مما وصلت إليه داليا، وإنه لم يكن يتصور في يوم من الأيام أن يصل بها الحال إلى رفع قضية احتساب تطالب فيها بتكفيره، هي، بنت الأصول والعقل والمجتمع الراقي الليبرالي الذي حكم مصر مجتمعًا ودولة لعقود. وقلت له إني أخالفه الرأي، وإني لست متفاجئًا، وإن هذا هو التطور الطبيعي للأمور.

ـ كيف يا سيدي؟

ـ داليا اختارت من زمن طريق السيطرة على الذات، وجعلت من هذه السيطرة مفتاح لحياتها كلها. لو اخترنا لداليا شعارًا انتخابيًا لكان أفضل شعار هو «داليا ضد الفوضى». السيطرة تعني ضرورة وجود قواعد تحكم سلوك البشر، والسؤال هو من أين تأتي هذه القواعد.

ـ ولكن أي جماعة بشرية، أي بشر، يحكم سلوكه قواعد، فما الذي يجعل من ذلك مشكلة؟ ما علاقة ذلك بالأصولية التي تبنتها داليا فجأة؟

ـ ليس فجأة، داليا طول عمرها أصولية، سواء كان أصوليتها مصدرها التقاليد ـ أيام كنا في الجامعة ـ أو الدين الآن.

ـ وكيف تنتقل من هذا الموقف الفلسفي لرفع قضية عليَّ لاعتباري كافرًا؟

ـ فاكر المقال اللي كتبته ونشرته لي بعنوان «النوم مع الإرهاب»؟

ـ لا، مش فاكره.

ـ طيب، بما إنك لم تقرأه فسأسمعه لك. أديني باسليك لغاية ما دور القضية ييجى. في أي حركة سياسية عقائدية، يبدأ الأمر بسيطرة مجموعة من المعتدلين وبعد كده بيطلع جيل أكثر تطرفًا بكثير، يدعو لاستخدام العنف بحجة فشل الأساليب السياسة في تحقيق أهداف الحركة، ويستخدم ذلك أيضًا لتقوية نفوذه داخل الحركة ككل. وغالبًا ما ترى القيادات التقليدية في نشأة هذا التيار فرصة لتخويف الحكومة من عواقب اضطهادهم هم المعتدلين، مع إحساس زائف بالثقة أنه لا يمكنهم أن يفقدوا سيطرتهم على الحركة. لكن الحقيقة أنهم يفقدون هذه السيطرة، وأن من يحمل السلاح وينفذ الأوامر في هدوء وطاعة عمياء في البداية لا يلبث أن يشعر بقوته، ويفرض نفوذه ورؤيته شيئًا فشيئًا حتى تنقلب الآية وتصبح القيادات المعتدلة مجرد واجهة لتطرف وإرهاب العنف الذي تمارسه القيادات الميدانية.

ـ وإيه علاقة ده بداليا؟ وبالقضية دي اللي هاتوديني في داهية؟

ـ ده جزء من نوم المعتدلين ـ اللي زي داليا ـ مع الإرهاب. داليا بتقوم بده كجزء من التزامها بنشاط الحركة السياسي، غالبًا بدفع من

العناصر الأكثر تطرفًا. لكنها في النهاية بتخدم تيار العنف والإرهاب داخل الحركة، حتى إذا كانت فاكرة إن اللي بتعمله هو مجرد محاولة إجبارك وبقية المثقفين على احترام العقيدة الإسلامية.

كيف تعيش داليا مع هذه الأفعال؟ عندما تخلوا بنفسها، ماذا تقول لنفسها؟ كيف تبرر مساهمتها في ذلك القتل؟ أم إنها أصبحت تؤمن ـ منذ أيام باريس ـ أن بعض القتل ضرورة؟

* * *

لن يفيد الغضب ولا اليأس. لن يخرجني من هذا القبر المظلم والخانق والصامت وغير المفهوم. لن يوقف معدتي والصداع وشقوق العطش الجارحة في حلقي. لن يوقف الدوار الذي يصيبني. لن يأتي بعمال الإنقاذ. دعك من الغضب ومن اليأس. سيأتي الضوء بعد ساعات، لن أموت الآن. حتى بدون الماء والطعام أستطيع أن أظل يومين آخرين. أظن ذلك. سأحاول ذلك على كل حال. فهذا الموت لا يعجبني، ولن أموت هنا هكذا. يجب أن أنحي الغضب جانبًا وأبحث عن حل ما. في الصباح، عندما يأتي الضوء. الآن يجب أن أدخر هذه القوة وأنام قليلًا.

* * *

لم يكن هناك بد من التمويل الأجنبي، ومن تحمل عجرفة السفير الأمريكي والسفراء الأوربيين. وعلى عكس ما يردده المنتقدون، فإني لا أحب ذلك ولا أستسيغه، وبالقطع لا أتربح من ورائه مثلما ادعى بعض الحقراء. ولكن ماذا ينتظر هؤلاء المنتقدون؟ من أين آتى بعشرة ملايين جنيه سنويًا لإدارة مكتب ضخم كهذا يقدم المساعدة القانونية ويدافع عن الحقوق السياسية للمواطنين على مدى ما يقرب من الثلاثين عامًا؟ هل تبرع أثرياء مصر للمكتب ورفضت؟ هل قام أحد بوقف ريع أملاكه بعد وفاته لهذا الغرض وامتنعت؟ بل هل قام أحد ممن استفادوا بخدمات المكتب بالتبرع له بعد خروجهم من محنتهم؟ لم يحدث أي من ذلك، فماذا أفعل؟

ذات يوم اقترح أحد تلامذتي الذين انضموا حديثًا للمكتب أن نقوم بحملة لجمع التبرعات لإحلال التمويل الشعبي محل التمويل الأجنبي. وقال إن حملة «جنيه سنويًا من كل مواطن» يمكن أن تفي بنفقات تشغيل المكتب. قال التلميذ النابغ إن الجوانب القانونية الخاصة بحملة التبرعات يمكن معالجتها، وأعد مشروعًا متكاملًا لإدارة الحملة. قلت له أن يهدأ، أو يهمد، وأن الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية

والثقافية مجتمعة ستجعل من المستحيل نجاح الحملة. وتناقشنا مطولًا، ولم أرد أن أكون قمعيًا ولا مثبطًا للهمم، فاتفقت معه على أن يبدأ هذه الحملة في حي واحد من أحياء القاهرة من اختياره، كتجربة، ونحكم بناء عليها. ووقع اختيارنا على قسم قصر النيل باعتباره يجمع بين أحياء تمثل طبقات المجتمع وفئاته كلها، من بولاق أبو العلا إلى الزمالك. مائة وأربعة وثلاثون جنيهًا. هذه هي حصيلة أسبوع كامل من حملة جمع التبرعات، تكلفت سبعمائة جنيه مكافآت للشباب المشارك، غير نفقات الانتقال والملصقات والدعاية. مائة وأربعة وثلاثون جنيهًا، منها خمسين جنيهًا دفعها مشارك واحد كنت أدعو الله ألا يكون الشاب صاحب فكرة الحملة.

الإجابة إذًا هي لا، لم يتبرع أحد الأثرياء بشيء، ولم يقم الشعب المهضومة حقوقه بالتبرع للمكتب من أجل الدفاع عن هذه الحقوق. من أين إذًا كنت آتي بالتمويل؟ لقد بدأت هذا المكتب ضد التيار، وضد مصلحتي الشخصية، ودخلت في مواجهات مع أجهزة الأمن بسببه، ومع الدولة نفسها أحيانًا ممثلة في وزراء ورؤساء هيئات، بل وفي مواجهة مع الرئيس السادات نفسه، في بداية عمل المكتب عام ١٩٧٧ في أعقاب مظاهرات الخبز، وتعرضت بسبب هذا المكتب لمشاكل جمة مع إدارة الجامعة، تأخرت ترقيتي في أعقابها، وقدمت وقتي وعلمي وخبرتي لهذا المكتب بدلًا من أن يكون لي مكتبًا للقضايا المدنية أو التجارية أو قضايا التحكيم الدولي والتي كنت من أكثر الناس تأهلًا لمعالجتها بحكم تعليمي وكانت تدر عليّ مالًا أكثر من أن أستطيع إنفاقه في حياة واحدة. صحيح أني حققت شهرة ومركزًا دوليًا مرموقًا بسب المكتب الذي أنشأته ونوعية القضايا التي تخصصت فيها. لا أنكر ذلك. ولكن هذا أتى على حساب حياتي الشخصية، والتي ما كانت لتتأثر سلبًا هكذا لو سلكت الطريق التجاري، مع تحقيقي أيضًا لمركز ممتاز. بنيت هذا المكتب بأيامي وحياتي كلها، هذا هو إسهامي الرئيسي في إعادة بناء هذا الوطن، أو في وقف انهياره، أو في إبطاء انهياره، هو وبعض الكتب التي ربما لم يقرأها غير تلاميذي. لم يكن هناك من سبيل آخر لإنشاء المكتب وتشغيله غير التمويل الأجنبي، فلا يحاسبني أحد على ذلك، وخاصة هؤلاء الذين يقتاتون على موائد الأجنبي صباح مساء لمصالحهم الشخصية وليس لمصلحة عامة.

كم كنت أود، كم كنت أحلم أن يكون التمويل باكتتاب عام، أو بحملة تبرعات مستمرة، من البسطاء وعامة الشعب، من وقف أو هبة من أحد رأى فائدة العمل الذي نقوم به لقريب أو حبيب وأوصى للمكتب بجزء من ميراثه، أو منحة من نادي القضاة تقديرًا للدور الذي يقوم به

المكتب، أو هبة من الدولة تعبيرًا منها عن فهمها لأهمية دور المجتمع المدني في حماية حقوق الإنسان. لا شيء من هذا تم. صمت مطبق من الجميع. كنت أريد، إن حدث أي من ذلك، أن أنشئ مجلس إدارة للمكتب يضم في صفوفه أناس ممن تبرعوا وممن استفادوا من عمل المكتب، وتكون هناك تقارير أداء سنوية، ومحاسبة لإدارة المكتب من جمهوره وداعميه. ولكن بدلًا من كل ذلك، وجدت نفسي مضطرًا لأن أقدم تقارير الأداء للصناديق الأمريكية والأوربية التي تمول عمل المكتب، وفواتير وإيصالات دفع وسداد، والسفير الأمريكي والسفراء الأوربيين يتصرفون باعتبارهم ممثلي «الجهة المانحة»، يلتزمون حدود اللياقة ولكنها لا تغير من طبيعة العلاقة بين من يدفع ومن يتلقى. ويعلم الله كم احتملت من السخافات، وكم ناضلت وناورت من أجل الحفاظ على استقلال العمل وعلى أجندته الوطنية، بعيدًا عن أجندات هذه الجهات الخاصة.

ولكني كنت أعلم أني أناضل وحدي وعلي جبهتين: الدولة من ناحية، والجهات المانحة من ناحية أخرى. وفي خضم النضال والمناورة تختلط الأمور، ويصبح من غير الواضح ما إذا كانت خطوتك تخدمك أنت أم تخدم غيرك. حتى صرت أعتقد أن الخطوة نفسها ـ أي خطوة ـ ليست مهمة. وأن الأهم هو قدرة الطرف الآخر على استخدامها لمصلحته. وهنا لا بد من الإقرار بأن الجهات الأجنبية المانحة كانت دائمًا الأقدر، يليها أجهزة الأمن، وأني كنت في نهاية الأمر، أضعف الحلقات وأكثرها تعرضا للاستخدام من قبلهما معًا.

لماذا هذا الحماس من جانب الأمريكيين والأوربيين للقضايا المتعلقة بحقوق الأقباط؟ حماس وجدته أنا شخصيًا مبالغًا فيه. أحيانًا يبدو الأمر وكأنهم يودون أن يكون هناك تمييز ديني أكثر مما هو قائم فعلًا، ويسرعون في أغلب الأحيان لافتراض أن العامل الديني يفسر حالة التمييز التي نتحدث عنها، ويصرّ بعضهم على أن هناك حالة «اضطهاد» للأقباط، وعندما أحاول إفهامهم أن ما يجري هو نتيجة غياب ضمانات قانونية ودستورية لتطبيق مبدأ المساواة، وفي أسوأ الأحوال ممارسات تمييزية على أساس الدين ولكن ليس بأي حال من الأحوال حالة من الاضطهاد الديني ينظرون لي بشك. ويقول بعضهم عبارات تبدي التفهم «لحساسية موقفي». وكأني مضطر لقول هذا بدافع الملاءمة السياسية. ويشيرون لضعف أو غياب تمثيل الأقباط في الوظائف العليا للدولة وأجهزتها الحساسة، وعدم المساواة في الترقيات في الجامعات وغير ذلك مما أحفظه عن ظهر قلب. وعبثًا أحاول إفهامهم أن هذا هو نوع من التمييز على أساس الدين ولكنه

ليس اضطهادًا دينيًا، وألا أحد يمنع المسيحيين مثلًا من ممارسة شعائرهم الدينية أو يجبرهم على ترك ديانتهم، فيشيرون لمشاكل بناء الكنائس وللضغط الاجتماعي على البعض لتغيير الدين خاصة في حالات الزواج المختلط.

لماذا يزايدون عليّ؟ كيف يمكن أن يزايدوا عليّ أنا، بل وعلي الكنيسة؟ هل هذا بدافع الحرص على المساواة فعلًا؟ وهل يفترض أن أكون من السذاجة كي أصدق هذا؟ وإن كان الأمر هكذا، فلماذا تختفي برامج المساعدات وينضب التمويل حين يتعلق الأمر بالدفاع عن أشكال أخرى من المساواة؟ ولماذا لا يقرنون هذا الحماس الفياض للمساواة وهذا الدعم السخي بضغط حقيقي على الحكومة كي تتخذ إجراءات قانونية ودستورية تضمن المساواة وتنزع فتيل الأزمة؟ حين أثير هذا السؤال مع السفير الأمريكي أو السفراء الأوربيين، يستبعدون الفكرة تمامًا ويتحججون بأسباب واهية. هل من الصعب دفع الحكومة لتشكيل لجنة قومية مستقلة ومحترمة للنظر في كافة جوانب المواطنة ووضع توصيات لخطة خمسية لدعم المواطنة؟ سألت العميد أحمد كمال هذا السؤال في إحدى جلساتنا العديدة فابتسم وقال «خليك واقعي يا دكتور، الكلام ده ما ينفعش عندنا».

ثم تقع فتاة في هوى شاب، أحدهما مسيحي والآخر مسلم، أو يغير رجل مسيحي ديانته ليحصل على الطلاق من زوجته المسيحية ويحتفظ بحضانة الأطفال، ثم تغير المرأة ديانتها كي تحول دون حصوله على حضانة الأطفال. وبعد نهاية النزاع، أو الزواج، يعود أحدهما أو كلاهما لدينه الذي لم يتركه في الواقع قط، وربما يرغبان في الزواج من جديد، أو يموت أحد والديهم ويدخلان في قضية ميراث مع الإخوة، ويرغب أحدهما أو كلاهما في تغيير الدين مرة أخرى في البطاقة الشخصية، ويقول الشخص إن مصلحة الأحوال المدنية رفضت بإيعاز من الأمن، ويرفض ضابط أمن الدولة تسهيل الأمر وينظر لي بريبة وهو ينطق اسمي المسيحي بالكامل، وأستنجد بالعميد أحمد كمال دون جدوى، ويبدي السفير الأمريكي حماسته الزائدة للدفاع عن «هذه الحالة الصارخة من الاضطهاد»، ثم يدخل بعض أعضاء الكونجرس على الخط ويصدرون بيانًا، فتعند الحكومة أكثر، وتتدخل الكنيسة، والأزهر، والرجل الذي يبيع الفول على ناصية الشارع الذي يقطن فيه الشاب أو الفتاة، ويتطوع رجل عيّن نفسه خطيبًا لمسجد أهلي في الحي بأن يدلي بدلوه في الموضوع، ويصرخ أقباط متدينون في المجالس الخاصة محذرين من كارثة آتية، ويقول مسلمون ملتحون في ندوة بنادي الصيد إن هذه بلد إسلامية «واللي مش عاجبه يسيبها

ويمشي»، ثم يقوم موتور بإلقاء طوبتين على زجاج كنيسة في عتمة الليل ويهرب، إن حالفنا الحظ، وإن لم يحالفنا، يشتبك عدد من المسلمين والمسيحيين بالأيدي وقد تُحرق محال تجارية أو تُقتل مواشٍ أو بشر، وتعرب الكنيسة عن غضبها، ويزداد احتقان الأقباط وربما تقوم مظاهرة صغيرة أمام الكنيسة التي تعرضت للاعتداء أو في القرية أو الحي محل الاشتباكات، ويصدر أعضاء الكونجرس بيانًا آخر يقول إن «التدهور الجاري في مصر» يؤكد ما قالوه من قبل من وجود اضطهاد، فتعند الحكومة أكثر وتتقوقع على نفسها وترفض اتخاذ أي إجراء تحت الضغط، وينهمر علينا سيل مقالات وأغانٍ عن الوحدة الوطنية والنسيج الواحد وثورة ١٩١٩، ثم تعلن الشرطة القبض على مختل عقليًا هاجم الكنيسة، وفجأة يسافر الفتى أو الفتاة أو كلاهما إلى الخارج في ظروف غامضة، دون تسوية للنقطة القانونية التي كانت مصدر المشكلة، ويقول العميد أحمد كمال إن المشكلة تم احتواؤها ولا داعي لإثارتها من جديد حول مسائل قانونية لن تحل، ويقول لك سفير أوربي ما سبق وقاله من أن المشكلة تكمن في حالة الاضطهاد السائدة وأن على المجتمع المدني أن يواجه هذه الحالة في أساسها. فأين تقف أنت وسط كل هذا؟ وكيف تضمن، كمحام يقود مكتبًا للدفاع عن حقوق الإنسان، ألا يتم استغلال ما تقوم به لأغراض تتنافى كلية وما تهدف لتحقيقه؟

* * *

جاء الضوء. لكني لا أستطيع القيام من مكاني. الضوء يجرح مقلتي حين أفتح عيني. أعرف أني لن أموت هنا، فلماذا لا تذهب هذه الأنقاض عني؟ وهن يهبط على حواسي وعلى جسمي وعلى عيني. أغمضهما وأفتحهما. ضوء جارح كالعطش في حلقي. قلت سأبحث عن حل حين يجيء الضوء، وها هو جاء. لكن الضوء جارح، وأنا لا أستطيع الوقوف.

* * *

لماذا عدت إلى مصر؟ سيسألني كل من قابلته بعد عودتي. وفي السؤال ظل لوم واستغراب، ثم عدم اقتناع بما أسوقه من أسباب، بل وتشكك أحيانًا في صدق ما أقول، واستمرار للسؤال وكأنهم يقولون لى: دعك من هذا الهراء وقل لنا السبب الحقيقي. ويسألني البعض صراحة: ألم يكن باستطاعتك البحث عن وظيفة والبقاء في باريس؟ وحين أقول إن الجامعة عرضت عليَّ البقاء والتدريس فيها يكون السؤال: السربون نفسها؟ وأقول نعم، فتبدأ نظرة الشك أو الشفقة:

«يا حرام. ده باين عليه عبيط». ومن كثرة السؤال بدأت أشك في إجاباتي أنا نفسي. وراجعت نفسي عشرات بل مئات المرات. لماذا عدت إلى مصر وقد كان باستطاعتك البقاء في فرنسا؟ ولكن لماذا أظل في فرنسا؟ ألأن بها شوارع مرصوفة وأشياء مرتبة وهواء نقي؟ كلا، لأن بها حياة منظمة، مفهومة، ومجال لك كي تنمو وتصبح أستاذًا أفضل، إنسانًا أفضل.

حين قلت لأحد زملائي بالجامعة إني لا أفهم سؤاله عن سبب عودتي لمصر، وكأني يفترض بي ألا أعود، نظر لي مطولًا وقال: إن لم تكن تفهم سبب سؤالي فعلًا، فاذهب لميدان الجيزة وقف هناك لمدة ساعة. وإن لم تفهم بعد ذلك، فامش من الميدان حتى نفق الهرم. وإن وصلت سالمًا، فاهبط النفق حتى المنتصف، ستجد على يسارك بالوعة مفتوحة في قاع النفق بالضبط بجوار العمود الذي يحمل جسم النفق من المنتصف، هذه البالوعة المفتوحة في وسط الطريق، والتي تفاجئ سيل السيارات الذي لا ينقطع، موجودة هنا منذ ثلاثين عامًا على الأقل، ثلاثين عامًا. الأمر جلي، ولا يحتاج لدكتوراه كي تفهمه، والناس ليست جاهلة بمصلحتها، ورغم الغضب والصراخ والاحتجاج على «محاولات تشويه سمعة مصر»، فإن الناس أجمعين تعلم أين انتهى بنا الحال. لذا سينتهز معظمهم أي فرصة من أجل الانتقال للحياة في الخارج، بما في ذلك هؤلاء الذين ينفقون معظم وقتهم في شرح مدى جودة الأحوال. فقل لي، لماذا عدت إذًا؟ حقيقة؟

عدت لأني من هنا. لأني لا أهتم بامتحان الثانوية العامة إلا هنا، ولا تهمني الأخبار المحلية إلا هنا. ولا يمس قلبي تغير معالم شارع، أو مبنى، أو بناء جسر أو حفر نفق، إلا هنا. ولا أحلم إلا هنا. عدت، لأني لا أستطيع في أي بلد آخر أن أرى الشارع الذي ذهبت فيه للمدرسة، أو المكان الذي قابلت فيه صديق العمر لأول مرة، أو أن أتذكر الفيلم العربي الذي شاهدته وأنا طفل، أو الأغنية التي استمعت إليها وأنا جالس على المقعد الخلفي لسيارتنا بين أبي وأمي وأنا في السادسة. عدت لأن هنا هو المكان الوحيد الذي سيفتقدني إن ذهبت، لأن هنا هو المكان الذي أشعر فيه أن لوجودي معنى، أني يجب عليَّ أن أفعل شيئًا فيه وله كي يصير أفضل ولو قليلًا، أن لي فيه جمهور. عدت، لأن هنا هو المكان الوحيد الذي لا يفترض أن أبرر فيه سبب وجودي. عدت لأني أشعر أن هذا المكان لي، أن مصر ملك شخصي لي.

ولكني منذ عدت أجد نفسي مجبرًا على تبرير وجودي. ومنذ عدت وأنا

أدرك أن أحدًا لن يفتقدني إن رحلت. ومنذ عدت وأنا أكتشف يومًا بعد يوم أن وجودي هنا كعدمه، وأني لا أستطيع أن أجعل هذا المكان أفضل، ولو قليلًا. لا أستطيع أن أفعل شيئًا لامتحان الثانوية العامة، ولا للبرج القبيح الغريب المهجور والواقف كشاهد على العبث أمام نادي الجزيرة، ولا حتى لاختفاء الرصيف واستحالة المشي في الشارع أمام بيتي. منذ عودتي وأنا لا أجد أي دليل على أن هذا المكان لي، أو أن لي فيه جمهور، بل على العكس، الجمهور ضدي. أما الشارع، والمدرسة، والفيلم والأغنية، فقد ذهبوا، ولم يبق إلا صورتهم في مخيلتي أحملها معي كهم شخصي صغير، ماض لا يهم أحدًا ولا معنى له في نهاية الأمر. ماذا يهم إن كنت قد ذهبت للسعيدية الثانوية ما دام لم يبق منها سوى الاسم وبعض ملامح المبنى القديم، وتغير كل شيء آخر فيها إلى حد أني لا يمكنني التعرف عليها لو رأيتها دون اللافتة التي تذكر اسمها؟ وماذا يهم فيلم وأغنية انقطعت صلتهما بالأفلام والأغاني اليوم؟ انقطعت الصلة، انقطع الحبل السري الذي يربط الأشياء بماضيها، وانفرطت. وتقلصت الأرحام التي أنجبت الأشياء وصارت قطعة مكرمشة من الأحشاء العقيمة. لا دور لها إلا في ذاكرة من يريد أن يتذكر. هنا كان هذا وهناك كان ذاك، ثم ماذا؟ ومن يهمه هذا الكلام؟ تلك هي الحقيقة التي عليك أن تواجهها يا نشأت: لم يعد لك مكان هنا. وربما لم يكن لك مكان هنا منذ البداية. أنا، وغيري من أبناء هذا الجيل، آخر السلسلة، انقطعت بعدنا، وظهرت سلسلة جديدة يعلم الله كم تطول حلقاتها. أما نحن فقد صرنا، مثل بيوت الحلمية القديمة الفخمة المهدمة، آثار على ما مضى، شهود على ما انقضى، لا أكثر.

هل كان هذا خطأ ارتكبته؟ أم هو نتيجة تغيير مجرى التاريخ في هذا البلد؟ كأن الجيل الذي كان في واجهة المجتمع لم يستطع أن يستدير مع انحناءة مباغتة في الطريق، وأكمل المسير للأمام حتى وقع من على حافة الجبل أو ارتطم بحائط وظل هناك مشلولًا بلا دور، في حين استدار بقية المجتمع مع الطريق واستقر في المنحى الجديد الذي اتخذه.

ولكن، حتى لو كان من الممكن أن ألتف بالسرعة اللازمة مع انحناءة الطريق المفاجئة، هل كنت لأفعل ذلك؟ هل أريد ذلك؟ هل ـ لو استطعت ـ كنت سأريد أن أصبح جزءًا من هذا التخلف الفكري الضارب في طول عقلية البلاد وعرضها؟ هل كنت أريد أن أكون جزءًا من أي من هذا الذي يجري من حولي؟ هل كنت أريد أن أصبح جزءًا من نخبة القضاء مثلًا؟ أتزاور وأتشاور وأتصادق مع هؤلاء القضاة الذين لا أريد

الكتابة عنهم سوءًا ومن ثم لن أكتب عنهم؟ أو أن أكون جزءًا من نخبة فكرية لا تميز بين انفعالها وعقلها، بين خبرها ورأيها، بين أملها وما تراه؟ وهل من الممكن أن أكون فاعلًا في هذا المجتمع دون أن أكون جزءًا منه؟ لا أعتقد. لا أعتقد إطلاقًا. ولقد حاولت، حاولت أن أتواصل مع هذه النخب، قطعًا حاولت. ولم أتمكن. لم أستطع أن أحتمل الغثيان الذي كان يعتريني، كما أدرك الآخرون أني لا أستطيع احتمالهم. ومهما حاولت، كان من الجلي لهم أنهم لا يفهمون نصف ما أقول، ولا يعجبهم أن يكون هناك رفيق جالس وسطهم يراقبهم ويفند ما يقولون أو يريهم ثغراته وعدم اتساقه، أو حتى يصمت ويحكم على صواب ما يقولون. وأنا أعذرهم، فمن يريد ذلك الرفيق. ورغم وحشة الوحدة، فقد صارت أعذب من هذه الصحبة. لقد اخترت أن أكون على الهامش، أن أقبع خلف جدران بيتي وأكتب، ولا يصح أن أشتكي الآن.

اخترت أن أظل هنا، وإن كنت غير فاعل، وإن كنت هامشيًا. اخترت أن أظل واقفًا وسط الخرائب، كشاهد، لا لأحد غير نفسي أو المستقبل. سأقول يومًا ما، ربما عند مماتي، ربما الآن، تحت هذه الأنقاض، وفي هذه الأوراق، إني اخترت أن أعود لوطن تركني ومضى، واخترت أن أظل فيه واقفًا كقصر من قصور الحلمية القديمة، مهجورًا وبلا فائدة، سوى أن يطل بشموخه على واقع تدهور وتداعى، ليذكر أحد العابرين ـ ربما ـ بما كان، وبما يمكن أن يكون، ولأن القصر لن يكون أحد قصور الحلمية إن نقل إلى فرنسا، لن يكون نفسه دون حياة الحلمية القديمة التي انقضت ـ مثلما أصبح واضحًا لي الآن ـ دون رجعة.

* * *

Table of Contents